رواية

حقائب الذاكرة

شربل قطّان

نوفل

رواية

حقائب الذاكرة

شربل قطان

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.
صدر عام 2010 عن **نوفل** دمغة الناشر هاشيت أنطوان.
الطبعة الثالثة، 2015

هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2013
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11 رياض الصلح، 1107 2050 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

ز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء
صويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ
، أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: **معجون**
صورة الغلاف: **Shutterstock**
تحرير الطبعة الأولى: **سمر أبو زيد**
تنقيح ومتابعة نشر الطبعة الثانية: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-9953-26-848-4
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-9953-26-629-9

إلى كلّ أبٍ سرقه الزمن أو أخذه أحد
تلك الأصوات فغمرته الظلمة.

الفصل الأوّل

كان الأب نعمان يقول إمّا نعم وإمّا لا، إمّا نهار وإمّا ليل، فترة العصر بدعة ها الليل لينال من حصّة النهار. قال إنْ وجدت نفسك في فترة عصر، فاعلم أنّ الليل مقبل لا محالة، فعليك الرجوع، وإلّا فالظلمة.

قت كلمات الأب نعمان في ذاكرتي ليس لحكمتها، بل لأنّي عرفت الظلمة الّتي دها. هذا الرجل هو من القلّة المارقة في وطني، لأنّه متديّن ولكن غير طائفي، . من دون استبداد، سياسي بعيد عن السياسة، وقد حافَظ على إسلاميّتي زمن الدين. هو أوّل من التقيت من جنس العمالقة، وأوّل من عرفت من أبناء النهار.

فترة العصر هذه الّتي حذّر منها، الفترة الرماديّة ما بين الأبيض والأسود، هي فترة السائدة. إنّي أحيا بين تلال الرمادي، وبيوت الرمادي، وأناس الرمادي، وظلال هذا للون تخفي كلّ ما حولي من ألوان. وكما تعِد فترة العصر بالليل، يعِد الرمادي بالظلمة. والظلمة لا تُرى، ولا تُلمس ولا تُحسّ، لأنّ وجودها بخفائها، ودليلها مخلّفاتها، وخصائصها مماثلة لخصائص الثقب الأسود في عالم المجرّات، الّذي يلتهم كلّ شيء حتّى النور، فتَراه العين لأنّها لا تراه، والّذي لا يترك سبيلًا إلّا للإرهاصات السلبيّة.

ول البعض إنّ الإنسان في صميمه مستكشف يحبّ كلّ ما هو مجهول وبعيد، ومنهم من يقول إنّه متسائل يريد أن يفهم كلّ ما حوله من طبيعة ووجود. أنا أقول لا. إنّنا أكثر من ذلك بكثير، نحن في صميمنا باحثون. ومن جملة ما نبحث عنه أمكنة أو أجوبة ربّما، ولكنّ بحثنا يتخطّى ذلك بكثير.

تي هي حكاية كلّ إنسان، إنّها قصّة بحث. بعضنا يفتّش عن السعادة، عن الحبّ، عن عن المعنى... وهناك شيء واحد أكيد: كلّ منّا يبحث عن شيء ما. والاكتمال في لحياة يأتي من معرفة هذا الشيء، ثمّ من تحديد الغاية من إيجاده.

لتي عرفت بسهولة، ومذ وعيت على الدنيا، موضوع بحثي: إنّي أبحث عن شخص.

أمّا سبب بحثي عنه... فله جواب ليس بالسهولة ذاتها ولا بالوضوح ذاته. لأنّ اب تكثر وتتغيّر وتتلوّن كأوجه الشمس في أقسام النهار. أبحث عنه حتّى أراه... كي أقول له... لأسأله... لأستكشف معه أماكن ومجاهل... أريد الثروة به، أريد السعادة

ه، أريد المعنى منه. خمسة عشر عامًا وأنا أبحث. خمسة عشر عامًا، قضيتها في ة المطار ومكاتبه. مشاعري تعيش دومًا في ظلّ مسيرتي، فأغمض عينَيّ عن وعمَّن أحاط بي. كلّ هذه السنين وأنا أسأل عنه، أتحرّى عن سفراته، أرسل ه إلى أرشيفات مطارات العالم، علّني أكتشف ما حلّ به. وبالرغم من انقطاع خباره منذ سنين عديدة، ما زلت مصرًّا.

حقت بأمن مطار بيروت، حتّى أحصل على تصريح يخوّلني تناول معلومات الرحلات سماء المسافرين، وأكتسب هيئة رسمية أتحرّك عبرها. كلّ مساء، أدرِج أسماء ين من رحلات بيروت والمطارات الأخرى في حاسوبي الخاصّ، وأجري بحثًا عن بر السنين أدخلت آلاف المعلومات، جمعتها من أرشيف المطار وصناديقه، حتّى ما ، عصر الكمبيوتر، حين كان تدوين القوائم يتمّ بخطّ اليد. وقد حرصت دومًا على ىاء في المركز نفسه، حتّى لا أبتعد عن الرحلات ومعاملاتها، فلم أعمل من أجل أو امتيازات، وابتعدت قدر المستطاع عن كلّ ما هو حولي من أحداث.

لكنّي بدأت بحثي قبل ذلك بكثير، أو على الأقلّ تساؤلي عمّا حلّ به. كانت تلك ي الأولى مع الظلمة، يوم هبطَت قذيفة عشوائيّة من أحد المدافع، وما زلت أجهل ى اليوم، إن أصبحت معها يتيمًا أم لا، لكنّي بلا شكّ عشت حياة اليتم، واختبرتها منذ وم، زمن كنت في السادسة من عمري، وكانت بداية الحرب الأهلية اللبنانية.

* * *

ت عبر واجهات المطار الزجاجية، وكان كلّ شيء نظيفًا بفضل مطر الليل الخفيف، كانت ساحات المطار برَكًا صغيرةً تتلألأ. في المدرّجات، تنتظر طائرات من كلّ نوع وحجم، وعاملون بثياب برّاقة يتفحّصون العلب الحديدية العملاقة، كأطبّاء من نوع مختلف.

تـلقّيت اتّصالًا...

تحدّد موعد في الساعة الرابعة بعد الظهر. كانت تلك عادة المدير، وهي ستدعاء الموظّفين قبل انتهاء الدوام بنصف ساعة، للتأنيب. ولم تكن هذه المرّة لأولى بالنسبة إليّ.

ب الاستدعاء حادثة أخرى مع مهرّبي المخدّرات. يتملّكني الجنون حين أذكر ما أخذه ، هؤلاء الأوغاد، فأفقد السيطرة على أعصابي. أتعارك معهم، أضربهم، أجعلهم يدفعون ثمنًا ولو بخسًا. لن تمرّ هذه الحادثة بسلام، كسابقتها.

عت سمّاعة الهاتف مكانها، وعاودت التركيز على شاشة الكمبيوتر. جلس حسن لتي، لم يسألني عمّا حدث، لم يعلّق، كان شديد التهذيب. التحق حسن بأمن المطار منذ سنة. شابّ في العشرين من عمره، مفرط الحماسة، مميّز بطيبة قلبه وخوفه ديد من أبيه. كان أبوه صارمًا إلى حدّ أن سُمِّي «الساطور». تشرّب حسن، مع الرضاعة، خوف السلطة ورهبة المركز. يتقيّد بكلّ قوانين الوظيفة. ينفّذ كلّ الأوامر ن دون أيّ اعتراض، كأنّه اتّخذ قرارًا بالانصياع التامّ لمتطلّبات الوظيفة. أمّا شخصيّته فكانت مفعمة بالحياة، وهو مولع بالأفلام البوليسية والعاطفية، ودائم لاسترسال في رواية المشاهد المؤثّرة.

نّا أربعة في المكتب، أنا وحسَن في زاوية، الرقيب عزّام ومساعده في الزاوية الأخرى.

عداء قديم كان بيني وبين الرقيب عزّام، اختلاف في الرؤيا والولاء. هو ولاؤه للمدير، أمّا أنا فلا علاقة لي به، لأنّه يكره أن تمرّ وساطتي عبر سواه، ممّا يجعل تبعيّتي غير متّصلة به، عكس حال معظم الموظّفين. وإذا كره شيئًا فهو استقلاليّتي عنه، لأنّها تجعله في ضياع تامّ، فقد اعتاد إمّا أخذ الوساطة وإمّا إعطاءها، وفي حالتي، تنكسر هذه السلسلة.

التصاق الرقيب عزّام بالمدير أعطاه دفعًا سلطويًّا، جعله يقلّل من احترام الكثيرين في المطار.

كان من الواضح أنّه عالِم بموعدي مع المدير، فراح ينظر إلى ساعته ويبتسم لي.

جلس أمامي بملامح ذكّرتني بولدٍ من طفولتي.

روني عبّود.

اسم لم يخطر ببالي منذ سنين... مدرسة دير كفرشيما، المرحلة الابتدائية، سنة الحرب الرابعة.

لحرب عادة تأخذ، لكنّها أيضًا تعطي. أوجدَت لنا الحرب لغة جديدة، مفردات انبثقت من يوميّات الأبعاد المضادّة. لغة لا أفعال فيها، فقط أسماء لسياسيّين ومناطق وأنواع قذائف. فإذا تردّدت هذه الأنواع الثلاثة من الأسماء في جملة واحدة، كان ا في أقبية الدير وعلى حجارته. وتتحوّل وجباتنا إلى أطعمة أحاديّة مسلوقة، ويغلب ى الماء طعم أوعية المازولا البلاستيكيّة الصفراء، فتتحول ليالينا إلى أنوار شحيحة، تتخلّلها خشخشات كهربائية ثابتة في أنصاف الساعات، لنشرات إخبارية لا تحمل أيّ جديد، وتُختم بأغانٍ جعلتنا نعرف بمودّة بريق إسوارة العروس، ونأمل م من تحت الردم، ونحبّ فتاة ترفض الموت وتغنّي للجنوب.

كان روني من تلامذة البلدة، بخلافي أنا، إذ كنت أعيش مع أولاد يتامى في دير شيما. وعلى مدى سني المرحلة الابتدائية، كان روني يبثّ الذعر فينا، وهو رفيق صفّنا ولكنّه يكبرنا بسنتَين بسبب رسوبه المتكرّر، فترجم تراجعه العلمي وّق جسدي. كان يأمر هذا ويضرب ذاك، ويسرق ألواح الشوكولا والأقلام والمساطر. ني وصديقي شادي بحصّة وفيرة من المضايقات.

كان شادي يصغرني بعدّة أشهر، هزيل البنية، شديد الإحساس، منزويًا لا يُحسن نلاط. جاء به الأب نعمان إلى الصفّ يومًا، وأجلسه قربي حين كان في السابعة من عمره.

يوم، عرف روني سرًّا عن شادي. سرٌّ حاول شادي المستحيل لإبقائه طيّ الكتمان. لسببٍ ما، كان شادي في كلّ ليلة، خلال نومه، يفقد السيطرة على بوله فيبلّل ره. أخذه الأب نعمان إلى عدّة أخصّائيين في بيروت، وجُرِّبت عليه عدّة أدوية وصفات، لكنّ شيئًا لم ينفع. حاول تخفيف السوائل والاستفاقة في منتصف الليل فلم يُجْدِ ذلك نفعًا.

اعتقد الأب أنّ السبب نفساني. إلى أن التقى يومًا بطبيب أوضح له أنّ السبب هو ارتفاع نسبة البروتين في الأكل، الّذي بدوره يجعل نسبة الأسيد عالية في الدم،

بّب ارتخاء عضلات المثانة. إذًا، على المريض تجنّب أكل اللحوم، والحليب ومشتقّاته كافّة البزورات. وبعد أيّام قليلة من الحمية الجديدة تحسّن وضع شادي.

عرف روني بقصّته فصار يناديه بـ «الشخّاخ». يستهزئ به ويسخر منه، ويخبر الجميع بحاله. بقي كذلك أيّامًا عديدة، إلى أن أحضر أحد الأساتذة يومًا علبة شور أميركيّة. كان هذا النوع من الطبشور غالي الثمن، بحيث تغلّف كلّ طبشورة بغشاء بلاستيكي لحماية الأصابع، وبسبب ثمنه المرتفع كانت المدرسة تمتنع من تقديمه.

في فرصة الغداء، سرق روني الطبشور من حقيبة الأستاذ، وراح يلوّن به جدران ومن ثمّ فتّت بعضه وأتلف الباقي.

عند عودة التلامذة إلى الصفوف، علم الأستاذ باختفاء الطبشور، فأراد معرفة السارق. إلّا أنّ روني لم يحرّك ساكنًا، فاستشاط الأستاذ غضبًا، وهدّد وتوعّد. لم كترث روني لأنّه كان عالِمًا بأنّ أحدًا من التلامذة لا يجرؤ على إفشاء سرّه. ولكن ن غضب الأستاذ ولامبالاة روني، وشى شادي به.

نت المدرسة مؤلّفة من عشرة صفوف. اقتاد الأستاذ روني إليها كلّها، وفي كلّ صفّ ضربه ثماني مساطر على عدد الطبشور الّذي سرقه، بما مجموعه ثمانون مسطرة جعلت يديه بحجم رأسه.

اليوم التالي، وفي أوّل فرصة، انقضّ روني على شادي كالوحش. صفعه، ركله، عه عبر درجات الملعب، أوسعه ضربًا من دون رحمة. ثمّ طرحه أرضًا وأبقاه ملتصقًا بها، بوضع أسفل قدمه على ظهره. فكّ سحّابته وبوّل على رأسه، على مرأى من التلامذة وهو يصرخ به: «شخّاخ. شخّاخ. شخّاخ.»

لليال عدّة، بعد أن تُطفأ الأنوار ويخلد الجميع إلى النوم، كنت أسمع بكاء شادي الخافت. كان يلصق وجهه بالوسادة، يضع اللحاف فوق رأسه ويسترسل في البكاء.

بكى شادي على إذلاله، بكى على يتمه وشعوره بعدم الأمان، وعلى اشتياقه إلى كى على خوفه من قذائف الهاون وصوت الرشقات واختفاء المشاوير، بكى من عم البطاطا المسلوقة وغالونات الماء ورائحة الملجأ، وضوء الشمع الضئيل. بكى الشوارع الّتي تنتهي قبل أن تنتهي، والباصات الثابتة والأغطية المعلّقة الّتي لا تدفئ، الزوايا حيث صور قدّيسين لن يطوَّبوا. بكى حتّى أجبره النوم على عدم البكاء.

أمّا أنا فبكيت على شادي.

طرد الأب نعمان روني لأسبوعين.

ازداد شادي عزلة وسكوتًا وقلّ أكله. أخذ ينام لساعات طويلة، وانحصرت حميته بألواح شوكولا الأونيكا، الّتي كانت تُعطى لنا يوميًّا في فرصة الصباح، فكنت خصّ شادي بحصّتي.

عاد روني إلى المدرسة، وبعد أيّام قليلة، إلى عاداته. أصبح الاستهزاء بشادي روتينًا يوميًّا يتفنّن به. رأيت في شادي انكسارًا كأنّه قبول بواقع الذلّ. شعرت أنّه، في ت التعدّي، كان يغيب حتّى عنّي. تشرُد عيناه في المدى ويصمت، وكأنّه قد قبل ة في وجه جلّاده. في إحدى المرّات، التقطه روني من أذنَيه، محاولًا رفعه عن . وقف شادي مُسْدَل اليدين، نظر إليّ ثمّ أدار رأسه إلى الناحية الأخرى وأخذ يبكي.

لّكتني برودة جعلتني أرتجف من دون سيطرة. دمعت عيناي لا من خوف أو تأثّر، غضب جعل الصور أمامي حمراء، فانقضضت على روني كالمجنون، شددت شعره ن حتّى أفلت شادي. وجدت نفسي مسمّرًا من رقبتي إلى حائط الملعب، لا أدري تّى اليوم كيف استجمعت الشجاعة، فقد كان بمقدوره أن يسحقني كحشرة، وهو ابن الثلاثة عشر عامًا، وملامح الرجولة قد بدأت بالظهور عليه. ربّما مناداته لي يتيم طوال تلك السنين جعلت سخطي عليه يزداد، وقد حان وقت الاختيار بين لانصياع والرفض، فرفضت.

دفعتُه بما أوتيت من قوّة فتراجع. دفعته مجدّدًا إلى الخلف، حتّى أجعل المسافة بيني ن الحائط كافية لتحضير يدي. تحوّلَت الدهشة على وجهه غضبًا، عقد حاجبَيه وعضّ ى أسنانه مفرجًا عنها، رافعًا يدَيه، محاولًا الانقضاض على رقبتي. في هذه اللحظة ت بلكمة عنيفة بيدي اليسرى، جاعلًا كتفي وراءها، ناقلًا رجلي إلى الأمام.

، قبضتي المحكمة جزءًا من أنفه وأعلى أسنانه. خالجني خوف من أنّ لكمتي لم أيّ ضرر. إلّا أنّ الإحساس بالألم الشديد، الّذي انتقل من قبضتي إلى معصمي عة كهرباء، وتمزُّق الجلد في أصابعي الّتي قبَّلت أسنانه، بدّدا هذا الوهم. هوى روني وراء فوقع على مؤخّرته. انفجر الدم من أنفه وشفتَيه وبصق على الأرض إحدى أسنانه الأماميّة. انهمر دمعه وأطلق صوتًا فظيعًا، كأنّه جمع صراخ كلّ الأولاد الّذين ضربهم في صوت واحد، سمع صداه كلّ تلامذة المدرسة.

هت يومها أسطورة روني عبّود، وبدأت آلام يدي اليسرى.

* * *

ر الممرّات إلى مكتب المدير، مارًّا بجحافل من الفتيات السيريلنكيّات كبحر من الفاقعة، يقفن في صفوف، منتظراتٍ سمة الدخول. وصلتُ إلى مكتبه ووقفتُ ظر. كان من عاداته أن يجعل الجميع ينتظر. وفيما أنا مستغرق في أفكاري، دنا منّي صبيّ صغير أشقر، لم يتجاوز الرابعة، وهو يبكي. تعجّبت من وجوده في هذا المكان. ن ابن أحد الزوّار، إلّا أنّ حقيبة ظهره جعلتني أدرك أنّه من المسافرين. كيف وصل ى هذه المنطقة المحظورة على المدنيّين؟ أخذ يقترب منّي باكيًا، ثمّ مدّ يدَيه نحوي لألتقطه فتراجعت. لم يلبث أن ازداد بكاؤه فمدّ يدَيه مجدّدًا، لكنّني ابتعدت. ظننت أنّني لو تجاهلته، فلا بدّ من أن يجده أحد الموظّفين الآخرين، ويعيده إلى أهله. لم أرد أن أشغل نفسي بهذه المشكلة، لكنّني بعد تردّد، تناولت الجوّال الّذي بحوزتي ت مكتب الاستعلامات.

ادت أفكاري، فيما كنت أنتظر خارج المكتب، إلى قصّة روني الّتي لم تنته يومها عند ذا الحدّ. فقد عاد بعد يومَين من الحادثة مع مسلّحَين، ادّعيا أنّهما عنصران من يليشيا. بحثوا عنّي في الملعب بغية اعتقالي. في هذه الأثناء، كانت الناظرة قد نبّهت لأب نعمان، الّذي اتّصل بدوره بقسم الميليشيا في كفرشيما، وأسرع إلى الخارج.

بدأ نقاش حادّ بينه وبين المسلّحَين، اللذَين تردّدا بعد وصوله في أخذي. ادّعيا أنّهما ن في الحزب، وأنّني آذيت روني، وبما أنّي مُسلِم ومُقيم في المنطقة المسيحيّة، بهما تأديبي. جُنّ جنون الأب نعمان، فأنا في الحادية عشرة من عمري، والموضوع

لا يستحقّ ذلك. لكنّهما لم يرتدّا. فتناولني أحدهما بثيابي، محاولًا اقتيادي إلى السيّارة، فهبّ الأب نعمان لمنعه. فجأة، شهر المسلّح الآخر سلاحه في وجه الأب ن، فعلا صراخ المعلّمات، وهرب التلامذة إلى داخل الصفوف.

في اللحظة عينها وصلت شاحنة تابعة لقسم كفرشيما، فبادر المسلّحان اللذان ا روني إلى التعريف بنفسَيهما. اقترب المسؤول الّذي ترجّل على عجلة من حنة، وبدون أيّ كلمة، رفع بندقيّته وانهال بعقبها على رأس المسلّح القريب من الأب نعمان، فسقط أرضًا، بينما تناول باقي العناصر المسلّح الآخر.

– نحن معكم! نحن معكم! صرخا.

– أنتم معنا يا كلاب!

وقّف الضرب بعد رجاء الأب نعمان. كان الدم منتشرًا على بعد أمتار من حولنا، حيث ى المسلّحان في بركة لزجة، يغطّي وجهَيهما قناعان من الوحل الأحمر. كان روني ي كطفل من الخوف، أمّا أنا فوقفت مشدوهًا. اقتادوهما إلى الشاحنة، وكانوا في د أخذ روني، لكنّ الأب نعمان منعهم لأنّ روني تلميذ المدرسة وعقابه على يده شخصيًّا.

كانت تلك آخر مرّة أرى فيها روني عبّود أو أسمع به.

ومنذ ذاك اليوم، لم أعد أسمع شادي يبكي في الليل. لم يشعر بعدها بانكسار أو خوف، ولم تعد أصوات بيروت ترهبنا ولا رسائلها تعنينا، ولا لقاء قاء أو خصامهم يملي علينا وجوب الأمل أو فقدانه. جعلْنا من اليُتم عائلة ومن الدير بيتًا، ومن برنامج «عالم الصغار» عالمنا، ومن «بومر» كلبنا المفضّل، و«زينة ول» و«السنافر» مواعيدنا المحتّمة. ومن «ستيف أوستن» بطلًا لنا ومن أغنية «علّي علّي بطل فليد» نشيدًا لنا.

* * *

ب المكتب. استُدعيت إلى الداخل. أطفأتُ الخليوي متقيّدًا بالتعليمات الصارمة دخلت.

مدير. عيون زجاجية، الحديث معه دائمًا باتّجاه واحد. أتعجّب حين أراه، بين الناس، شخصًا آخر.

– تفضّل.

ست على أحد الكرسيَّين على بعد أمتار من مكتبه. على الحائط خلفه، علّق صورًا له ع سياسيّين ومسؤولين من مختلف المقامات. فتح ملفًّا أمامه. أوراقًا تحوي كلّ ل حياتي منذ انتسابي إلى أمن المطار. ملفًّا رقيق الحجم بالنسبة إلى ملفّات لآخرين. خمس عشرة سنة تلخّصها أوراق قليلة. أبعد الملفّ من أمامه.

– كلّ هذه السنين لا دورات ولا لغات، كمبيوتر صفر، لا ترقيات امتيازية ولا من يحزنون...

بقيت صامتًا.

– شو قصّتك، أطرش؟ عنيد؟ أوامري كانت بسيطة وبالعربي الدارج. ممنوع عليك بش المسافرين، أيتطلّب ذلك شهادات جامعية؟

لم أجاوب، كان حريًّا به أن يشكرني لأنّ هذا ثالث مهرّب أقبض عليه في الأشهر الأخيرة.

وهذه النوبات المجنونة والصراخ والعراك، هل تعتقد أنّ المطار ملعب مدرسة؟

كره مهرّبي المخدّرات إلى حدّ الموت. هؤلاء الأوغاد، كم أكرههم!

– كل زملائك تقدّموا، تعلّموا، خضعوا لدورات في الإدارة واللغات والكمبيوتر، أمّا ت فراض بالخمس مئة ألف ليرة. كفاية للعلف والدخان؟

ظر جوابي ولم ينتظر. كان حريًّا بي الدفاع عن نفسي. ولكنّني فضّلت أن أتحمّل بذاءته الكلاميّة لعدّة دقائق، كالمرّات السابقة، إلى أن يصرفني، لأنّه عاجز عن فعل يّ شيء آخر.

ي كلّ الأحوال، سوف أريح رأسي منك، فمن الغد تترك مكتبك وتتوجّه إلى مكتب لجمارك.

– ماذا؟

– أريدك أن تساعدهم في قسم الحقائب.

– أترك مركزي؟

– أريدك بعيدًا عن المسافرين ومعاملاتهم.

– هذا مركزي منذ سنين. لا شغل لي في الجمارك!

– الموضوع مُنتَهٍ.

– إنّه غير منتهٍ بالنسبة إليّ.

رمقني بنظرة حادّة ولوّح بيده ثمّ توجّه إلى مرافقه:

علي، صار الرقيب إيهاب علّام رائدًا من دون علمي؟

ثمّ قال بصرامة:

– الموضوع منتهٍ.

– سنرى.

أعلم من هو هذا الّذي أتحدّاه، إلّا أنّي لم أكن لأتنازل بأيّ ثمن عن مركزي الّذي لما حرصت على عدم تغييره. وكلانا عارف بالتركيبة اللبنانيّة وتوزيع الحصص، حسب ئف والوساطات الّتي تحمي الكبير والصغير. وأنا لي من يحميني.

ت وكبيرك على «صبّاطي». قم من وجهي.

لتلك الكلمات معان ذات أبعاد جديدة. فهمت أنّ الوضع السياسي الحالي، خاصّة ث اغتيال رئيس الوزراء اللبناني منذ أيّام، قد غيّر من مجرى اللعبة، لكن إلى أيّ حدّ؟ ري. لم أفهم سبب إصراره على نقلي، واستمراره الدائم في الهجوم عليّ، رغم أنّنا مي إلى الطائفة نفسها، وحتّى المذهب نفسه.

* * *

ت إلى البيت حوالى الساعة الخامسة والنصف، كان كلّ شيء نظيفًا كعادته، يوم مي الفيليبّينيّة وتقلب الشقّة رأسًا على عقب. فتحتُ الثلّاجة فوجدتُ الأطباق المعتادة الّتي كانت تحضّرها لي بعدد أيّام الأسبوع. وددت لو أنّها تأتي كلّ يوم حتّى تظلّ الشقّة بهذه النظافة، إلّا أنّي رأيت في ذلك إفراطًا لأنّه من غير المسموح لها

أن تزيح أشيائي في غرفة النوم والمكتبة، فلا يبقى لها سوى المطبخ وغرفة جلوس والحمّام.
قطت الهاتف وطلبت رقمًا جوّالًا:
– ألو.
– أبونا نعمان!
– نعم.
– معك إيهاب.
– أهلًا يا ابني. كيفك، كيف أحوالك؟
شرحت له ما حصل، قال انتظر اتّصالي.
ت إلى مكتبي. شغّلت الكمبيوتر وعلبة صحن الإنترنت الهوائي، ثمّ نقلت محطّة التلفزيون إلى قناة بلومبرغ، لقراءة تغيّرات أسهم بورصة داو جونز. ارتفعَتْ. حتمًا بعت الأسهم. تحقّقتُ من بريدي الإلكتروني فكانت هناك رسالة تُعلمني بالبيع. ت الآلة الحاسبة ووضعت الأرقام، أربعة آلاف وست مئة دولار محصول العملية. ُ حسابي الإلكتروني المصرفي في سويسرا، فرأيت أنّ رصيدي قد تعدّى المئة لأربعين ألف دولار.
كان بحثي يتطلّب أموالًا كثيرة، وبما أنّ وظيفتي في المطار تكاد لا تؤمّن لي ت عيشي، رأيت أنّه من الضرورة تأمين دخل ثان. فتعمّقت في دراسة البورصة ها، حتّى برعت فيها وجنَيت منها عبر السنين مبالغ أمّنت لي استمرارية التمويل.
قّقت من باقي الرسائل، فوجدت رسالة قصيرة من مكتب التحرّيات الخاصّة في ميونخ، جملة واحدة بالألمانية: «معلومات جديدة. انتظر فاكس.»
لم أتحمّل الانتظار، فطلبت ميونخ. وسألت بالألمانية:
– ما الجديد؟
– وجدنا وثيقة الإقامة الدائمة.
– معقول! كيف؟
– حصلنا على معاملات السنة 1975 بفضل القانون الّذي يقضي بتعميم المعلومات الرسمية بعد مضيّ ثلاثين عامًا عليها، فوجدنا فيها وثيقة الإقامة الدائمة. سنرسلها لك بالفاكس، حالما نحصل على نسخة عنها.
كانت هذه المعلومة إنجازًا لم أتصوّره ممكنًا، بعد كلّ هذه السنين والعوائق الّتي صادفتني.
وثيقة الإقامة الدائمة تحتوي حتمًا على رقم تعريف يستعمله الحاصل عليها كرقم ئة، ممّا يعني إمكان البحث من الآن فصاعدًا، باستعمال الرقم بدل الاسم، وذاك قد معلومات جديدة. تأكّدت من أنّ الفاكس مُشَغَّل.
 الهاتف. جاءني الردّ من الأب نعمان:
– آسف يا ابني...
ن حدث الاغتيال المؤلم لرئيس الوزراء اللبناني، منذ أيّام، قد أرسل في الجوّ كهرباء مثل عاصفة معلّقة. كأنّ فصلًا جديدًا سيبدأ. غيّر الحدثُ الموازينَ المعروفة، ّ وقتيًّا. والمدير قريب من المخابرات... أدركت أنّي سأترك مركزي كما أمر.

ذه مصيبة لي، سأفقد تصريحي لتناول معلومات الرحلات والمسافرين، وأكثر من ، سأفقد هيئتي الرسمية، فيتعذّر عليّ التعاطي مع مطارات العالم، وما يرافق ذلك صول على معلومات حديثة وقديمة من أرشيفاتهم.

فتحتُ ملفّات الكمبيوتر، ونقلت برنامجًا صغيرًا كنت قد أعددته لمثل هذه الحالة. في الغد أدرجه في حاسوب المطار، فأتلقّى يوميًّا اللوائح أوتوماتيكيًّا في بريدي ي من دون علم أحد. أمّا سائر معلومات المطارات فسيكون الحصول عليها أصعب بكثير.

خرجت حصيلة اليوم من أسماء وسفرات، وبدأت بإنزالها في ملفّات حاسوبي صّ. انتهيت حوالى الساعة الحادية عشرة.

صلني الفاكس من ميونخ في منتصف الليل، قرأته بتمعّن. الاسم، رقم جواز السفر، رقم سمة الدخول، عنوان صاحب الطلب. كان تاريخ صدورها نهاية عام 1975 أي شهر من مقتل جدّتي. تطابقت المعلومات الأخرى، مثل الاسم والعنوان، مع ما حصلت عليه من تحرّياتي السابقة. إنّها حتمًا تخصّه.

ت إلى رقم الإقامة الدائمة، فأخرجت مكبّر النظر، حتّى لا أخطئ في التدوين. دوّنته ثمّ أدخلته في محرّك البحث، فبدأ بمقابلة آلاف السفرات ما بين لبنان وألمانيا ر الدول. في أواخر التسعينيّات، حين تمّت إعادة تشييد المطار، اكتشف البنّاؤون رفة صغيرة، كانت قد سُدّت بحائط خشبيٍّ بسبب تقسيم مكتبيٍّ قديم، حوت على ووثائق قديمة لرحلات من الستينيّات والسبعينيّات. حصلتُ عليها وأدخلتُ كلّ معلوماتها. واكتشفت فيها أوّل سفرة قام بها إلى ألمانيا، عام 1968.

دتُ الستار من أمام اللوح المعلّق على طول الحائط، كتبت على ورقة لاصقة تاريخ لإقامة الدائمة، ألصقتها بين تاريخ مقتل جدّتي وآخر خبر في ملفّاتي عنه، معلومة جدتها في أرشيف مطار زوريخ، سفرة من ألمانيا إلى فرنسا عام 1978 وضعت ة الفاكس في غلاف من البلاستيك، ودخلت غرفتي الثانية.

مكتبتي الخاصّة.

حيطانها كلّها مغطّاة برفوف خشبية تحتوي على مئات الكتب. تاريخ، جغرافيا، وتر، لغات، إنترنت، بورصة، اتّصالات، وغيرها من المواضيع الّتي درستُها وتعمّقت لى مدى السنين. فتحت جارورًا ووضعت الفاكس في مكان بين الوثائق الرسمية. يت العلبة الحديدية الفضّية في زاوية الجارور. آه كم أصبحت صدئة!

عاودتني صور قديمة، تفاصيلها ملتبسة بعض الشيء، ولكنّ مشاعرها ثابتة، م تتغيّر. استعدْت ما حدث يوم زارتني الظلمة لأوّل مرّة، في بداية الحرب الأهليّة اللبنانيّة.

ن الجيران قد أمضى الليل إلى جانبي، حيث تركه أهله مع بعض الثياب، وهربوا من ة الشيّاح إلى شرقيّ بيروت. بدأت أصوات الرشقات، الّتي لم تنقطع طوال الليل، أكثر وضوحًا، وهدير المجنزرات غطّى على أصوات ألعابنا الحربيّة. اهتزّ البيت بعنف، . إبريق الشاي على الأرض، وتحطّم زجاج الباب الأمامي. التقط كلّ منّا أغراضه، رعنا خارجًا، مذعورين من أصوات الخطر المحتّم وصراخ جدّتي ودعائها.

وبسرعة تجاوزنا الصالون إلى الشرفة، ولهلعنا، وجدنا البوّابة الحديدية الخضراء،

سل الساحة الصغيرة عن الممرّ المؤدّي عبر البنايات إلى الطريق العامّ، مشلّعة من هتَين، والعتبة أصبحت ترابًا أصفر. ركضنا عبر الممرّ حتّى أدركنا السيّارة. وضعتنا في المقعد الخلفي. وفجأة، سقطت قذيفة على أحد البيوت القريبة، تلتها زخّات تربة والحجارة، انهالت فوق السيّارة وعلى الطريق. وبين بكاء ابن الجيران وبسملة ي، فتحتُ باب السيّارة، وهرعتُ نحو البيت.

– عُدْ يا إيهاب! عُدْ يا إيهاب!...

خطوات قليلة، وصلتُ إلى الساحة. اهتزّت من تحتي الأرض، فأحسست بضغط من بي إلى داخل المنزل. توجّهت إلى غرفتي، والتقطت من تحت الفراش علبتي ، ومن ثمّ عدت مسرعًا إلى الخارج. انفجار آخر... وقفتُ والتقطتُ العلبة من جديد، رحت عبر الساحة أركض نحو الطريق العامّ. كانت سيارة الرينو الصفراء ما تزال بانتظاري. إنّما تبدّل لونها وصغر حجمها، وأحاطتها هالة بطيئة من الدخان الفضّي.

أصبحَت جميلة باختلاط ألوانها. جميلة جدًّا. صفارها توهّج بفعل انعكاس ضوء النار ظرَت إليّ، كلّمتْني، وصلتْني حرارتها. بحثت في كلّ اتّجاه عن ابن الجيران وجدّتي فلم أر أحدًا.

الاثنان بموكب هذا العرس الجميل، بين أصوات المفرقعات والطبول والصنوج وبريق النار الاحتفالية. ما أروع هذه المركبة بألوانها، وطرحة العروس الفضّية ملساء، تتهاوى مع النسيم الممزوج برائحة البارود الشهيّ والدهان المشتعل! فاتني عرس، فاتني الاحتفال...

على جانب الطريق متفرّجًا، تخلّلَتْ جسدي، بين الحين والآخر، ارتجاجات صغيرة شعرتُ بدغدغتها فوق خدَّيَّ المبلّلَين.

ل سيّارة الصليب الأحمر، الّتي نقلتني إلى مستشفى أوتيل ديو، ودّعت آخر مشهد لي للشيّاح، وللمنطقة الّتي أصبحَت فيما بعد تُعرف ببيروت الغربية. وبين الأتربة خان والحطام، رأيت بيروت مثل كوكب جبّار، تدور وتدور وتتبدّل ألوانها، وتتغيّر ب المكان والزمان والحدث.

عد أيّام قليلة جاء الأب نعمان بطلب من إدارة المستشفى، وأخذني إلى ميتم دير كفرشيما.

الفصل الثاني

ي الصباح لم يكن بحث الكمبيوتر قد كشف عن شيء. ممّا يعني حالة من اثنتَين. إمّا أنّه لم يأت إلى لبنان بعد حصوله على الإقامة الدائمة، أو أنّه لم يستعمل وثيقة لإقامة الدائمة في سفره. في كلتا الحالتَين خيبة أمل.

كانت معلوماتي بالقوانين الألمانيّة للهجرة بسيطة، ولكنّي تساءلت كيف أمكنه الحصول على إقامة دائمة بعد فترة قصيرة من تواجده هناك. أرسلت كتابًا بالبريد ني إلى مكتب التحرّيات أسألهم عن الموضوع.

رابة الساعة الثامنة صباحًا وصلتُ إلى المطار. أوقفت سيّارتي كعادتي في أبعد عن المدخل. كان السير السريع هو رياضتي الوحيدة، هرعت في خطوات سريعة ف إلى ممرّات المبنى، ثمّ خطوط المسافرين ومكاتب الأمن العامّ. شرعت في بيع أغراضي لإفراغ مكتبي. كنت وحدي، فأخرجت من جيبي شريحة الذاكرة وأدخلتها في الكمبيوتر، ثمّ أدرجت البرنامج الّذي سيرسل لي يوميًّا اللوائح عبر رنت. تأكّدت من أنّ أحدًا لم يرني، ثمّ توجّهت إلى الجمارك.

أمضيت معظم الصباح بين الانتظار ورشف القهوة. بعد ذلك، قابلني مسؤول رك، وأعلمني بأنّ وجودي رمزي، وأنّه لا يتوقّع منّي الكثير. ثمّ اصطحبني إلى مكتب الجة الحقائب وعرّفني بمتري.

جبني متري فورًا. رجل كهل في سنّ التقاعد، رصين ومهذّب. رحّب بي بحرارة، ورأيت في عينَيه شخصًا صادقًا بعيدًا عن التفاهات. فتح متري أمامي فورًا برنامج مل القسم، من بداية تلقّي الحقائب حتّى تسليمها. كان كلّ شيء ضمن نظام بسيط ومدروس. كلّ مرحلة تمرّ بها الحقائب لها قواعدها وقوانينها. وأطلعني التفصيل على كلّ مسؤوليّاته.

أُعجِبت كثيرًا بشخصيّة متري وباهتمامه بالتفاصيل. رافقته في جولة سريعة عبر كاتب والمستودعات، فشرح لي مسؤوليّة كلّ قسم وعمله. لفت نظري مستودع ت فيه عددًا كبيرًا من الحقائب. فأفهمني متري أنّ هذه حقائب الترانزيت، ويُطلق عليها أسم «المُلحَقة»، وأنّها في انتظار طائراتها، ثمّ أنّ فترة بقائها قصيرة ، ساعات قليلة، وفي أقصى الحالات يومًا أو يومَين.

ي المستودع التالي فكان هناك عدد قليل من الحقائب. كانت تلك هي الحقائب «الضائعة» بحسب تعبيره.
عادة تبقى هذه الحقائب عدّة أيّام إلى أن يأتي أصحابها.
– يضيع الكثير منها؟
ي الماضي، كان الأمر كذلك. الآن، أُدرِجُ معلومات كلّ حقيبة في ملفّ، أسجِّل رقمها ولونها، وكلّ تفاصيلها. أقابل معلوماتها بلائحة المسافرين ويتمّ الاتّصال بهم أو بأقربائهم.
أدخلني بعد ذلك في قفص بحجم غرفة صغيرة.
– هذه هي الحقائب «المنسيّة». تمّ الاتّصال بأصحابها ولكنّ أحدًا لم يأتِ.
– كيف يحصل ذلك؟
حالات مختلفة، وأوقات غير طبيعية مثل قصف إسرائيلي، وإشكالات أو اعتقالات ي المطار. في كلّ الأحوال، كلّ هذه الحقائب أسماء أصحابها معروفة.
– هل هناك حالات لا يُعرف فيها بتاتًا أصحاب الحقائب؟
– نعم، خمس حالات.
لم أدرِ أنّ سؤالي البسيط هذا، النابع من مجرّد فعل المسايرة وما تلاه، سيغيّر رى حياتي إلى الأبد...
فتح أمامي غرفة صغيرة، رأيت في أرضها خمس حقائب أدهشني مدى تآكل بعضها.
– هذه فئة «اليتامى».
– منذ متى وهذه الحقائب هنا؟
أشار إلى إحداها وقال:
هذه من أوائل التسعينيّات.
– منذ ذاك الحين؟ صرخت.
ابتسم.
– هذه منذ سنة 1975.

* * *

ن إلمام متري بالكمبيوتر محدودًا جدًّا. جلست أساعده في تنظيم الملفّات نية. غيّرت أشياء بسيطة، وفّرت عليه ساعات من العمل الروتيني غير اللازم. رحّب كلّ مساعدة، وأنا أعطيته من كلّ قلبي كشكر على احتفائه بي. رأيت فيه صديقًا حقًّا.
من الواضح أنّك ضليع في الكمبيوتر!
– نعم.
– والإنترنت؟
– أكيد.
– أودّ أن أريك شيئًا، ابقَ هنا.
بعد دقائق وفي يده كتاب، أخرجه من إحدى الحقائب «اليتامى» الخمس الّتي لا علم لنا عن أصحابها.

– أعتقد أنّ صاحب هذه الحقيبة كاتب. للأسف لم يترك لا اسمًا ولا توقيعًا.
طاني الكتاب. قرأت عنوانه: «مقدّمة عن الأوطان». كانت صفحاته مكتوبة بخطّ اليد. محتويات سياسية، قرأت بعض الأسطر منها...
متري أنّ الحقيبة موجودة منذ أوائل التسعينيّات، وهي الوحيدة الحديثة العهد بين حقائب الخمس. عرف ذلك بسبب طريقة شبك بطاقة تعريف الحقيبة عبر سلك كي، عوض حبل القنَّب الّذي كان يُستعمل في الماضي. اعتقَد أنّ إيجاد صاحبها سيكون سهلًا بسبب حداثتها مقارنة بباقي الحقائب، إلّا أنّه تبيّن عكس ذلك. ثمّ طلب اعدته في البحث على الإنترنت، لإيجاد الكاتب أو لإيجاد إشارة ما عن الكتاب.
تعجّبت من طلبه، فلا علم لي ولا خبر بالجمارك وطرقها.
– أودّ المساعدة، ولكن لا خبرة لي بالموضوع.
– لا يتطلّب ذلك أيّ خبرة محدّدة، قد تكون معلوماتك أكثر من كافية.
– لا علم لي بكتب السياسة أصلًا.
ما أُعطيت من عقل ومعلومات، فوجدت العديد من أصحاب الحقائب الأخرى، إلّا أنّ حقائب الخمس لم تحمل ما يكشف عن سرّها. أنت من الجيل الجديد، معلوماتك كثر من معلوماتي ومعرفتك بالكمبيوتر والإنترنت تفوق معرفتي بأشواط.
- أودّ المساعدة يا سيّد متري لكنّي لن أقدر. على كلّ حال، بعد كلّ هذه السنين من ' ثياب وأشياء قديمة! ومصير أصحاب هذه الحقائب، حتّى إن وجدوا، غير معروف.
هذه أكثر من حقائب، خاصّة أنّ مرور السنين عليها جعل منها خزينة وقتيّة، تحتفظ خلها ببرهة زمنية محدّدة، مثل الصورة الفوتوغرافية. أتدري أنّك حين تنظر إلى نجوم في الليل، ترى ماضيها وليس حاضرها؟
عرفت مقصده لكنّي سايرته.
– كيف؟
– ضوء النجوم يستغرق سنين عديدة للوصول إلينا. بعض الأحيان آلاف السنين. فما تراه اليوم هو تاريخ النجم وليس حاضره.
– ...
– نعم. تصوّر من مئة سنة، حين كانت الرسائل تستغرق أشهرًا للوصول. كان رسل يكتب عن أخباره مثلًا: زوجتي ستلد في الأيّام القادمة. حين تصل الرسالة، يكون الولد قد بلغ الثلاثة أشهر. أمّا من يتلقّى الرسالة، فلا يعلم سوى أنّ المرأة ستلد.
ثمّ أكمل:
– الحقيبة الضائعة مثل كلّ شيء ضائع. هو موجود لهدف واحد، العودة إلى صاحبه تّى تكتمل قصّته. وأنا سأحرص على ذلك.
قرّرت منذ سنين عديدة (بعد أن تركنا الدير وحصل بعدها لشادي ما حصل) عدم التورّط مع أحد من جديد. أبقى بعيدًا، خارج العلاقات والرفقة، فلا يطالني أو يؤثّر ، وبذلك أبقي عينَيّ على هدفي، فأجنّب مشاعري كلّ ما هو غير ضروري.
أُقرُّ بأنّ تفسير متري للموضوع أعجبني، وخاصّة تفانيه في قضيّة لا تمتّ له بصلة، حيث لا مكسبًا ماليًّا ولا تقديرًا، لكنّي اعتذرت منه تقيّدًا بقراري.

توجّهنا نحو المقهى لتناول الغداء. جلسنا إلى طاولة مطلّة على المدرج، حيث كانت الطائرات تتحضّر للإقلاع. بدأت الموجة الأولى من الموظّفين بالتدفّق لتناول وجبة الغداء، وامتلأت القاعة برائحة الدجاج والأرزّ وفيالق أخرى من الروائح.

اقترب حسن، فاستدعيته للجلوس معنا، وعرّفته بمتري. رأيت من بعيد، بين خطوط الموظّفين، الرقيب عزّام ومساعده. بعد دقائق، اقتربا وجلسا إلى طاولة قربنا.

بدآ بالمزاح والضحك، وبصوت عالٍ، ثمّ توجّه عزّام إلى متري:

– شو أخبار «اليتامى»؟

فاجأتني معرفة عزّام بتلك الحقائب.

ثمّ قال والاستهزاء يغلب على صوته:

– خلِّ إيهاب يساعدك، فتصبحا شِرْلوكَين.

عنى بذلك التحرّي شِرْلوك هولمز.

متري لم يجب، بل حمل كرسيّه وأدار لهم ظهره.

أخذ عزّام يستهزئ بالجمارك وعملهم وشعار «للخدمة والأمانة».

– أفضل لو كان شعاركم: «الداخل مفقود والخارج مسروق».

لم نعرْه أيّ اهتمام فأكمل غلاظته.

– من عزّ النوم بتسرقني... بتهرب لبعيد وبتتركني...

وانفجرا بالضحك.

شعرت بالغضب، كيف لأحمق كهذا أن يستهزئ بمتري؟

– الله يبعتله ترقية، قال متري.

تعجّبت من دعوته.

– هكذا ينقلونه، فيحلّ عن قفانا.

ضحكنا.

رأيت أنّ لعزّام، كما للمدير، أعداء، أو بالأحرى ضحايا كثرًا. تذكّرت القول الشعبي «يللي مثلنا تعال لعندنا». سمعت قصّة تَولّي المدير مركزه، فقد كان أقلّ رتبة من الموظّفين الآخرين، عندما نشأت مشاكل بين المدير السابق والمخابرات. يضغطون عليه لفتح قنوات سرّيّة تُتيح لهم حرّية التمرير عبر المطار، دخولًا وخروجًا، فيرفض. وذات يوم، من دون سابق إنذار، أصبح لنا مدير جديد.

من بعض موظّفي الجمارك أنّ عدد اليتامى كان أكثر من عشرين، وأنّ متري، بطرُقه البسيطة، وخلال السنين، قد أعاد معظمها. أمّا هذه الحقائب الخمس، فقد عجز عنها. لكنّه وعد بإكمال مهمّته قبل تقاعده، الّذي يصادف بعد شهرَين فقط. وكبادرة تشجيع، تعهّد زملاؤه بإهدائه «كروز» دخان مرلبورو مستورَد لكلّ حقيبة ينجح بإرجاعها.

* * *

إلى منزلي مساءً، وكعادتي، وضعت طبق طبيخ من الثلّاجة في المايكروويف، ثمّ جلست أمام الكمبيوتر. لم يأتني أيّ ردّ من ألمانيا. بعد فترة عاد إلى ذهني متري

استهزاء عزّام بنا، وتذكّرت الحقائب والكتاب. «تصبحان شِرْلوكَين...» استهزأ بنا
لنذل.
ير وعزّام يستخفّان بي، بسبب قلّة الامتيازات الّتي حصلت عليها عبر السنين. ولأنّي
ب عنهم إلمامي بلغات عديدة ودراستي الكمبيوتر وبرامجه. لكنّي سأريهم مقدرتي.
ت صفحة الإنترنت. طبعت اسم الكتاب، «مقدّمة عن الأوطان»، فلم ألقَ أيّ نتيجة.
يت أبحاثًا عديدة ولكن بلا جدوى. رأيت في معرفة صاحب الحقيبة إذلالًا لعزّام،
رّرت متابعة الموضوع لأثبت له وللمدير جدارتي إن نويت.
وم الإثنين صباحًا، أعلمت متري بأنّي سأحاول معرفة ما أستطيع عن صاحب
الحقيبة. سُرّ جدًّا وتمنّى عليّ ملاحقة الموضوع بجدّية.
ت الكتاب وأمضيت معظم الصباح أقرأ فيه. رفعت السمّاعة وطلبت مكتبة
صالومي.
طالعني صوت امرأة:
– ألو نعم؟
- عندكم كتاب «مقدّمة عن الأوطان»؟
– دقيقة من فضلك.
بعد لحظات ردّ رجل فسألته عن الكتاب.
– لم أسمع به. عنوان جديد؟
– لا أعتقد.
– اسم الكاتب؟
– لا أعرف.
بحث عن العنوان فلم يوفّق.
– كتاب سياسي؟
– نعم.
لا معلومات لديّ عنه. جرّب دور النشر. جرّب دار الصباح!
لت بدار الصباح. أحالتني عاملة الهاتف على المديرة، فعرضتُ عليها مطلبي.
لم تسمع بالكتاب.
نصحتني أن أتّصل بالصحافي السيّد ملحم شمّاس، وهو محرّر في جريدة الصباح،
ير بالمنشورات السياسية. بعد دقائق كان معي على الخطّ. عرّفته بنفسي وذكرت
لمعطيات وعنوان الكتاب. لم يسمع به هو الآخر. طلب منّي في نهاية الحديث أن
ل له الكتاب، لمحاولة تقصّي هويّة الكاتب من النصّ.
عرض علينا حسن إيصال الكتاب بعد الدوام، كمساعدة بسيطة منه. أمّا أنا فأخذت
قيبة إلى البيت.
ناك أخرجت محتوياتها وتفحّصتها بتمعّن. «كروزان» من دخان المارلبورو الأحمر، ما
لا محفوظَين بالبلاستيك. كثير من الثياب، معظمها شتوي، مِمطَر وقفّازات صوفية.
جدت، داخل أحد جيوب المِمطَر، بطاقة خضراء صغيرة. تمعّنت فيها فكانت معظم
كتاباتها ممحوّة، باستثناء رقم على طرفها وأحرف لاتينية ثلاثة، SSY . لا بدّ أنّها
بطاقة قطار أو مترو أو باص.

تذكّرت باصات الدولة في الثمانينيّات في بيروت الشرقية. كان يُطلَق عليها اسم ش الدولة». استُوردت من فرنسا في عهد الرئيس أمين الجميّل. تذكّرت علبة كية مركّزة على أحد الأعمدة قرب مدخل الباص، كانت تُستعمل لختم البطاقات عند الدخول، أو لتأشير التذاكر عبر إحداث فجوة دائرية فيها. بالطبع لم تُستعمل لب في لبنان ولكن هذا كان هدفها.

تفحّصت البطاقة فرأيت فجوة دائرية صغيرة، ممّا أكّد استنتاجي. أدخلت في «غوغل» بالإنكليزية «بطاقة خضراء» مع الأحرف SSY كانت النتيجة آلاف الإجابات. ثت مجدّدًا مع زيادة كلمة باص. أيضًا مئات النتائج. ضغطت على عدد من النتائج ون جدوى. فجأة رأيت، في مطلع إحدى الصفحات، صورًا كثيرة لبطاقات شبيهة إلى دّ ما بالبطاقة الخضراء. كانت صفحة إنترنت لبيع البطاقات القديمة من أرجاء عالم. بطاقات من كلّ الأنواع. مسرح، مترو، ملاهٍ وحفلات موسيقية من عهد تلز» وإلى ما هنالك... لفتت نظري الأحرف التالية: Roissy ضغطت عليها ففتحت صفحة جديدة. رأيت صورة مشابهة تمامًا للبطاقة الخضراء وكانت واضحة ومقروءة:

Roissy Bus – Paris Opéra – Aéroport Charles de Gaulle

بطاقة للباص من باريس إلى مطار شارل دي غول. حسنًا، لا بدّ أنّ المسافر قد من باريس إذًا. لكن متى؟

البحث عمّا قد يرمز إليه الرقم المتسلسل على البطاقة، علَّ ذلك يدلّ على السنة شهر أو أيّ تفصيل آخر. كانت المعلومات على الإنترنت بحجم لا يصدّق، وجدت صفحة دائرة المواصلات في باريس، لكنّها لم تحتوِ على معلومات تساعد. بقيت تصقًا بشاشة الكمبيوتر حتّى منتصف الليل.

* * *

ح، جاءني الردّ من مكتب التحرّيات الألماني. يمكن الحصول على إقامة دائمة خلال ترة وجيزة في حالتَين فقط: اللجوء السياسي أو الزواج من ألمانية.

عليّ الموظّف التأكّد عبر موسوعة مجّانية على الإنترنت. ففعلت. وجدت الشرح نفسه. لم تخطر ببالي أيّ أسبابٍ قد تؤهّله للّجوء سياسي. لا بدّ أنّه تزوّج من ألمانيّة إذًا. أمضيت وقتًا وأنا غارق في تفكيري. لربّما تعرّف إليها في إحدى سفراته واختار البقاء قربها. هل أعاد التاريخ نفسه؟ أتَركني كما تُرك وهو صغير؟ هل التخلّي الولد وراثة في عائلتي؟ أسئلة كثيرة تمنّيت الجواب عنها، لكنّ سنين كثيرة قد ضت. هل ضاعت الأجوبة كما ضاع أصحابها، أم أنّها كانت رفاهية لا أملك إليها لًا، فكُتب عليّ الحرمان من إجابات شافية؟

وفيما كنت أمام شاشة الكمبيوتر، تساءلت عمّا إذا كان سيقدَّر لي إيجاد أيّ عن بطاقة الباص الخضراء في الموسوعة الّتي أشار إليها مكتب التحرّيات. أدخلتُ يثيّاتها، ولمفاجأتي وُفِّقت بنتيجة سريعة. قرأت ما ورد عن بطاقة الباص الباريسية، ما لفت نظري، هو أنّها أُدرجت بشكلها المماثل للبطاقة التي وجدتها في الحقيبة والتي تعود للعام 1994 وبحسب متري، كانت الحقيبة موجودة قبل استلامه مركزه.

تذكّرت من حديثه أنّه بدأ عمله تقريبًا في بداية تلك السنة. ممّا يعني أنّ صاحب الحقيبة عاد من فرنسا في مطلع عام 1994.

خبرت متري عن اكتشافي، قال إنّه بدأ عمله في شهر آذار، ممّا أكّد استنتاجي.

بعد الظهر أتاني اتّصال من الصحافي:

– الكتاب رائع.

- أي فكرة عن الكاتب؟

– للأسف لا. لكنّه متأثّر كثيرًا بالماركسية. تطلّعاته متطوّرة جدًّا. يدعو إلى علمانية كأساس للبنان جديد. لا بدّ أنّه ينتمي إلى حزب شيوعي.

– عظيم.

– وهو مسيحي.

– مسيحي؟

- يبدو ذلك. يستعمل في النصّ استشهادات مثل «صوت صارخ في البرّيّة» و«طوبى للبسطاء فإنّهم يرثون الأرض» وإلى ما شابه من تعابير. كَتب النصّ وهو في المنفى بحسب تعبيره.

فقلت له:

– كان في فرنسا.

– كيف عرفت؟

كلّمته عن بطاقة الباص الخضراء وأضفت:

– عاد إلى لبنان في مطلع عام 1994، لكنّي غير قادر على معرفة التاريخ الّذي ترك فيه لبنان.

– أه. اسمع، سأقرأ لك نصًّا من الكتاب.

بدأ عبر الهاتف:

ت أمشي في شوارع المدينة، منحني الرأس، أتأمّل الأرض أمامي، علّني أرى دًا من ذكرياتي الماضية. لكنّي رأيت قطرات من الماء تتساقط أمامي، فلم أدر إن نت مطرًا من السماء أم دموعًا من عينيَّ. ليت قدرة خارقة تأتيني فأنثر في الهواء ضة تراب، تزيل عن الوجود هذه السنوات الأربع، ومكانها، بعدد ذرّات هذا التراب، أتي أعوام جديدة، أقضيها في الوطن...»

– أربع سنوات! صرخت.

– نعم.

– إذًا ترك لبنان سنة 1990!

ثمّ تابع عبر الهاتف:

– يذكر في النصّ مقالًا له بعنوان «غرسة التين»، يتناول تداعيات الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين، «بلد الزيتون» حسب تعبيره، وينتقد بشدّة تخاذل الدول لعربية. العجيب أنّي لم أسمع بهذا المقال.

واستطرد:

– على كلّ الأحوال، فإنّ المعلومات المتوفّرة قد تكون كافية لمعرفة صاحب حقيبة. هو كاتب سياسي ترك لبنان في التسعين إلى باريس، وعاد في الـ 1994. وهو

مسيحي ينتمي ربّما إلى حزب شيوعي، يؤمن بالعلمانية، متأثّر بالماركسية، وصاحب مقالة «غرسة التين»، سوف أسأل الأساتذة هنا. انتظر اتّصالي.

اتّصل بي بعد نصف ساعة.

– الياس بشارة.

أدخلت الاسم في حاسوبي فكانت النتيجة إيجابية، ظهر اسمه في إحدى رحلات تلك الفترة.

كان الكاتب الياس بشارة ضليعًا في سياسة الشرق الأوسط، وصاحب مقالات انتقدت بشدّة الوجود السوري في الثمانينيّات. ترك بيروت الشرقية إلى فرنسا، قبيل انتهاء حكم الجنرال ميشال عون بأسابيع. عاد في الـ 1994 حيث اعتقلته المخابرات في المطار وقضى عدّة أشهر في السجن. لم يُسمع الكثير عنه بعدها، ولكنّه معروف جدًّا لدى أصحاب الأقلام. حين كتب مقالة «غرسة التين»، كان طالبًا جامعيًّا في عهد الرئيس فؤاد شهاب، ممّا أدّى إلى سَجنه ثلاثة أسابيع. ويذكره الجميع، لأنّه أمضى فترة على الماء فقط. أعطاني المحرّر رقم هاتف الكاتب وتمنّى لي التوفيق.

أطلعت متري وحسن على النتيجة ففرحا.

اتّصلت بالرقم، ردّت سيدة فطلبت الكاتب.

– من يريده؟

– الرقيب إيهاب علّام.

– دقيقة من فضلك.

– ألو.

– حضرة الكاتب الياس بشارة؟

– نعم.

– وجدت حقيبتك المفقودة.

صمت.

– ألو، هل تسمعني؟

– نعم. لم أُضِع أيّ حقيبة.

بدأت بإخباره، فأقفل السمّاعة.

عاودت الاتّصال فرنّ الهاتف عدّة مرّات من دون جواب.

انتظرت حوالى الساعة وطلبته مجدّدًا، ردّت السيدة فطلبتُ الكاتب من جديد.

– قلت لك لم أُضِع أيّ حقيبة.

وأقفل الخطّ.

اتّصلت بالصحافي ملحم شمّاس ورويت له ما حصل. أعلمني أنّ الكاتب بعيد عن الناس، واقترح عليّ الذهاب إلى بيته، ثمّ أعطاني العنوان. وضّب متري الحقيبة، وملأ كلّ الاستمارات المطلوبة لتخليص معاملة إطلاق الحقيبة من حجزها.

تركت المطار وقدت سيّارتي وسط المدينة إلى الدورة، ثمّ أنطلياس. رحت أستدلّ على أن وصلت. صعدت إلى الطابق الثالث وقرعت الباب. فتحَت لي امرأة عرفت فيما بعد أنّها زوجة الكاتب، فعرّفتها بنفسي.

– أهلا يا ابني، تفضّل.

الشقّة وجلست في الدار. دخل عليّ الكاتب بعد لحظات وجلس.
– أستاذ بشارة هذه الحقيبة لك؟
نظر إليّ بصمت وريبة.
– حضرتك عندما عدت من فرنسا في العام 1994 فقدت حقيبتك؟
ظلّ صامتًا.
احترت في أمري، قد يظنّ بأنّي رجل مخابرات أو ما شابه، لذا تحفَّظَ.
تحت الحقيبة وأخرجت الكتاب.
– كتاب «مقدّمة في الأوطان» لك؟
تفاجأ.
أعطيته الكتاب. تبدّلَتْ ملامحه، برقت عيناه، فتح الكتاب، قلّب صفحاته، شمّه كمن يعانق حبيبًا جديدًا.
– غير معقول... غير معقول... كيف وجدته؟
سردت له الحكاية من الأوّل، فاستمع إلى تفاصيلها.
– فنجان قهوة للضيف يا مرا... وسيجارة لي!
– سيجارة؟
– نعم سيجارة!
– سيجارة؟
– شو طرشْتِ؟
– من أين أحضر لك سيجارة؟
ركت أنّه مقلع عن التدخين. تذكّرت «كروزَي» المرلبورو في الحقيبة فاستأذنت منه وأخرجتها. ضحك. ثمّ بحث في علب الدخان القديمة عن سيجارة سليمة فوجد ة. أشعلها ثمّ استرخى على الأريكة. مرّت عدّة دقائق وهو جالس يدخّن ويقلّب فحات الكتاب.
قال:
– هذا الكتاب هو ثمرة المنفى.
شمّه من جديد، ثم أكمل:
– في فرنسا تملّكني شعور واحد. الانفصال. كنت أقضي أيّامي بين الدخان والقهوة والكتابة، في مقاهي باريس وشوارعها. تتّضح الأشياء وأنت بعيد، تتّضح بشكل صرت أكتب في كلّ ساعات النهار والليل، غدا هذا الكتاب مقدَّسًا بالنسبة إليّ... ة عبور إلى ما هو صالح وصادق وإنساني. يومها عرفت نفسي جيّدًا، وعرفت كلّ ما أردت هو وطن آمن. ليس كثيرًا أن يطلب الإنسان ذلك، ليس كثيرًا. أردت لد بلدي وهذه الأرض أرضي. وهذا من أبسط المتطلّبات الإنسانية. صرت أرى مأساة الفلسطينية أهون بكثير من مأساتنا. هم وطنهم مسلوب، أمّا نحن فما هو عذرنا؟ تَشتُّتهم له اسم، وله جسم. بينما مأساتنا نحن، فمن صنع أيدينا.
سكتَ للحظة ثمّ أكمل:
نتظَروني عند أسفل سلّم الطائرة. خلت أنّهم يريدون التحقيق معي ليوم أو يومَين. أسري كان رسالة للصحافيّين والكتّاب، أرادوني رسالة فقط. علمت تلك الحقيقة

ي إلى الموقوفين الآخرين، كانوا يعذّبون من أجل معلومات واعترافات وانتماءات، نت أعذَّب لمجرّد التعذيب. لم أُسأل عن شيء ولم يُطلب منّي أيّ اعتراف، كان طلوب الاستسلام، فلم يبقَ لي خيار في ذلك المكان المظلم إلّا عدم الاستسلام.

بقيت صامتًا حتّى أصبح صمتي درعًا فولاذيّةً لم تستطع سياط العالم كلّه طّيها. وكنت أستيقظ في زنزانتي بعد أن يُغمى عليّ، فأتفقّد هذا الجسم الغريب، هذا الوجود، جسم التعاطي مع عالم الحواسّ، أنظر إليه وكأنّه منفصل عنّي. صرت أحلم طوال الوقت. أحلم بالحبّ، بالفرح، بالأمان، بكلّ شيء يتمنّاه قلبي، فأصبح جودي عقبة بين الجسم المحطّم والفكر الطليق.

إليه وأنا صامت، أخرجني من نفسي، أخذني إلى مكان أرقى بكثير من الّذي كنت فيه.

يقولون إنّ الحروب تُفرض على الشعوب، هذا صحيح، لكنّ السلم أيضًا يُفرض. اق الطائف فَرض علينا السلم، وهو ليس إلّا إبرة مورفين، والمورفين لا بدّ أن يزول مفعوله. هذه الأيّام قليلًا ما أكتب، ليس لديّ ما أقوله، فسياسيّو اليوم يصحّ فيهم «جيل يكرّمني بلسانه أمّا قلبه فبعيد عنّي». إنّي مرفوض من الجميع، المخابرات سيّين ورجال الدين على السواء. أرى نفسي مثل بحّار ممسك بالصاري، أقف دائمًا ي وسط السفينة، تأتي الرياح فيميل المركب ويصبحون كلّهم على جهة، ثمّ تأتي اح من الناحية الأخرى، فتميل السفينة مجدّدًا، أنا وهُم دائمًا في جهات مختلفة.

تململ في كرسيّه ثم تابع:

– زوجتي تقول دائمًا «الياس مغرم بلبنان». وفي الحقيقة أنا مغرم بفكرة لبنان الوطن، وسيأتي يوم يصبح فيه وطنًا، وبين هذا اليوم وذاك، ستُرفع شعارات كثيرة رف أموال ويُدفن شباب.

أنهى سيجارته ثمّ قال:

– تتطوّر الأشياء عبر السنين، وتتقدّم مع معطيات الواقع، إلّا عندنا في لبنان. ما قلام منذ عشرات السنين ما زال ينطبق على واقع وأحداث اليوم. أصبحَت السياسة نا مثل الفنّ. أغنيات الحبّ مثلًا لا تتقيّد بالوقت، تستمع اليوم إلى أغنية من لسبعينيّات فتحسّ كأنّها تعنيك. وهكذا أصبحَت السياسة اللبنانية فنًّا، وصار السياسيون كلّهم فنانين. حقًّا، المشكلة اللبنانية بسيطة جدًّا، على الأقلّ فهمها سيط وليس حلّها. نحن اللبنانيين متّفقون على شيء واحد، ألا وهو الطائفية. نبرّر لنفسنا طائفيّتنا، لذا نقبل لغيرنا طائفيّته، وبحماية ما لغيرنا نحمي ما هو لنا.

فالطائفية الّتي تفرّقنا هي نفسها ما يجمعنا. وبهذا يجمعنا ما يفرّقنا، وهنا التناقض. وكلّ شيء قائم على تناقض لا يصلح. هذا مبدأ تأسّس عليه الكون. لذا لا راحة لنا أبدًا.

أشعل سيجارة ثانية، واسترسل في قراءة كتابه...

نت واتّجهت إلى الباب، رافقتني زوجته.

– شكرًا يا ابني. شكرًا.

نَت منّي، غمرتني لعدّة ثوان. أمّا أنا فوقفت كلوح خشبي.

دمعة على خدّها وهي تقفل الباب ورائي.

* * *

جمّع موظّفو الجمارك في الكافيتيريا حول متري. قدّم أحدهم «كروز» الدخان كما كان الاتّفاق، وراح الجميع يهنّئه ثمّ بدأوا بالتصفيق. كان محبوبًا ومحترَمًا لدى جميع. حاول متري شرح فضلي باكتشاف صاحب الحقيبة، إلّا أنّي قاطعته:

حقّ لك استعمال كلّ الوسائل للوصول إلى مبتغاك، وأنا إحدى هذه الوسائل.

رأيت عزّام بين الجمع، كان وجهه يعكس عدم اكتراثه، لم يرِد إعطاء الموضوع كي لا يُظهر أنّه كان على خطأ. حين انصرف الجمع، اقترب منّي وقال:

– حالفك الحظّ...

الفصل الثالث

ت تردني سجلّات السفرات كلّ يوم. كنت أتلقّاها من البرنامج الّذي أدرجته سرًّا في
حاسوب المطار، بعد نقلي من مركزي. فأدرِج الأسماء والتواريخ واحدًا تلو الآخر.
فيها وأبحث عن اسمه أو رقم إقامته الدائمة. كان هذا روتيني الليلي، صلاتي
مسائية كلّ يوم. وكان الأمل يضعف مع كلّ اسم أقرأه، أو سطر أنتهي منه. لكنّ
ه كانت صلاتي المعهودة، والصلاة واجب.

– أريد إلقاء نظرة على الحقيبة الثانية، قلت لمتري.

كانت الحقيبة مميّزة جدًّا. سوداء، من الجلد الخالص. حمَلها متري وحلّ سحّابتها
الفضّية، ثمّ بدأ بإخراج محتوياتها.

كانت خالية من الثياب، ما عدا كنزة صوفية واحدة. لفتت نظري سريعًا دمية باربي
في علبتها. تمعّنت فيها بينما راح متري يُخرج باقي الأشياء. كانت الباربي في زيّ
سباحة بألوان مخطّطة بالأبيض والأسود مثل حمار الزرد، وفي إحدى يدَيها نظّارات
شمسية، وفي الأخرى حقيبة بحر. بدت قديمة جدًّا وعمرها لا يتطابق مع عمر
الحقيبة.

أخرج متري حقيبة يدٍ صغيرة تحتوي على عدّة حلاقة مذهّبة. تفحّصْتُ أجزاءها
فلم أرَ صدأ أو تآكلًا، وكانت متناسقة من ناحية التصاميم والشكل. ثمّ أخرج
زجاجة خمر، قرأت اسمها «بيدرو خيمانس 1920». وضعتها جانبًا، وأخذت بين يديّ
محفظة عريضة من الجلد الأبيض، في داخلها تصاميم يدوية ملوّنة لسيف ذهبي
رصّع بالجواهر. ألوانه رائعة وشكله أنيق، رُسِمَت على مقبضه جوهرة زرقاء،
مها يفوق باقي الجواهر. أدهشَتْني براعة الرسّام. رفعْتُ الغشاء البلاستيكي الّذي
حميها، ومرّرت أصابعي فوق الألوان. قلبت الصفحة، وإذا برسم آخر للسيف عينه،
من دون الجواهر، وفي الصفحة التالية، الرسم ذاته وأشكال رسوم مع مقاييس
معايير وأسماء معادن ونِسَب.

بحثت عن اسم أو توقيع فلم أجد شيئًا. على يمين الرسم رأيت جيبًا عريضًا داخل
المحفظة. وجدت فيه صورتَين، إحداهما بطاقة بريدية لصورة كنسيّة، والثانية
صورة فوتوغرافية لطفلة صغيرة. ظهر في أسفل البطاقة كاهنان يحملان بين

ما رجلًا بدا ميتًا، وعلى شمالهما صبيّ صغير وراهب. وقف خلفهم صفّ من الرجال
أرستقراطيين في ثياب سوداء ذات كشاكش بيضاء. أمّا في أعلى الصورة فظهرت
ذراء مريم وملائكة. الصورة شبيهة جدًّا بأيقونات الكنائس الّتي اعتدْت رؤيتها في
ر. كُتب على أسفل البطاقة El Greco . لا بدّ أنّه اسم الأيقونة أو الرسّام.

أمّا الصورة الثانية فكانت فوتوغرافية، وتظهر فيها طفلة في الثالثة من عمرها تقريبًا. وكُتبت على ظهر الصورة باليد كلمة «نابي».

متري إلى أنّ الحقيبة وصلت إلى قسم المفقودات في شباط 1986. كان التاريخ دوَّنًا على البطاقة المشبوكة بإحدى أطرافها.

– هذا كلّ شيء!

– نعم.

اجعت كافّة المحتويات، بحثًا عن اسم، أو عنوان، أو علامة تدلّ على صاحبها، لكنّي لم أجد شيئًا عدا ما أشار إليه متري.

قلت لمتري:

– علَّ اللوحة المطبوعة على البطاقة البريدية تعطينا دليلًا على نقطة انطلاق الرحلة.

– ممكن.

– El Greco معناها الإغريقي، أي اليوناني.

طر ببالي الأب نعمان. عساه يلقي نظرة ويساعدني على اكتشاف مكان لوحة البطاقة البريدية. قرّرت زيارته في نهاية الأسبوع. أمّا يومها، فركّزتُ على دمية باربي.

توجّهت إلى محلّات Party World في بيروت.

ف الألعاب موضوعة على رفوف حديدية طويلة، وفتيات عاملات يملأن الممرّات، شات تعرض حلقات لديناصور ليلكي يلعب مع أطفال أجانب. استقبلتني المديرة رضْتُ عليها الباربي. عندها أخبرتني أنّ دمية الباربي تُباع في العالم كلّه، وأنّ هذه باربي بالذات، لم ترَ نظيرًا لها من قبل. لم يكن عندها أيّ معلومات مميّزة عن الموضوع. في هذه الأثناء، دخلت زبونة مع ابنتها لتُلقي التحيّة. كانت فرنسيّة. تبادلت عض الكلمات مع مديرة المحلّ.

ت ابنتها تراقب الباربي الّتي بين يدَيّ، ثمّ همسَت الفتاة في أذُن أمّها. فتوجّهَتْ إليّ الأمّ بالفرنسية:

– هل هذه الباربي للبيع؟

– للأسف لا.

– أيمكن لابنتي أن تحملها؟

– طبعًا.

تربَت الفتاة وأخذت الباربي.

– هل أنت متأكّد أنّها ليست للبيع؟

– ليست مُلكي، قلت مبتسمًا.

– من أيّ سنة؟

لم أفهم سؤالها.
ي الحقيقة لا أعرف عنها شيئًا. كنت آمل أن أحصل على بعض المعلومات هنا.
للأسف ليست لديّ معلومات، قالت مديرة المحلّ.
أعرف شخصًا هوايته جمع دمى الباربي، قالت المرأة الفرنسية.
– نعم؟
– في مدرسة ابنتي.
– زميلة لابنتك؟
– لا. مديرة المدرسة.
وجدْت ذلك مثيرًا للضحك. مديرة مدرسة لها هواية جمع دمى الباربي؟
لا بدّ أنّها أجنبية. لكنّ الاسم الّذي أعطتني إيّاه كان لسيّدة لبنانية. الستّ منى أحمد.
كانت صديقتها المقرّبة فهاتفَتْها. تبادلت معها بعض الكلمات ثمّ أعطتني الجوّال.
رّفْتها بنفسي وعرضْت عليها سريعًا مبتغاي. فطلبَت منّي القدوم إلى بيتها مساء،
وجود مراجعها في البيت.
مراجع؟ عن دمية باربي؟
ستقبلتني الستّ منى في منزلها. كنت في صدد نزع الباربي من علبتها.
– أرجوك لا تفعل ذلك!
– لماذا؟
– قيمة الباربي بعلبتها.
أخذَتها وتأمّلَتها للحظة، ثمّ لوت برأسها وضحكت.
– هل رأيتِ مثلها من قبل؟ سألتها.
– في الصور فقط، قالت والبسمة ما تزال على شفتَيها.
أخذَتْ كتابًا وقلّبَت صفحاته.
– تفضّل.
ت في الكتاب صورة مطابقة للباربي الّتي كانت في حوزتي.
– هذه باربي التسعة والخمسين.
– التسعة والخمسين؟ سألتها بتعجّب.
– عام 1959.
– ماذا؟ حقًّا؟
– نعم. إنّها أوّل باربي. تحفة نادرة، خاصّةً وأنّ علبتها ما زالت في حالة ممتازة.
حدّثْتُها قليلًا عن الحقيبة، وعن محاولتي تقصّي معلومات قد ترشدني إلى صاحبها.
– أؤكّد لك أنّ من اشتراها له هواية في جمع دمى الباربي. فهذه لا تُشترى للّعب.
وهو أيضًا ميسور.
– لمَ تعتقدين ذلك؟
– لأنّ سعرها 8000 دولار.
– 8000 دولار سعر هذه الدمية؟
– نعم. هذه ليست مجرّد دمية فهي صاحبة ماضٍ وتاريخ وأتباع بمئات الألوف.
دأتْ مع امرأة اسمها روث هندلر، كانت تراقب ابنتها باربرا تلعب بعرائس من ورق.

كانت تتعامل معها كأنّها حقيقية. فعرضت روث على زوجها فكرة صناعة عروس للأطفال، تكون في سنّ الرشد. وفي سنة 1956وخلال رحلة لها إلى أوروبا، صادفت دمية ألمانية باسم «بيلد ليلي». وكانت هذه الدمية تمثّل شخصية بالغة، فاشترت منها ثلاثًا. واحدة لابنتها، واثنتَين لشركة زوجها. كانت تلك الدمى من صنع ألماني، تباع للراشدين أكثر ممّا تُباع للأطفال. عند عودتها إلى الولايات المتّحدة، أعادت تصميم اللعبة وأسمتها «باربي» على اسم ابنتها المختصر. أطلقتها سنة 1959 في نيويورك، في آذار من تلك السنة.

– كما ترى، زيّها الأوّل كان زيّ سباحة بالأبيض والأسود، مخطّطًا مثل حمار الزرد. وصُنع منها نوعان، شقراء وسمراء، وبيع منها في سنتها الأولى 350000 دمية، بسعر ثلاثة دولارات للدمية الواحدة.

كانت تتكلّم بشغف، أحسسْتُ بتعلّقها الشديد بهذه الهواية الغريبة.

- تطوّرَت الدمية عبر السنين، وبيع منها حتّى اليوم أكثر من مليار واحدة، في أكثر من مئة وخمسين بلدًا.

كرتها على المعلومات وأدركت أنّ هذا الطريق مسدود. هذه المعلومات لن تُفضي يء ملموس، فهي عامّة ولا دلالة فيها على هدف الرحلة أو زمانها، أو أيّ شيء عن صاحب الحقيبة.

وجّهت تركيزي نحو البطاقة البريدية.

في صباح يوم الأحد، توجّهت إلى دير كفرشيما. كانت الرحلة تستغرق قرابة ربع ساعة فقط من بيروت. إلّا أنّها طريق لم أسلكها منذ سنين. ثلاث عشرة التحديد. وعلى الرغم من قربها الجغرافي، كانت بعيدة زمنيًّا عدّة سنوات ضوئية.

لم تتغيّر المنطقة كثيرًا، إلّا أنّ حُفَر الطريق أصبحت كأنّها معالم ثابتة. عند طريق كفرشيما، عاودني الكثير من الذكريات. وقبل المفرق الأخير، أبطأت في سرعة ونظرت إلى يساري.

كنّا مع بداية الربيع، بعد غداء الأحد، نقوم بنزهة طويلة بين أشجار الصنوبر وعبر الطرق الملتوية، نزولًا إلى بلدة كفرشيما. نجمع زهور شقائق نعمان وننتقي أكبر «ديوك» الحمَّيضة ونأكلها. كنّا عشرة صبيان يتامى بأعمار ة، نمشي في خطّ مستقيم، على رأس الموكب الأب نعمان، وأنا في المؤخّرة. ى حتّى آخر دكّان في البلدة، حيث يبتاع لنا الأب قناني البيبسي. رّ الوقت بين الضحك واللعب، والمناظر الربيعية الجديدة، يلتقي الأب بأهالي البلدة، عونه إلى ارتشاف القهوة وتناول الحلويات. تبدأ الشمس بالغروب، وتتخلّل الهواء بوادر صقعة ربيعية، فنهبّ صعودًا نحو الدير. يخيّم السكوت على المجموعة، فيبدأ الأب نعمان تراتيل نردّدها معه: «قلبي مهيّا مغارة» و«انشالله القمحة». وتمرّ قائق وتهوي الشمس بين أشجار الصنوبر العالية، فتضرب أسفلها ظلمة تفيض على الطريق، وتغمر الزهور والحشائش بلون قاتم يخفي معالمها، ويجعلها امتدادًا ساحة انعدام النور. فيُنشد الأب نعمان منفردًا «أيّها النور البهيّ». كنت أعشق الشرقي. وهناك في آخر منحدر قبل مفرق الدير أبطئ الخطى، وأترك مسافة يني وبين باقي الأولاد. أنظر يسارًا إلى عمارة يتوازى طابقها الرابع مع الطريق.

بر نافذة المطبخ، أرى عائلة مجتمعة حول طاولة العشاء. أب وثلاثة صبيان، وأمّ فة قرب الفرن تقلّب البطاطا في المقلاة. أحدّق في الأب والأولاد، وأحاول تمييز الغرفة، وتخيّل رائحة الطعام، وصوت الزيت الحامي، أرقب الطاولة بغطائها بلاستيكي العامر بأطباق الطعام والأكواب، أحاول قراءة الشفاه وفهم التعابير، طبع في ذاكرتي ما أمكن من تفاصيل.

ت أقفز في مخيّلتي عبر النافذة، أترك المنحدر والأولاد، وحتّى شادي. كانت تلك ي الخاصّة. أجلس معهم، أغرف الحمّص والتبّولة وأنقب حبّات البطاطا الحامية، مي بين اللقمة والأخرى جرعة بيبسي، أشارك في الأحاديث، أصطنع المواقف ت والشجارات، وأرقب ساعة الحائط بانتظار موعد ابتداء المسلسل الأمريكي Love Boat وأتخيّل مكاني على الكنبة قبالة التلفاز.

رّ اللحظات ومعها الخطوات، ويصبح مكاني في المنحدر، على زاوية تحجب معظم هد. وفي آخر أفكاري، وقبل أن تلتهم الطريق ما تبقّى من صور، أتخيّل نفسي داخل ، جالسًا إلى الطاولة أنظر عبر النافذة، حيث أرى خطًّا مستقيمًا من الأولاد اليتامى، عدون المنحدر في طريقهم إلى الدير القريب...

نظرْتُ يسارًا إلى الشقّة، كانت الستائر مُسدَلة والنافذة مُغلَقة، وقد تدلّى منها علم اللبناني. مشهد أمسى شائعًا في الأيّام القليلة الماضية.

لْت إلى باحة الدير. بدا كلّ شيء أصغر من الصور في ذاكرتي. كان هنالك عمّال سلالم، وَرْشة لصيانة الجدران الخارجية الّتي بدا عليها الإهمال. دخلتُ صالون سبال. كان الأب نعمان وبعض الأشخاص جالسين يرتشفون القهوة. رحّب بي بحرارة وعرّفني بالحاضرين.

– إيهاب علّام! اسم سمعته من قبل، قال أحدهم.

– لم تسمعه، قرأته يا أستاذ حنّا، أجاب الأب نعمان.

– قرأتُه؟ أين؟

– لوحة «المتفوّقون».

آه نعم... ما زال اسمك في أعلى اللوحة حتّى اليوم.

– إيهاب أشطر تلميذ عرفه الدير، قال الأب.

– إن شاء الله تقدّمْتَ كثيرًا في دراستكَ.

– إيهاب بالأمن العامّ، ردّ الأب نعمان.

– مركز عالي؟

نظر إليّ الأب نعمان مبتسمًا.

ي إلى مكتبه، معتذرًا من الحاضرين. عبرنا ممرّات الدير، أحسست بالبرودة الّتي فّق عبر الجدران الكثيفة، حتّى في منتصف آب. اجتزنا غرفة الاجتماعات، حيث ما يحتلّ الوسط، بين الكنبات والكراسي، وعلت الجدران مئات الكتب الّتي غلّفها . طغت على المكان رائحة الورق القديم.

لم تتغيّر الأشياء كثيرًا في تلك الصالة، الّتي أمضينا معظم أوقاتنا فيها. بحثْت التلفاز الملوّن، الّذي طالما تشاجر الأولاد بسببه، فلم أجده. مشيت خلف الأب نعمان حتّى دخلنا مكتبه، فأعطيته البطاقة البريدية ليلقي نظرة. وضع نظّارته.

– الإغريقي... تناول كتابًا، بحث في فهرسه عبر لائحة الفنّانين، لكنّه لم يعثر على الاسم.

معّن في الصورة. كانت غريبة عنه. أخذ الهاتف وطلب رقمًا.

– أبونا جرجي كيفك.

– ...

سوف أضعك على مكبّر الصوت.

شرح الأب نعمان للأب جرجي تفاصيل الصورة.

نعم. نعم. أعرف اللوحة. الإغريقي هذا لقب وليس اسمًا. الفنّان هو Doménikos Theotokópoulos من القرن السادس عشر، رسّام ونحّات، وُلد في اليونان في فترة ما بعد البيزنطي، انتقل إلى البندقية ثمّ إلى روما، وانتهى به المطاف في إسبانيا، في مدينة توليدو، حيث أصدر أجمل أعماله. لم يُقدَّر في عصره لكنّ نجمه سطع في القرن العشرين. كان سابقًا لعصره ومميَّزًا جدًّا، لأنّه جمع الفنّ البيزنطي الشرقي بالفنّ الغربي. وتميّز برسم الوجوه مستطيلة. أمّا اللوحة الّتي وصفتها، فهي في كنيسة سانتو توي في توليدو. وتُعدّ من أجمل ما رسم. وهي تصوّر دفن الكونت أورغاز. رجل مرموق وصالح ومساعد للفقراء.

ة مقسومة إلى جزءَين، السماوي في المنتصف الأعلى، والأرضي في المنتصف وهي تمثّل انتقال الكونت بمَماته من الأرض إلى الجنّة. في الجزء الفاني، أي منتصف اللوحة السفلي، يحيط به الكهنة والأشراف، أمّا في الجزء السماوي، فيملأ السماء ملائكة وقدّيسون، وتجلس العذراء مريم عند قدمَي السيّد المسيح، الّذي ترأس اللوحة باسطًا يدَيه لتتلقّيا روح الكونت الطاهرة. أتسمعونني؟

– نعم.

الصبيّ الصغير في اللوحة هو ابن الفنّان، وإذا أمعنت النظر ترى منديلًا متدلّيًا من جيبه، وعليه توقيع الفنّان وتاريخ الرسم.

ن من الصعب رؤية المنديل على البطاقة البريدية بسبب صغر الصورة.

ظم ما في اللوحة من الناحية التقنية، هو ثوب الكاهن الواقف إلى اليمين، انتبه إلى ه الأسود، الّذي يغطّيه لباس أبيض شفّاف. هذه الشفافية هي شيء من المستحيل في الرسم الزيتي. حقيقةً إنّها رائعة فنّية.

اللوحة إذًا موجودة في مدينة توليدو. تذكّرْتُ زجاجة الخمر.

– هل توليدو مشهورة بصناعة الخمر؟ سألته.

– الخمر! لا.

– هل سمعت بخمر من نوع بيدرو خيمانس؟

- بيدرو خيمانس هي منطقة في إسبانيا وليست اسم خمر. مثلما شمبانيا هي منطقة في فرنسا وليست اسم نوع من الخمر.

– إذًا توليدو ليست مشهورة بصناعة الخمر؟

– لا أظنّ ذلك، لكنّها معروفة عالميًّا بصناعة شيء آخر.

– ماذا؟

– السيوف.

لسيوف! تذكّرت التصاميم داخل الحقيبة. هكذا إذًا. كانت المعلومات كافية لمعرفة المدينة الّتي سافر إليها صاحب الحقيبة، مدينة توليدو الإسبانية، وهدفه صناعة سيوف. تشكّرناه على هذه المعلومات.
كيف هي الأحوال في المطار؟ سألني الأب نعمان.
كما تعلم، أصبحْتُ في قسم الجمارك. قلت ذلك وفي صوتي عدم رضى.
– أنا آسف لعدم تمكّني من المساعدة.
– أنا أشكرك على كلّ شيء فعلته من أجلي يا أبونا.
– انتبه يا ابني، الأحوال سيّئة جدًّا، اغتيال رئيس الوزراء لن يمرّ على سلام، فإنّ عب لن يسامح. تحرّكات على صعيد كلّ القوى السياسية، وتحالفات جديدة، لم تكن ممكنة من قبل، تتحضّر في الخفاء. ومديرك ملتصق بالمخابرات، ولا أحد يعرف مدى تورّطهم.
أنا دائم الحرص على عدم التورّط في كلّ ما هو سياسي.
– ووالدك، أيّ أخبار جديدة عنه؟
– أبي...
سكتُّ للحظة.
– اكتشفتُ سجلّ إقامته الدائمة.
– عظيم.
– قد تنتج عن ذلك معلومات جديدة، تكشف مكانه أو ما حصل له.
أنا دائم الصلاة لك، وأطلب من الربّ أن يهديك.
– شكرًا لك.
- وحياتك الاجتماعية، هل تحمل أيّ جديد؟
– لا.
– تذكّر يا ابني، الاعتدال في الحياة مهمّ. العائلة والزواج والأولاد جزء مهمّ من الحياة.
– لا وقت لديّ لمثل تلك الأشياء.
لتغاضي عن الحاضر يكلّف غاليًا. إنّك تعيش على ذكر الماضي بأمل تحقيق مبتغاك في المستقبل، لكنّ الماضي لا يمكن تغييره، والمستقبل لا يمكن معرفته، لذلك بقي لك الحاضر فقط لتعيشه...
د الضيوف علينا لوداع الأب نعمان، اعتذرتُ وخرجتُ إلى الملعب الخلفي بانتظاره. تُ من حائط الملعب، الّذي يعلوه شريط حديدي يفصل المكان عن بستان الدير. هناك وأمسكت بالسلك الحديدي، شابكًا أصابعي عبر فجواته كما كنت أفعل في غري. كان مشهد المطار بانوراميًّا، ترى المدرّجات ومبنى المطار والطائرات كأنّها عاب صغيرة. كم كان قريبًا وبعيدًا أيّام الحرب! تفصله عنّا جغرافيًّا منطقتا الحدث ويفات القريبتان، أمّا معنويًّا فكانت تفصله عنّا جبال من الجنون.
تعوّدت الوقوف هنا كلّ نهار أربعاء صباحًا، حيث كان يجتمع باقي التلامذة في ة الدير لحضور القدّاس الأسبوعي. أشبك أصابعي وأراقب الطائرات تُقلع وتحطّ، عدّها واحدة تلو الأخرى. أضيف واحدًا كلّما حطّت طائرة، أنقّص واحدًا كلّما أقلعت

أخرى. فأتفاءل إذا كانت حصيلة الساعة إيجابية، أمّا حين تكون سلبية فأشعر
سًى حتّى الأربعاء التالي، وأقع في حيرة عميقة يوم يكون المطار مقفلًا، وتكون
لك المناسبات عديدة.

بدا على البستان الإهمال وتشعّبت شجراته، لتتشابك بعضها بالبعض الآخر، كأنّها
ارك لنيل أكبر مساحة ممكنة منه. رأيت البوّابة الحديدية الّتي كانت تفصل الملعب
لبستان، وقد تآكلت، وصارت وظيفتها مسانَدة الحائط الّذي اتّكأ عليها، أكثر منها
صل المساحتين.

قترب الأب نعمان.

– الله يرحم أبو طوني، كان يعتني بالبستان كأنّه مشتل زهر.

وجّهت إليه وعلى وجهي ابتسامة.

– لم أخبرك بهذا من قبل. نحن من كان يسرق ثمار الأفوكادو. كنّا ندخل عبر
ة، نرفعها عن مفاصلها ونديرها إلى الخلف، مبتعدين عن القفل الّذي كان يجمع
البوّابة بالحائط.

لعدّة سنوات، كان موضوع سرقة الأفوكادو يشغل الأب نعمان وأبا طوني، نراهما
شاوران حول هويّة السارق، وطريقة دخوله البستان، فنضحك بالخفاء ونخبّئ
الفاكهة تحت الأسرّة لنأكلها ليلًا. كانت العملية تتطلّب ثلاثة أولاد، ولد لمراقبة
ي الأب نعمان وأبي طوني، ثمّ أنا وشادي. كنت أرفع البوّابة وأعكس اتّجاهها كفاية،
تّى يتمكّن جسم شادي الصغير من الزحف تحتها، قبل أن يتسلّق الشجرة بخفّة،
ي الحبّات الناضجة ويخبّئها داخل قميصه، فنعود نحن الثلاثة مسرعين إلى غرفنا من
ون أن يدري بنا أحد.

– أعرف.

تعجّبت من جوابه.

– من أخبرك؟

– كنت أراكم من نافذة مكتبي.

– كنت تعلم كلّ ذلك الوقت؟

ضحك وقال:

– كان أبو طوني ينوي دومًا إصلاح البوّابة فكنت أمنعه، أقول له اتركهم يفرحون،
فيَستاء المسكين.

تمعّنت في وجهه تحت لحيته البيضاء الكثيفة، لاحظت أنّه في أوائل السيتّينيّات، لا
أنّه كان في الثلاثينيّات من عمره حين كنّا في رعايته. فاجأني ذلك جدًّا.

– الأحد القادم سنقيم قدّاسًا. لمَ لا تحضر؟

جاهلت نظراته الثاقبة، وأبقيت نظري هائمًا في البعيد، ثمّ أشبعت عينَيّ مناظر
وصورًا قديمة، وكان بعضها أليمًا. ابتسمْتُ، لأنّ أيّ تعبير آخر لن يعطي تلك
كريات حقّها. كنت أعرف ما يقصده، وأستاء من مجرّد التفكير في الموضوع. ذاك
خ أضاف يومًا آخر على الأيّام التي أيقنت أنّها، حتّى مماتي، ستحمل الشعور نفسه.

ادّعيت بأنّني لم أفهم قصده.

– تقيمون قدّاسًا كلّ أسبوع. لم هذا الأحد بالذات؟

– إنّها الذكرى الثالثة عشرة لرحيله عنّا.
ّ الإحساس بالألم منفصل عن الجسم المريض.
الألم شيء والجسم شيء آخر. العلاقة بين الاثنين غير متكافئة، فإنّ الشعور بالألم دليل قاطع على المرض، أمّا عدم الشعور به فلا يعني الصحّة.
كان الفرق بيني وبين شادي بسيطًا من ناحية المبدأ، لكنّه عميق الهوّة إلى حدّ عدم الالتقاء. هو عاش في لحظته الحاضرة، يقيّم الأشياء بحسب وجودها الظاهر، ويتعاطى مع حاضرها فقط. المستقبل لا يعنيه، لا يرى فيه حاملًا لأشياء توحي زمن القادم أفضل، ممّا يجعل الماضي، الّذي هو الآن، مقبولًا وذا معنى. أمّا أنا فكان عندي نقطة عبور إلى المستقبل، والأحداث الآنية كالحصى على الدرب، تعيقني ولا فني. وأمّا هدفي فقد أملى عليّ دومًا نسيان ما كان حولي، والتعامل بما تُمليه عليّ لحظتي الحاضرة كزائر.
ترك شادي الدير بعد انتهاء الدراسة إلى كلّية الحقوق. كنت، مع مرور الوقت، وبين ات والتعابير، أستشفّ شوقه إلى ما كنّا عليه. أحسست بحاجته إلى دفء العالم خلقناه، إذ كان يستعيد الذكريات في مكالمات، قصرت مع مرور الزمن وتباعدت.
وهناك، بين ما قاله وما خبّأه سمعت، كنداء بعيد، كضوضاء خافتة خلف الأشياء الواضحة، صرخة في المدى...
أحيانًا يختار الإنسان الإصغاء وأحيانًا يتجاهل، وهذه المرّة تجاهلتُ. كان الانتقال عند ي مرتبطًا بالضياع. ذاك الجسم المريض عاد ألمه، والنفس الّتي وجدت جدارًا ي خلفه، فقدت الجدار. فكان الانتقال عنده من عدم البكاء في الليل، إلى عدم من عالم خيالي فرح خلقناه، إلى عالم واقعي استهلكه. من التراتيل المسائية وثمار وكادو الدسمة، إلى ضوضاء الموسيقى الصاخبة وكؤوس الخمر. وأخيرًا من سجارة إلى إبرة المخدّرات.
جرعة زائدة. هكذا حدّد الطبيب يومها سبب الوفاة.
جرعة زائدة لشادي... حياة ناقصة لي، وكره أبدي لمهرّبي المخدّرات. هؤلاء الأوغاد... كم أكرههم!

* * *

لمعلومات الّتي حصلت عليها كافية لبدء البحث. صاحب الحقيبة عاد من مدينة توليدو الإسبانية، ويعمل بالذهب والمجوهرات والسيوف. تصميم كهذا لا بدّ له من ع وزبائن، عليّ السؤال في محلّات الصاغة.
هت إلى شارع الحمرا، أوقفت سيّارتي في أحد المواقف العامّة، سألت العامل عن لات الصاغة، بعد أن نقدته خمسة آلاف ليرة أجرة الموقف. مشيت ما يقارب المئة ، حتّى وصلت إلى أوّل محلّ. سألت صاحبه فيما إذا كان يتاجر بالسيوف، فأجابني ولكنّه اقترح عليّ أن أسأل باقي المحلّات. أمضيت حوالى الساعة بين السؤال مشي، ولكن بدون نتيجة. لا يتعامل أيّ من أصحاب المحلّات بهذه الأنواع من التصاميم.
، أدراجي إلى أحد المحلّات الكبيرة، حيث طلب منّي شابّ العودة بعد ساعة لمقابلة

لده. قدّم لي فنجان قهوة وراح يسألني عن أصل التصاميم ومبتغاي.
أخبرته عن الحقيبة وعن مسعاي لإيجاد صاحبها، فبدا عليه الاهتمام الشديد.
دقائق دخل رجل مسنّ، عرفت فيه صاحب المحلّ، بسبب تأهّب الموظفين خلف
ب العرض. كان يشبه الخبير السياسي المصري محمّد حسنين هيكل. في غاية
الأناقة، شعره رطب أملس، تحيط معصمه ساعة فضّية كبيرة. عرّفه الشابّ بي
صافحني بحرارة. اعتقدت أنّ اهتمامه سيضعف حين يعلم أنّي لست في صدد شراء
تلي، لكنّه ظلّ على الاهتمام نفسه بعد أن استمع إلى سؤالي.
لر بتمعّن إلى التصاميم. قلّب الصفحات وقرأ كلّ الكتابات.
– جميل. جميل جدًّا.
خلع نظّارته.
– عمل كهذا تبلغ كلفته أكثر من مئتي ألف دولار!
فوجئت.
- هذا النوع من التصاميم كان يُصنَع لأمراء وملوك العرب في السبعينيّات
ثمانينيّات. ولكن بعد حرب الخليج الأولى، لم نعد نرى طلبات كهذه. انظر إلى طريقة
تركيز الجواهر ببُنية السيف.
قالها وأشار بإصبعه إلى أجزاء من التصميم. لكن ذلك لم يعنِ لي شيئًا، فنظرت
إليه بحيرة. اقترب الابن وتفحّصها ثمّ قال:
– طريقة قديمة لإرساء الحجارة، نستعمل الآن طريقة أسهل وأسرع.
هزّ الأب رأسه موافقًا.
- أيّ أمل في معرفة صاحب التصميم؟
– قليلون من تعاملوا مع تصاميم بهذه الضخامة. تخطر ببالي عدّة أسماء،
ن بعضهم ترك المهنة، وبعضهم هاجر ومنهم من مات. سيكون من الصعب جدًّا
معرفة صاحب هذا التصميم.
شكّل ذلك ضربة موجعة لي، لم أعتقد بأنّي سأواجه صعوبة مماثلة.
ت من المحلّات من دون أيّ معلومة، وما أدراني بالسيوف وتصاميمها.
خبرته عن رحلة صاحب الحقيبة إلى توليدو إسبانيا، وعن تاريخ السفر، ولكن كلّ
ذلك لم يعن له شيئًا. أخيرًا رأيت أن لا خسارة إن أريته صورة الطفلة.
أمسكها بعيدًا عن وجهه.
حتّى لو كنت أعرف هذه الفتاة فلن أتذكّرها. العينان تعبتان والذاكرة أصبحت
ضعيفة.
أنّي وصلت إلى طريق مسدود، وأنّ كلّ هذا كان مضيعة للوقت. كان الأجدر بي
كيز على بحثي عن والدي، بدل محاولة إذلال الرقيب عزّام. كيف سمحت له بالتأثير
ليّ؟ منذ متى يهمّني أشخاص مثله أو ما يقوله أشخاص مثله؟ إلى جهنّم به
ير! لولا حاجتي إلى مركزي في المطار وإلى معلومات الرحلات، لكانوا أصبحوا
، منذ زمن. أراني مسلوخًا إلى عالمهم، وعليّ التعاطي مع مكوّناته بما يسمحون لي
س بما أملك. كأنّي عدّاء متفوّق لكنّي في سباق على الأقدام، أو جندي مندفع في
معركة ولكن من دون سلاح.

ما يؤلمني هو اعتقادهم بأنّهم أفضل منّي، وأنا أعلم عكس ذلك. والآن وقد وكّلت
سي بهذه المهمّة، وقد شارفت على الفشل، ستعود ابتساماتهم الّتي تحقّرني...
«حالفك الحظّ»، قال لي عزّام...
– نابي.
قرأ ابن صاحب المحلّ الجزء الخلفي للصورة، بعد أن أخذها من أبيه.
– ماذا قلت؟ سأله والده.
– مكتوب نابي هنا. وأعطى الصورة لوالده.
ضحك الأب وأعاد نظّاراته ثمّ قال:
– برنسس نابي.
– برنسس نابي؟ سألته.
بدت أيضًا على وجه الشابّ التعابير المتفاجئة نفسها.
– برنسس نابي. الآنسة نبال أشقر.
– من؟
– نبال أشقر، كريمة السيّد جو أشقر!
صُعق الشابّ بالاسم، أمّا أنا فلم يعن لي شيئًا.
ثمّ أكمل وقد لاحظ عدم معرفتي بالاسم.
جو أشقر صاحب مجوهرات «برايت ستون». أوّل سلسلة محلّات مجوهرات في
الشرق الأوسط.
كانت مجوهرات «برايت ستون» معروفة جدًّا حتّى لشخص مثلي. لها عدّة ملصقات
في الدورة وإنطلياس، والمعاملتين والحمرا، بتصاميم جميلة لحليّ ومجوهرات.
تذكّرت أنّي دخلت أحد فروعها، عندما بدأت بحثي منذ ساعة.
– هل هو أحد معارفك؟
– كنّا أعزّ الأصحاب. رحمه الله، تُوفّي منذ عدّة سنوات. أذكر الآنسة نبال وهي
صغيرة، كانت حقيقة أميرة. تنامت صداقتنا خاصّة بعد حادثة حصلت له في
الثمانينيّات، هنا في بيروت الغربية. كانت لي يومها معارف مع الميليشيات المحلّية.
كانت أيّامًا سيّئة دفع ثمنها المواطنون من كلّ جهة. من أين أعادوها إلينا... لعنهم
الله.
نظر خلفه حيث ارتفعَت صورة للشهيد رئيس الوزراء. ثمّ استطرد:
– كان رجلًا عالميًّا. لم يوافقهم رجل لبناني بهذه الحجم.
شكرته على مساعدته وتوجّهت نحو الباب، رافقني ابنه الشابّ.
«الآنسة نبال أشقر»، قالها وابتسم.
ثمّ نصحني وهو يصافحني:
– اشتر مجلّة «المشاهير».
ربّما حالفني الحظّ هذه المرّة. وما همّي؟ تخيّلت وجه متري وهو يتلقّى «كروز»
ن. وتعجّبت كيف أنّك تجد أناسًا مثل متري يتحلّون بالطيبة والصدق، وفي الوقت
نفسه، تجد أناسًا حقيرين مثل عزّام والمدير. تخيّلت أنّه لو لم يكن في العالم
ل متري لكنّا في جحيم. لكنّي أدركت أنّ أمثاله قليلون.

دخلت فرع «برايت ستون» في شارع الحمرا. سألت عن كيفية الاتّصال بالآنسة
ال، فحصلت على رقم مكتبها في وسط المدينة.
لال عودتي ابتعت مجلة «المشاهير».

على غلافها قرأت عنوان «المليونيرة الخجولة» فوق صورة لآنسة بثياب بيضاء
ّ جميلة. كانت صورة الآنسة نبال. رأيت في مقال داخل المجلّة صورًا أخرى لها، من
جمع تبرّعات لليتامى، حيث قدّمَت عشرين ألف دولار كمساعدة. وفي صفحات
مجلّة تَكلّم المقال عن المؤسّسات الخيريّة الّتي ترعاها والنشاطات الّتي تقوم بها،
كممثّلة لمؤسّسة «برايت ستون». وعرض لها صورًا في حفلات ومع مسؤولين
سياسيين ورجال دين. ثمّ تطرّق المقال إلى حياتها الشخصيّة الّتي تتحلّى بالسرّيّة
مّة. أسئلة عديدة أجابت عنها بذكاء، تمكّنت عبرها من تفادي الإجابة عن أيّ شيء
شخصي. وحصرت حديثها بالأعمال الخيرية الّتي تقوم بها مؤسّستها.

البيت، أدخلت اسم جو أشقر في حاسوبي، فظهر اسمه في عدد من الرحلات
وبالتحديد في شباط 1986.

* * *

عدة مرّات، محاولًا الحصول على موعد مع الآنسة نبال، لكنّ الجواب كان دومًا
نفسه:

– وصلتها رسالتك، ستتّصل بك حين يسمح وقتها بذلك.

اولت التكلّم عن الحقيبة والباربي، لكنّ السكرتيرة لم تبدِ أيّ اهتمام.

يمان من دون جواب. تذكّرت الصحافي ملحم شمّاس، الّذي ساعدني على إيجاد
ب، فقرّرت الاتّصال به علّه يساعدني. أخبرته عن الحقيبة الثانية وعن الآنسة نبال
أشقر. فقال:

إذا وجدت مقابلة الكاتب الياس بشارة صعبة، فإنّ الحصول على موعد مع الآنسة
أشقر سيكون أصعب بمئة مرّة، نحاول مقابلتها منذ أشهر ولكن بلا فائدة.

ت أنّه على حقّ، لكنّي قرّرت عدم الاستسلام بعد كلّ هذا السعي.

حضرتني مقابلتها في جريدة «المشاهير»، الّتي حصلت في منزلها، في بلدة بيت
، في قضاء المتن، حسب ما حدّد المقال.

– عندك عنوان بيتها؟ لربّما استقبلتني هناك؟

– للأسف لا.

لا بدّ أنّ مجلّة «المشاهير» تملك عنوانها. لأنّ المقابلة أجريت في منزلها.

– هل لك معارف في مجلة «المشاهير»؟

– نعم.

وأوضحت له الصلة بالموضوع.

– لحسن الحظّ، مجلّة «المشاهير» وصحيفة «الصباح» تابعتان للمؤسّسة
نفسها، حتّى أنّهما في المبنى نفسه، انتظر قليلًا.

عد لحظات قرأ لي العنوان. قال، إنّ المجلة انتظرت ثلاثة أشهر من أجل الحصول
على تلك المقابلة.

ـكَ إلى بيت مري. استوقفني عند البوّابة رجل أمن فشرحت له مبتغاي.
اعتذر وأشار أنّ الستّ لا تقابل أحدًا في بيتها، عليّ زيارة مكتبها الكائن وسط المدينة.
حاولت الكلام، فقال لي:
على كلّ الأحوال هي ليست هنا.
ملت الحقيبة واتّجهت نحو سيّارتي. كانت الفيلّا على مرتفع من الطريق، تدخلها عبر طلعة قصيرة، يمتدّ حولها سور حجريّ أبيض، وعرائش خضراء تموج عبر مساحة الحائط، فتمزج الأبيض والأخضر بعشوائية ظريفة. رأيت في أوّل الطلعة مقعدًا خشبيًّا تحت شجرة صغيرة من الفيكوس، فجلست قليلًا أتمتّع بالمنظر المتدلّي من ارتفاع بيت مري الرائع. بدت بيروت صغيرة وساكنة.
وضعت الحقيبة جانبي، أخرجت الدمية وتأمّلتها. مسكينة أنت يا باربي، لا أحد يريدك. هذه السنين وأنت ضائعة ولم تلعب بك أياد، أنت وحيدة اليوم، لكن في يوم مضى كان لك من أحبّك. مسكينة يا باربي.
مرّت سيارة مرسيدس سوداء من أمامي، ثمّ توقّفت أمام بوّابة المنزل. دنا ـرس من النافذة الخلفية، وتبادل بعض الكلمات مع الراكب. ثمّ رفع رأسه ونظر إليّ. إلى محادثة الراكب من جديد.
قدر أن أرى الأشخاص داخل السيارة، لأنّ النوافذ كانت داكنة إلى حدّ السواد.
فجأة انفتحت بوّابة المنزل واختفت السيّارة.
ثمّ أومأ الحارس لي، فاقتربت.
– اسمك، عنوانك ورقم هاتفك.
استمع إلى أجوبتي ودوّنها في دفتر.
– الستّ تودّ أن تراك.
يمّمت شطر البيت وفي يدي الحقيبة. فاجأتني ضخامة المكان. الأسوار والأشجار ـجب رحابة المنزل ومحيطه. رأيت أزهارًا وشجيرات لم أر مثيلًا لها من قبل. الحديقة في غاية الجمال، كأنّها صورة من كتب الأطفال، منسَّقة ونظيفة ومتعدّدة الألوان. خَطوت فوق صخور صغيرة بيضاء، مثبّتة في الأرض وعلى مستوى واحد، فلا ـعر بانحنائها رغم استدارتها، وتوجّهت نحو مدخل البيت الّذي عكس جمال الحديقة ـتيازات مماثلة، من حجر جبلي أبيض تزيّنه أبواب ونوافذ خشبية محفورة.
ـلتني خادمة وأدخلتني الصالون. جلسْتُ على كنبة «كلاسيكية» من الخشب الداكن. ـرض الغرفة رخام لامع كالمرايا، يدفّئه السجّاد الأحمر، وفي الزوايا خزائن وطاولات مستديرة تحمل فوقها مصابيح ضخمة، وفي وسط الغرفة بيانو أبيض من نوع «الغراند»، يستأثر بمكانه كأنّه سبب وجود باقي الأشياء. عرضَت الخادمة عليّ ـهوة، لكنّي امتنعت.
بعد دقائق، دخلَتْ عليّ الآنسة نبال، عرفتها من صورتها في المجلّة.
وقفت احترامًا.
– أهلًا وسهلًا.
لم تقترب منّي، لم تمدّ يدها للسلام، ثمّ أمرتني بالجلوس.

– بم أخدمك؟ قالت بعينَين زجاجيتَين.
أنا الرقيب علّام من أمن المطار.
– أهلًا بك.
- حاولت مقابلتك عبر مكتبك في بيروت.
– نعم وصلتني رسالة، شيء عن حقيبة ودمية باربي.
– نعم.
- كيف عرفت باهتمامي بألعاب الباربي؟
– ...
بدون أن تنتظر جوابي قالت:
– تريد بيعها؟
– لا.
مدّت يدها فأعطيتها الدمية، تأمّلتها قليلًا.
– مذهلة! حالتها رائعة.
صمتَتْ للحظة.
– يا إلهي! إنّها الباربي الأولى.
مت إلى خزانة كتب في إحدى الزوايا، ثمّ تناولت كتابًا وقلّبت صفحاته: هذه هي!
ي الأخرى تملك كتبًا عن الباربي؟!
– كم تريد ثمنها؟
– لا أستطيع بيعها لك.
– لماذا؟
– لأنّها لك في الأساس.
نظرت إليّ بتعجّب.
– كيف هذا؟
– الباربي والحقيبة كلاهما لك.
– غير صحيح.
– كانت الحقيبة تخصّ والدك.
– رفعت عينَيها.
– أبي؟ هذه مزحة. قالت بعصبيّة.
عَت الباربي على الطاولة أمامها، وتصلّب ظهرها.
– الحقيبة ومحتوياتها تخصّ والدك.
– غير ممكن. أبي تُوفّي منذ سبعة أعوام.
– أنا آسف لذلك. لكنّها تخصّه، وهي موجودة في حجز المطار منذ سنة 1986.
عند سماعها ذلك تقلّص وجهها.
فقلت لها:
– حسب ما تبيّن، كان والدك في مدينة توليدو الإسبانية، في شهر شباط 1986 بالتحديد. ويبدو أنّه فقد الحقيبة عند عودته.
ضرب وجهها بياض معدني.

أخذَت الدمية، تأمّلَتْها، ثمّ قامَت نحو الحقيبة، فتحَتْها وحملَتْ أشياءها. رأت عدّة حلاقة، رسومات السيف والبطاقة البريدية، ثمّ صورتها وهي طفلة، قرأت اسمها.

– هذا خطّه.

حملَت الكنزة الصوفية، امتزجت عيناها باحمرار بسيط، وسال فوق خدّها خطّ من المسكرة. ثمّ غمرَت وجهها بالكنزة.

جلسْتُ لدقائق أراقبها.

– بعد كلّ هذه السنين... هل هذا ممكن؟

لعتُها على الأدلّة، وتصاميم السيف والبطاقة البريدية، والجواهريّ وتعرّفه إلى الصورة.

كانت عيناها تتنقلان بين الباربي والحقيبة، وهي تصغي إلى كلّ كلمة.

د انتهائي من الكلام سيطر عليها الذهول، فبدت وكأنّها ترى أشباحًا من الماضي.

- هذه الدمية أدخلت الحرب إلى بيتنا.

أحنت رأسها ونظرت أمامها، ثمّ أكملت:

– ليس طبيعيًّا أن تشعر طفلة بمسؤوليّة تجاه حياة والدها أو موته. الشرّ لا يعرف عمرًا. والأنانية لها ثمن باهظ.

اجأتني كلماتها، وأحسسْت بحزنها الطاغي، فتساءلت هل أخطأتُ في مجيئي إليها؟

– برنسس نابي. هكذا كان يدعوني.

رأيت شِبه ابتسامة باردة على وجهها ثمّ استطردَت:

ي كلّ سفرة كان يأتيني بباربي. أضيفها إلى مجموعتي. وعبر السنين امتلكت شرات منها، ولكنّها لم تكفني. رأيت مثل هذه الدمية بالذات لأوّل مرّة في منزل لسفير الأميركي. كانت تخصّ ابنته، فأردت نظيرها. وعدني والدي بشرائها في ه القادمة. وحين عاد من سفرته إلى إسبانيا، كانت بيروت في موجة من موجات فهرب المسافرون وبقيت الحقائب وراءهم. جاء إلى البيت فارغ اليدَين. لم أرضَ، لم أقبل.

سكتَت للحظة، لوَت برأسها.

ي صباح اليوم التالي، عزم أبي على الرجوع إلى المطار. كان الوضع سيّئًا. القصف ، مثل دقّات القلب، وفي الليل قُتل مسؤول في الغربية. اتّصل أبي بمخابرات الجيش، فنصحه أحد أصدقائه بعدم الذهاب. لكنّه رفض الاستماع له. وأنا أردت باربي.

صمتَت برهة. فأدركْت أنّ شيئًا محزنًا سيلي. وضعَت خصلات الشعر المتدلّية خلف أذنَيها.

- ذهب، وخُطف.

كانت تنظر أمامها بانكسار وندم.

– هذه أوّل مرّة أكلّم أحدًا بهذا الموضوع. ربّما لأنّ وقتًا كافيًا قد مضى. أو لأنّ ، الأخيرة قد أعادت إليّ ذكريات الحرب. بين ساعة وأخرى، عاد الخوف وكأنّه لم ل أبدًا. والذكريات أصعب بكثير من الأحداث نفسها، لأنّ الذاكرة تخزّن مجمل ث، كالناظر من بعيد، يرى الشيء وما حوله. لن أقدر على الرجوع إلى حياة الخوف.

لن أقدر!

رأيتها صادقة، وكلامها خال من شوائب التصنّع. لاحظتُ فجأة كم كانت جميلة. شعرها كثيف أحمر، متدلٍّ فوق كتفَيها، وعيناها زرقاوان وخدّاها ممتلئتان. جمالها ي. كانت في أواخر العشرينيّات من عمرها. تذكّرت ابتسامة ابن الصائغ، وهو ينصحني بشراء مجلّة «المشاهير» كي أرى صورتها. كانت جميلة جدًّا.

أكملَت وعيناها شاردتان في المجهول.

- انتظرته... وفي الصباح بحثت عنه في البيت فلم أجده. سألت الخدم والحرس فلم جوابًا. بدأت بالصراخ وتحطيم الأشياء. أردت الخروج إلى الطريق لكنّهم منعوني. قارب ثمّ الغرباء. رجال أمن، جيش، هيئات روحيّة، مئات فناجين القهوة وأكواب العصير.

أوّل مرّة دخلَت الحرب بيتنا. ما كان هناك أصبح هنا. أدركت مكانته ليس كأب فقط كحامٍ، وقاني ممّا كان خلف السور والطريق. أصبح للأصوات البعيدة معانٍ قريبة. حاب ودروس البيانو والمسرح والسينما البيتية، وسفرات الصيف المتتالية وساعات ءة والقصص، كلّها كانت السقف الواقي الّذي أبعد شبح الحرب والدمار. فقد خلق ي عالَمًا آخر موازيًا لذلك المجنون في الخارج. سكتَت.

– ماذا حدث بعد ذلك؟ سألتها وأنا أخشى جوابها.

– كثيرون اختفوا ولم يعودوا. لكنْ قليلون كانوا مثل أبي، بما يملك وبمن يعرف. أُطلق سراحه بعد خمسة عشر يومًا.

تأوّهت بملء رئتَيها.

– في اللحظات الأولى لم أعرفه. لأوّل مرّة رأيته كرجل. كان تعبًا هشًّا، وجهه لّم وعيناه غارقتان. وقد نبت الشعر الأبيض على وجهه كأنّه شاخ في أيّام. أدركت ها أنّ هذا الكيان لن يبقى لي إلى الأبد، فأصابني هلع. اقترب منّي، مدّ يدَيه لكنّي هربت. ركضت إلى غرفتي، وبدأت بتحطيم ألعاب الباربي المعلّقة على الحائط في صناديق زجاجيّة.

من ورائي وحملني. أردت التحرّر من ضمّه لكنّه أبى. صفعته وعضضت كتفَيه، النزول والهرب لكنّه عصرني. قبّل رأسي ويدَيّ، ملّس شعري وأحاطني بيدَيه، لم يفلتني. لم يفلتني...

كاثرت الخطوط السوداء على خدّيها. أخذَت الباربي وأحاطتها بيدَيها الاثنتَين، كمن يضمّ طفلة صغيرة.

عد وقت، هدأتُ وألقيتُ برأسي على كتفه. امتزج كياني بحركات بنيته الّتي جابت ت على المهنّئين وقبّلَت الأصحاب، ومن ثمّ جلسَت في الصالون وأجابَت عن أسئلة نيين، ورجال الدين، والأطبّاء.

الآن وقد أصبحت هذه الأحداث مجرّد رواية أحكيها، أتساءل، لمَ عاد يومها إلى لغربية رغم القصف؟ حتّى لو أصررْتُ يومها وعاندْتُ وطلبْتُ الباربي! ما حمله على خاطرة هكذا؟ هكذا كان أبي.

عند الباب، أمسكَت يدَيّ ولم تقل شيئًا، نظرَت إليّ كأنّها تراني للمرّة الأولى.

تركتُها وفي عينَيها نظرة حزن.

قدت سيّارتي نزولَا إلى بيروت. كانت السماء ملبّدة بغيوم بيضاء متفرّقة، شمس في آخر رمق، يضرب نورها الغيوم البليدة، الّتي عكست أشعّتها ضوءًا أصفر كأنّه مصباحٌ لطريقٍ عملاق، جعل معالم الدرب الضيقة واضحة، بأشجارها حشائشها وأحجارها. بدت مشاهد المدينة، الّتي كانت تأتيني بين البيت والآخر، نقيّة. تُ جهاز الموسيقى واخترتُ مقطوعة شوبان الّتي عشقتها منذ صغري، فجعلت هد تتتالى كأنّها صوَر من أحد كليبّات نادين لبكي. رفعْتُ الصوت إلى أقصاه وأغلقْتُ النوافذ.

الفصل الرابع

ي الليل، لم يغمض لي جفن.

أزعجني شيء في قصّة نبال، لا أدري ما هو بالضبط، ولكنْ ثمّة شيء أزعجني.

تقلّبت كثيرًا. كلماتها اجتاحتني كطوفان. أضاءت الصور زوايا من ذهني، كألعاب ـة منعت عنّي النوم. رأيتها وهي طفلة. بكاء، دمى باربي، رحلة إلى بيروت الغربية، مسلّحون تحت الجسور، شعارات ومعابر، أسلحة، صحافيّون، صندوق سيّارة، وزجاج.

انتصبْت في فراشي.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

عرت بانقباض في معدتي، وجفاف في فمي. أردت تحريك رجلَيّ المثقلتَين، لكنّ الغطاء الأبيض حال دون ذلك. حاولت من جديد فشعرت كأنّه يغلّفني، ضغطت لَيّ إلى الأمام، وبيدَيّ مزّقته شقّين، وصرخت.

– دمية باربي... دمية باربي...

بقيتُ لبرهة من دون حراك. اعتراني إدراك لحقيقة قاسية.

كاد والد نبال أن يضحّي بحياته في البحث عن دمية باربي. فعل، من أجل دمية اربي، ما لم يفعله أبي من أجلي.

ت حولي في الظلام. الملفّات، الأدوات الإلكترونية، صناديق الأوراق والسجلّات، ب، السفريّات واللوائح. ركدَت كلّها في أسفل الماء كأنّها حثالة. وأنا، كأنّي معلّق ـل واحدة، والدم يتدفّق إلى وجهي، والألم يسري في كلّ أعضائي، لكنّي سارح النظر في بحر الهواجس من تحتي، الّذي، فجأة، أصبح صافيًا. رأيت بوضوح ما ني كلّ هذه السنين، فتقلّصَت لحظة وجودي الحاضرة في سؤال واحد.

– لمَ لمْ تبحث عنّي يا أبي؟

لا أفهم. حقًّا لا أفهم...

ذناي عن تقبّل الأصوات، وادلهمّت الظلمة حولي حتّى أصبحَت الأشياء شبه أطياف. حالة معلّقة بين الوجود وعدمه. فأتاني الإدراك من دون جهد، انساب إلى فكري لصّ في الليل.

ما أنا عليه، منذ يوم احتراق السيّارة ومقتل جدّتي وابن الجيران، وكلّ ما أنا
يله، من لحظتها حتّى اليوم، هو الإجابة عن هذا السؤال: لمَ لمْ تبحث عنّي يا أبي؟
وّل مرّة تنجلي الأشياء أمامي بوضوح. عبر كلّ الآلام والذكريات والآمال، انبثق هذا
القاسي. رأيت النار المُحرقة الّتي لازمتني عبر السنين. لماذا لم تأتِ؟ وإن أتيتَ
لم تجدني؟ كيف استسلمتَ بهذه السهولة؟ أين هي إعلانات الجرائد، والتحرّيّين،
الاتّصالات، والاستعلامات؟ أم أنّك ببساطة لم تأتِ؟
تَ عنّي، نفضْتَ عن حذائك غبار بيروت والحرب والولد. أكانت لديك عائلة ثانية في
مانيا، زوجة وأولاد أغنوك عمّن سبقهم؟
ي السنين الأولى، كنت أنتظره كلّ يوم. أقول لنفسي علّه يصل هذا الصباح، أو عند
أو في المساء. أتخيّل اللقاء في مختلف الأمكنة، أغوص في التفاصيل، أتخيّل الأب
مان مبتسمًا. كيف أُخبر شادي؟ أأطلب من والدي أن نأخذه معنا؟ لكنّه لم يأتِ.
بعدها، صرت أتصوّر أنّ مسلّحين قبضوا عليه. هل فقدَ ذاكرته، أأصابه مكروه، أم
أنّه مسجون بتهمة خاطئة؟ قد يأتي.
كنّي، حين أصبحت راشدًا، رحت أقول لنفسي إنّه ببساطة لم يأتِ.
لا أدري إن فاتني شيء.
يف، بعد كلّ هذه المحاولات والمعلومات والسنين، بقيتُ عاجزًا عن معرفة مكانه أو
ب اختفائه؟ آلمني عجزي. فقط لو أنّي أعرف ما حصل...
السرير إلى زاوية الغرفة، أفرغْتُ كلّ الصناديق الّتي كانت تحته. فتحْتُ الملفّات،
تُ الوثائق والفاكسات، بدأتُ بمعاينة كلّ دليل وكلّ معلومة. توقّفْت عند كلّ
فصيل كأنّي أراه لأوّل مرّة. أمضيت ساعات تلوَ ساعات، منهمكًا في مسعاي، لم
ل ولم أخرج من البيت لمدّة يومَين.
عمر علّام. ابن عمر محسن علّام ورُبى سُكَّر. جاء جدّي الأكبر محسن إلى بيروت
سوريا، في أواخر القرن التاسع عشر، لا معلومات لديّ عن أصله أو أقاربه، كلّ ما
فه أنّه أتى من سوريا. جدّتي أصلها من شمال لبنان، انقرضت عائلتها في مجاعة
ب العالمية الأولى، بقيَت هي وأمّها الّتي تُوفّيت بعد زواج ابنتها من جدّي.
هجر جدّي عائلته، وأبي ما زال صغيرًا. لم أره أو أعرف عنه شيئًا في صغري.
هم بسبب امرأة على ما أظنّ. كان والدي يقول عنه إنّه كان رجلًا سيّئًا. عاش أبي
ع أمّه في فاقة وعوز حتّى أكمل دراسته، وبعد انتهائه من الخدمة العسكريّة، التحق
بشركة «هرجز» الألمانيّة في مركزها الرئيسيّ في بيروت.
سنة 1968، قام بأوّل سفرة له إلى مركز «هرجز» في ألمانيا. وُلدْت أنا في
ة التالية. لا أعرف شيئًا عن أمّي، أتذكّر أنّ جدّتي كانت تقول إنّها عند الله. لا أملك
صورة لها، ولا وجود لها في إخراج القيد العائلي، ولا في الملفّات القانونيّة. ولا
ف حتّى اسمها، كأنّها لم توجد في الأصل. في أوائل السبعينيّات، سافر أبي عدّة
لى ألمانيا والدول العربية. يوم مقتل جدّتي، كان في إحدى رحلاته الطويلة إلى
ألمانيا. لم أعرف عنه شيئًا حتّى بدأتُ تحرّياتي، فاكتشفت أنّه سافر إلى فرنسا
سنة 1978.
تشفت ذلك أصابني هول شديد. قبل ذلك كنت متيقّنًا من أنّه مات أو خُطف أو

ن، لذا لم يأتِ كي يبحث عنّي. لكنْ، حين عرفت أنّه تحرّك تلك السنة، أدركت أنّه
لم يأتِ. اشتدّ إصراري بعد ذلك على معرفة ما حصل. وظّفت مكاتب تحرّيّين، من
ناولة استقاء معلومات عنه، من مختلف البلدان وشركات السفر، لكنّي لم أوفَّق
بالكثير.
الآن، وصلني ملفّ الإقامة الدائمة، ممّا يُثبت أنّه كان يتحرّك بحرّيّة، والسبب الأرجح
صول على الإقامة الدائمة بهذه السرعة هو الزواج من ألمانيّة، حسب ما أعلمني
، مكتب التحرّيّات.
صف الثمانينيّات، ذهبت إلى بيروت الغربية. دخلتها عبر معبر المتحف من دون أن
لم أحد بذهابي، كان الأب نعمان حريصًا جدًّا على سلامتنا، وكان قد أرسل عدّة
له عبر السنين لتقصّي أيّ أخبار عن أبي، ولكن من دون نتيجة.
ت في السادسة عشرة. استقللتُ سيّارة أجرة، وتوجّهت إلى الشياح عبر معبر
حف. كانت بيروت الغربية مختلفة جدًّا عن شرقيّها. رأيت صورًا وشعارات لم أعتد
رؤيتها، وبدَت لي المدينة أكثر كثافة من ناحية البشر، فشعرت بالغربة فيها.
خوف من أن يعلم أحد أنّي من بيروت الشرقية. رأيت نظرات السائق تتفحّصني عبر
مرآة الصغيرة، ممّا زاد من خوفي.
وصلت الشيّاح لم أتعرّف إلى المنطقة. ذكرياتي كانت ضعيفة، تذكّرت البيت
يات القريبة منه، فصرت أبحث عنها. لكنّ المكان تغيّر كثيرًا. رحت أسأل المارّة
دكاكين، إلى أن دلّني أحدهم على طريق فرعي، عرفت فيه الشارع القريب من
. إلّا أنّ سائر المعالم زالت. البيت لم يعد موجودًا هناك، والبنايات كلّها تهدّمت خلال
الاجتياح الإسرائيلي، وارتفعت مكانها بنايات جديدة. ما كان لم يعد موجودًا.
بريت أسأل عن أهلي بالأسماء، علّ أحدًا يتذكّرهم. فأمضيت وقتًا طويلًا بين المارّة
دكاكين، ولكن من دون جدوى. لا أحد يعرف شيئًا.
جأة، توقّفَت أمامي سيّارة ترجّل منها مسلّحون، ذُعرت... عرقَت يداي حين رأيت
سات. ابتعد عنّي رجل كنت أسأله عن الأيّام الماضية.
– هويّة.
– تفضّل.
تمعّن في وجهي ثمّ في الهويّة.
– إيهاب أحمد علّام؟
– نعم.
قلّب صفحاتها ودقّق في أوراقها.
– تبحث عن شيء... تريد شيئًا؟
- أبحث عن أقرباء.
– تفضّل. من الأفضل أن ترجع إلى بيتك. هذه منطقة أمنيّة.

الفصل الخامس

اجتمع الموظّفون من جديد. «كروز مارلبورو مستورَد آخر». بدأ بعضهم بممازحة منّين عليه التمهّل، لأنّ خمسة «كروزات» من الدخان، في حال أعاد كلّ الحقائب، سيكون ثمنها باهظًا. ثمّ سألوه مازحين إن كان يرضى بالصناعة المحلّية.

تطلّعت حولي فلم أرَ عزّام. تساءلت عمّا إذا كان غيابه مقصودًا، أم أنّه لم يسمع بنجاح الحقيبة الثانية. على كلّ حال حضوره وعدمه الآن سيّان بالنسبة إليّ. بّما كان هدفي من إرجاع الحقيبة الأولى إذلاله، أمّا إرجاع هذه الحقيبة فكان بدافع رضاء متري.

بعد النجاح في إعادة الحقيبتَين إلى أصحابهما، أتانا دفع جديد، وإدراك بأنّ إنهاء المهمّة بأكملها قد يكون ممكنًا. رأيت على وجه متري ابتسامة فرح عارمة، كفاه النجاح في مهمّة إرجاع الحقيبة، من ناحية إرضاء النفس والكبرياء. رأيته في سلام ع نفسه وحياته، لا بدّ أنّه زوج وأب ناجح، وصلت إلى استنتاجي، رغم أنّي لا أعرف شيئًا عن حياته الشخصية. وأحسست بأنّ معرفتي بهذا الموضوع لن تزيد.

نظر إليّ متري بعيون ثاقبة وسأل:

– ما قصّتك؟

– عفوًا؟

– ماذا تفعل هنا؟

– هنا في قسم الجمارك؟ سألته بتعجّب، كونه عارفًا بقرار نقلي.

– لا. هنا في المطار.

لم أفهم قصده فأكمل:

– ماذا يدفعك؟ أو بالأحرى ماذا يأسرك؟

– لا أفهم سؤالك!

– أظنّك تفهم جيّدًا ما أقصده. ثقافتك وذكاؤك وإصرارك، كلّ ذلك يستحقّ أكثر ير من رتبة رقيب، يستحقّ حتّى أن تكون تعمل خارج الدولة كطبيب أو مهندس أو غيره...

سمت وأحنيت رأسي. أدركت أهمّية سؤاله هذا. نعم ماذا يدفعني؟ أو ماذا يأسرني؟

بتَ يا متري في تحليلك، وسؤالك هذا جديد عليّ، ولأوّل مرّة لا أدري إن كنت مندفعًا أو أسيرًا.

قلتَ لي يا متري في أوّل يوم قابلتك، إنّ هدف كلّ شيء ضائع هو العودة إلى صاحبه.

– نعم.

– أينطبق هذا على الأشياء فقط أم يشمل الناس أيضًا؟

– طبعًا يشمل الناس.

فحكيت له قصّتي.

في الصباح، وصلتني دعوة، بالبريد المضمون، من دار الصباح للنشر. كانت دعوة للاحتفال بتوقيع عقد بين الكاتب الياس بشارة ودار الصباح، بهدف نشر كتابه عن الأوطان». أرسلها إليّ الصحافي ملحم شمّاس، وأعلمني بأنّ الكاتب طلب حضوري. أسعدَتني الدعوة لكنّي تردّدت في قبولها.

إنّي سعيد جدًّا للكاتب، لكنّي أكره الحفلات، إذ لا معارف لي فيها، ممّا يضطرّني للوقوف وحيدًا.

كان الحفل معدًّا لليلة الجمعة، في مكتب الجريدة وسط المدينة.

قال متري:

ك الذهاب، هذا واجب لأنّك أنت مَن جعل نشر الكتاب ممكنًا.

– أقرّر حينها.

* * *

ت أيّامي في قسم الجمارك بدون عمل يُذكر، لم يُطلب منّي شيء ولم أُسلَّم أيّ ؤليّات، ممّا أفسح لي المجال للتركيز على الحقائب ومحاولة إيجاد أصحابها. وكان ن ضمن مسؤوليّات متري، وهذا ما سهّل عليّ الأمور أكثر.

ت الحقيبة الثالثة صلبة مثل حقائب «السامسونايت». مقسومة إلى شطرَين، جمعهما حبل معقود عند أسفلها. أرخى متري الحبل وأخذ يفرّغ محتوياتها. ثياب صيفيّة، بذلة كحلية مع ربطة عنق زرقاء، تتخلّلها خطوط حمراء داكنة، ثلاثة ت تحتوي على أوراق ووثائق. رأيت أيضًا كتيّبًا سياحيًّا صغيرًا عن عدد من المواقع العالمية. تاريخ وصول الحقيبة: 16آب 1984.

بدأت بمراجعة الوثائق. فتأكّد لي سريعًا أنّ معظمها قانوني، ولفت نظري على حداها اسم وتوقيع، كُتب الاسم بخطّ اليد: إدريس أحمد.

- هذا اسم. ما رأيك؟ سألت متري.

– لا أظنّ أنّه المالك. إقرأ الوثيقة تعرف ما أقصد.

بدأت بقراءتها:

– أنا الموقّع أدناه...

كانت الوثيقة تحمل اعترافًا للمدعوّ إدريس أحمد، بجرم قتل سيّدة لبنانية في شباط 1984 ، في بناية بمنطقة المصيطبة في بيروت، حيث كان يعمل في يانة. تناولَت الوثيقة تفاصيل الجريمة: اكتشاف الخزنة، حصوله على المطرقة من

البوّاب، دخوله إلى الشقّة، ومن ثمّ قتْل السيّدة والسطو على المجوهرات.
ت متري على استنتاجه. إدريس أحمد ليس صاحب الحقيبة. الوثيقة الثانية حَوت
فاصيل عن أدلّة. وصف دقيق لساعة روليكس ذهبية مع رقمها المتسلسل. ثمّ
هادة من المعترِف، إدريس أحمد، بأنّه باع كلّ المجوهرات ما عدا هذه الساعة، الّتي
قاها للاستعمال الشخصي.

– هل وجدتَ ساعة في الحقيبة؟

– لا. أجاب متري.

– تُرى ماذا حلّ بها؟

– من يعلم، قد تكون سُرقت في حجز المطار.

انت الوثائق الأخرى تحتوي على شهادات ومراجعات قانونية لم أفهمها. وضعتها
ذت أتفحّص الثياب. كان معظمها من صنع إيطالي وفرنسي، وجدت في أحد جيوب
البذلة قلم «باركر» مذهّبًا. فقلت لمتري:

– لا أظنّ أنّ الساعة سُرقت في حجز المطار.
أرَيته قلم الباركر.

– لو حصل هذا لما تركوا القلم الثمين.

ت الكتيّب السياحي. على الغلاف الخارجي، رأيت ورقة لاصقة تحمل سعره بالليرة
بنانية. قلّبت صفحاته فوقَعَت منه ورقة. التقطتها ورأيت أنّها تحمل عنوان «إذن
زيارة». في أسفلها، رأيت كلمات شاحبة بالحبر الأسود، لم أستطع فكّ رموزها
بب زوال أحرفها. حضرتني فكرة قد تمكّنني من قراءة الأحرف، لكنّي أحتاج إلى
جهيزاتي في البيت.

ا بالنسبة إلى الوثائق فرأيت أنّي بحاجة إلى خبير قانوني يدرسها ويُطلعني على
محتواها.

تذكّرت الصحافي.

لا غرو أنّ أحد زملائه في الجريدة ملمّ بالقوانين، فيساعدني في الوثائق الّتي
دتها في الحقيبة. قرّرت حضور حفل نشر الكتاب، كي ألقاه وأسأله.

ذت الكتيّب والورقة، وانصرفت إلى بيتي بعد انتهاء دوام العمل.

،، وضعت الورقة على «السكانر» وجعلت صورتها الإلكترونية أمامي على شاشة
مبيوتر. فتحت «الفوتو شوب» لمحاولة التلاعب بالألوان وإيضاح الصورة. أمضيت
جرّب مختلف الخيارات، تمكّنت من جعل ظلّ الكلمات أكثر وضوحًا، ولكن من دون
النجاح في قراءتها.

* * *

ء الجمعة، حلقت ذقني، وارتديت بذلة رسمية مع ربطة عنق، فوجئت أنّها ما زالت
سبني رغم قدمها. تعطّرتُ، حتّى أتخلّص من رائحة الخزائن.

لى بيروت، وحوالى الثامنة كنت على مشارف وسطها. رحت أستدلّ على العنوان،
خذت بنصائح المارّة عن الطرق السالكة والطرق المقفلة، بسبب تزاحم الجموع
رة المتّجهة صوب ضريح الشهيد. أخيرًا أوقفت سيّارتي بعيدًا عن المبنى واتّجهت

نحوه سيرًا.
ـصلت وفي يدي الدعوة، إلّا أنّ أحدًا لم يطلبها منّي. ثمّ دخلت عبر باب زجاجي، ـي رجُل أمن وأشار إليّ بالصعود إلى الطابق الأوّل. إلى يساري رأيت، من خلال ـ زجاجي، ماكينات الطباعة تمرّر المئات من الجرائد. كان كلّ شيء مرئيًّا عبر ـجاج، وكان الموظّفون منهمكين في أشغالهم.
ـعدت إلى الطابق الأوّل حيث استقبلتني فتاة بصينيّة شراب، فأخذت كوبًا من عصير الليمون. الغرفة واسعة، في جوانبها قدور كبيرة فيها زهور وأشجار صغيرة. رأيت ـن صورتي على الزّجاج المعتم الّذي يفصل الغرفة عن باقي المكاتب. في الصالة، ـف حوالى الأربعين شخصًا.
ـفت أحد النوّاب. لقد سبق أن رأيته في مقابلة تلفزيونية. ورأيت أيضًا رجال دين ـن الجمع. وفيما كنت غارقًا في أفكاري، دنا منّي رجُل قصير القامة، أشقر الشعر، ـردي الخدود.
- السيّد إيهاب أم أنا مخطئ؟
– نعم!
مدّ يده.
– ملحم شمّاس.
ـذني الصحافي بين الجموع وعرّفني ببعض الأساتذة والزملاء. ثمّ اقتربنا من الكاتب الياس بشارة الّذي صافحني بحرارة. عرّفني الكاتب بالجمع حوله، منوّهًا بفضلي ـرجاع الكتاب. أمضيت الدقائق التالية بين المجاملات والأسئلة.
ثمّ، فجأة، رأيتها.
ـخلَت الغرفة بثوب أزرق طويل يلامس الأرض. على كتفَيها تدلّى شال أسود شفّاف، وفي يدها استقرّت حقيبة فضّية صغيرة. كان وجهها صافيًا أبيض، مستنيرًا كوجوه ـلائكة، وقد غمرت عنقها حليّ برّاقة. بهرني جمالها. التفَّ حولها معظم الرجال والنساء عند رؤيتها، ثمّ اختفت بين الجموع.
ـعجّبْت كيف جمعتنا الصدف من جديد، لم أكن أعتقد أنّي سأراها بعد ذلك اليوم. ـكنّي أيضًا لم أعتقد أنّي سأُدعى يومًا إلى حفل كهذا. شعرت بأنّ الأشياء تتحرّك في ـياتي، كأنّ نسمة جديدة هبّت، حاملةً معها هواء منعشًا.
ناداني الكاتب:
– اقترب، أريد أن أعرّفك بالآنسة نبال أشقر.
ابتسمَت ومدّت يدها تصافحني.
– يعود الفضل كلّه لإيهاب، لو تعلمين كيف وجد هذا الكتاب...
ـخبرها تفاصيل الأحداث. رأيت على وجهها اندهاشًا، فمن أين لها أن تعلم بالحقائب ـلأخرى؟
ـنهى الكاتب من كلامه وتوجّه إليّ:
– شكرًا يا ابني شكرًا... هذا الكتاب هو حلقة من تاريخي، بدونها كنت عاجزًا عن إلى الأمام والتقدّم. وعلى الإنسان دومًا تسديد فجوات الماضي قبل الشروع إلى ـمستقبل. نحن أسرى تاريخنا وحضرتك حرّرْتَني. شكرًا لك.

نظرَت بدورها إليّ:
– نعم. شكرًا سيّد إيهاب. شكرًا...
ورسمَت ابتسامة خجولة على وجهها.
فهمْت أنّها تشكرني ضمنًا على حقيبة والدها.
جأة، اقترب أشخاص من الكاتب يسلّمون عليه، فوجدت نفسي وحيدًا معها.
لم يخطر ببالي شيء أقوله، وهي بقيت واقفة ترمقني بنظرة بين الحين مرني عطرها، التصق بي، دخل رئتَيّ مع نفس عميق حاولْت حبسه إلى أقصى حدّ.
رب منّا رجل وامرأته. سلّم على نبال وعرّفها بزوجته. كان مسؤول المكتب الثقافي الإيطالي في بيروت. تكلّم بالفرنسية مع نبال، الّتي لم تقدر على التواصل مع زوجته، بسبب جهل هذه باللغة الفرنسية. بدا على الزوجة الخيبة، لأنّ الملمّين بالإيطالية قليلون جدًّا في بيروت، فوقفَت شاردة بانتظار زوجها. تقدّمْت منها وسألتها، بلغتها، عن حالها ورأيها بلبنان. تعجّبت جدًّا من إلمامي باللغة الإيطالية، شادت بلهجتي. أمضينا وقتًا نتبادل الآراء والأسئلة، ولبثت نبال منشغلة مع المسؤول طالي، لكنّها، بين الحين والآخر، كانت تصغي إلينا وترسم ابتسامة على وجهها.
د قليل اقترب منّا ملحم شمّاس وسلّم على نبال. أخبرْتُها عن المساعدة الّتي دّمها إليّ في موضوع الحقيبتين.
ن الحقائب الأُخرى، فقلت له إنّي وصلت إلى طريق مسدود، وإنّي بحاجة إلى من يلمّ بالوثائق القانونية.
أليست الستّ نبال خرّيجة حقوق؟
لم أكن أعرف ذلك، لكنّي لم أرَ كيف لشخص بمكانتها وانشغالها أن يكرّس بعض وقته لقضيّة كهذه. فقلت له:
– لا أريد إزعاجها.
فردّت نبال:
لا إزعاج على الإطلاق. أحبّ المساعدة، وإن لم أقدر شخصيًّا فإنّي أعرف من يقدر.
– ...
– أرسل الوثائق إليّ لأدقّق فيها.
أصرّت على إرسال سائقها في الغد لإحضار الوثائق. فشكرتها وتودّعنا.

* * *

حصلْت على رقم الإقامة الدائمة لأبي، بتّ آمل كلّ يوم أن أحصل على معلومات بدة من مكتب التحرّيّات في ألمانيا. خاصّة بعد أن بدأوا بالبحث من جديد، عبر ت الدولة وخطوط الطيران. إلّا أنّي لم أتلقَّ أيّ جديد حتّى الآن.
اءتني فكرة. حين استلمت الدعوة إلى حفل توقيع العقد بين الكاتب ودار النشر، لب منّي التوقيع على لائحة الاستلام، مع كتابة رقم هويّتي. قد يكون هذا مسلكًا تغاضيت عنه في الماضي. ربّما يجب أن يشمل بحثي شركات البريد. من الجائز أنّ شركات كثيرة تتعامل في هذا الميدان، وألوف من الطرود تُسلّم يوميًّا، ولكن كم

ة كانت تتعامل في هذا الحقل في السبعينيّات؟ وإذا ركّزت بحثي على الطرود
لعالمية إلى لبنان، سيصبح هذا الرقم أصغر.
سارة من التجربة إلّا الوقت والمال، وعندي ما يكفي من الاثنين.
سلت بطلبي الجديد إلى المكتب في ألمانيا.
إلى الورقة الّتي وجدتها داخل الكتيّب السياحي. فتحت برنامج «الفوتو شوب» من
جديد، جرّبت بعض المفاعيل، منها ما يجعل الصورة ثلاثية الأبعاد، ومنها ما يجعل
عطافات أكثر تماسكًا، ولكن دون جدوى. صدفة، جرّبت خيارًا يسمّى بالسلبي،
كس الضوء في الظلّ، فظهرت الكلمات بوضوح: «سجن القاهرة».
مصر إذًا.
لّبت الكتيّب السياحي فرأيت فصلًا عن الأهرام. لا بدّ أنّ صاحب الحقيبة قام
زيارة «سجن القاهرة»، ربّما لمقابلة إدريس أحمد، صاحب الاعتراف.

* * *

م الاثنين ظهرًا رنّ جهازي الخليوي.

– إيهاب؟

– نعم.

– معك نبال.

م تكن بحاجة إلى التعريف عن نفسها. عرفت صوتها، وتسلّلَت إلى أنفي رائحتها
الخلّابة الساحرة.
صاحب الوثائق هو بالفعل محامٍ. وقد وجد محاميّ الخاصّ، في أحد الملفّات، إشارة
عوى أقيمت في محاكم لبنانٍ سنة الاعتراف عينها. ولحسن الحظّ رقم الدعوة
ل، فطلبت منه إرسال الرقم إلى وزارة العدل لاستنساخ المحاضر كي نتعرّف إلى
ويّة المحامي.

– سيستغرق ذلك وقتًا طويلًا؟

ضحكَت.

– لن تنتظر طويلًا، أعدك.

كان ذلك اختراقًا للعقبة الّتي واجهتني، وبسرعة لم تكن متوقّعة. أحسست
بإيجابيّة حيال الموضوع بمجمله، وتساءلتُ عمّا تحمله هذه الحقيبة من قصّة، لأنّ
بقها كان مدهشًا. خزينة وقتيّة، قال متري عن الحقائب. لقد كان على حقّ.
اد إلى ذهني صوت نبال. لِمَ اختارت الاتّصال بنفسها، بدل أن تطلب من سكرتيرتها
ولِمَ اتّصلت من جهازها الخليوي؟ أأرادت منّي الحصول على رقمها الخاصّ، بما
ذلك من سبل؟ أهذه علامة ربّما إلى الثقة أم الشكر أو دعوة إلى أكثر؟ صرفت
ذه الأفكار الحمقاء عنّي، إذ كيف لامرأة بهذا الجمال والمكانة والمال أن تفكّر في
مثلي؟ وهي من اعتادت التعاطي مع نخبة المجتمع، وكبار السياسيين ورجال
ال، وصورها تملأ المجلّات والجرائد. أمّا أنا فموظّف عادي في الأمن العامّ، والآن
ي قسم الجمارك والحقائب؟
لا بدّ أنّها تردّ المعروف. هي حتمًا حسّاسة، وتدرك أهمّية الحقيبة بالنسبة إلى من

. على كلّ الأحوال، من أين لي قراءة علامات النساء، وأنا لم أعرف امرأة أو حبًّا
ي حياتي؟
رغم ذلك، شعرت بسعادة قصوى في نفسي، فحفظت رقم الخليوي في جوّالي.
ظر إليّ متري بغرابة، بعد أن وضعت الخليوي جانبًا، وقال:
– ثمّة شيء مختلف فيك.
– ماذا تقصد؟
عبس قليلًا.
– لمْ أرَ وجهك بهذا الإشراق من قبل!
– إنّك تتوهّم.
ابتسم وهزّ برأسه.
– امرأة.
رأة! كلمة غريبة عليّ. مفردة من قاموس غائب عن لغتي، تسكن جزءًا نائمًا منّي، محتجَبًا وراء ما تطاله أشعّة الشمس ونور القمر، وراء ما تحييه مواويل ملحم زين مروان خوري وغرام نانسي عجرم. كيف أشتاق إلى ما لا أعرفه؟ كيف أحنّ إلى شيء لم ألقَه طفلًا، فأطلبه مراهقًا، ثمّ أحياه بالغًا؟!
آه كم أصبتَ بتحليلك يا متري! نعم إشراق جديد لم يعرفه وجهي من قبل. أعرف ماًما ما تقوله، فلست أنت من يتوهّم بل أنا، إن اعتقدتُ يومًا أنّي لست بحاجة إلى ما يضفيه عليّ وجه مثل وجه نبال الملائكي، بما يعِد ويضمر. ملاك طلبني، ملاك أمرني، ولربّما سأنصاع.
اتّصل بي محامي نبال وأعلمني بالنتائج.
تلقّى مَحاضر وزارة العدل بما يخصّ الدعوة. وبعد المراجعة استدلّ على هويّة امي الدفاع. فتحقّق عنه في نقابة المحامين وعلم بوفاته في الثمانينيّات. أعطاني نوان الوحيد الموجود في أرشيف النّقابة. سُررت باكتشافه، لكنْ خاب أملي. لمَ لمْ صل نبال بنفسها؟ هل اختارت عدم التورّط المفرط بالقضية وبي؟ لكنت سعدت لو اتّصلت بنفسها. بالتأكيد ليس لي معرفة بسلوكيّات النساء.
رت التركيز على مبتغاي، علَّ ذلك يمنع عنّي هذه الأفكار المربكة.
ي الحاسوب، وجدت اسم المحامي في التاريخ نفسه المدوّن على بطاقة الحقيبة. ممّا أكّد صحّة الاسم.
الحقيبة ومحتوياتها وقصدت العنوان. عند أسفل البناية، سألت البوّاب عن عائلة محامي.
– الوالدة ما زالت تسكن هنا. الأولاد كلّهم تخرّجوا وتزوّجوا.
– هل هي موجودة؟
– نعم. الطابق الرابع.
بَت بي السيدة وسألتني عن سبب زيارتي، متعجّبة من وجود حقيبة سفر في يدي. عرّفتها بنفسي وأخبرتها بالحقائب الضائعة، وبهدف إرجاعها إلى أصحابها. أطلعتها كيفيّة وقوعنا على وثائق قانونيّة، على صلة بدعوى، كان المرحوم زوجها محامي الدفاع فيها.

- تسلّم المرحوم زوجي مئات الدعاوى، كانوا يقصدونه من كلّ مكان.

أمّا بالنسبة إلى الحقيبة، فلم تؤكّد عمّا إذا كانت ملك المرحوم زوجها أم لا. سألتها عن سبب وفاته.

ذيفة سقطت على مدرج المطار، ذهب ضحيّتها هو وثمانية رجال أعمال. ركّاب درجة رجال الأعمال يترجّلون أوّلًا، قالت بحزن. بقي يصارع الموت ثلاثة أيّام، لم يصدّق الطبيب كيف عاش بإصابة كهذه.

– في أي سنة حدث ذلك؟

– سنة 1984.

– في شهر آب؟

نظرَت إليّ بتعجب.

– نعم. يوم 16آب.

– أكان في مصر؟

– نعم.

استنتجَت من أسئلتي أن الحقيبة كانت تخصّه فعلًا.

– يا الله. رحْت رخيص يا أبو أسامة. رحْت رخيص.

اق نفَسها فنادت الخادمة، الّتي أحضرت لها على عجل حبّة دواء وكوبًا من الماء.

– رحت رخيص يا شيخ الشباب. الله يحرمهم مثلما حرموا أولادك. الله يقضي على مّتهم مثل ما قضوا عليك.

بها الحقيبة إلى ذكريات أليمة، مشاعر كانت في غنى عنها. من أين جئتُها؟ من أيّ ب دخلت وبأيّ حقّ اقتدتها بيدها، إلى مكان أسود من ماضيها؟ لم تقل لي شيئًا، ت رصينة فشكرتني على الحقيبة.

أستميحكَ عذرًا، عليّ الاستراحة، قالت.

وأرخت بنفسها على الكنبة.

لم تكن هذه الحقيبة خزينة وقتيّة، قلت لمتري. بل خزينة ذكريات أليمة. فقد ت إليها مشاهد الحرب. رأيت أن لكلّ ضحية قصّتها وأهلها وأولادها، ومهما كان مر أو المنطقة أو المذهب، فهناك شيء واحد أكيد ومشترك بين الجميع: الألم.

أذابت قصّة موت المحامي كلّ شعور بالنجاح، فلم نجتمع في الكافتيريا، ورفض تري الهدية المعتادة.

– احترامًا للمأساة، قال.

وافقتُه الرأي. لم يكن نجاحًا، بل مجرّد عمل حمل في طيّاته ما لم يكن في حسبان.

في اليوم التالي اتّصال عبر هاتف المكتب، أعلمتني عاملة سنترال المطار أنّ يًا يبحث عنّي وهو على الخطّ. اخترقت أعضائي برودة.

– سيّد علّام!

– نعم.

ل حضرتك الرقيب الّذي زار أمّي البارحة؟

– نعم.

لا بدّ أنّه مستاء جدًّا بعد ما حصل لأمّه، علّه سيؤنّبني على نبش الماضي وتذكيرها بفاجعتها. أرجو ألّا تكون أصيبت بمكروه.
عليّ رؤيتك. تفضّل إلى مكتبي في الغد الساعة العاشرة والربع.
ترك لي خيارًا. على أيّ حال لا يمكنني الرفض، فلست أعلم في أيّ مأزق أدخلت سي. عاودني الشكّ بأنّ موضوع الحقائب كلّه مضيعة للوقت، وأكثر من ذلك، فقد ينتج عنه أمر لا يمكنني الرجوع عنه. ناس لهم معارف في الدولة والقضاء والسياسة، ومع تغيّر الوضع مؤخّرًا، قد لا أجد من يحميني. ولكنّي لم أهرب يومًا ن مسؤوليّاتي، سأقابله غدًا وأرى ما يريد.
علمت متري بما حصل، فاعتذر عن توريطي في الأمر، وقال إنّه سيتحمّل مسؤوليّة فلا داعي للقلق. على كلّ الأحوال نحن نقوم بواجبنا، علينا إرجاع الحقائب، ما عدا ذلك فاتّكالنا على الله سبحانه وتعالى.
، منطقة الروشة. أخذت المصعد الكهربائي إلى الطابق السادس، ودخلت المكتب. ان يعجّ بالموظّفين والناس، وقد جلس عدد منهم على كنبات جلدية، تتوسّطها ولة زجاجيّة ضخمة. في منتصف الجدران عُلِّقَت نسخ من لوحات عالمية بكتابات بة. كان المكتب يحتلّ مجمل الطابق، ويحتوي على أكثر من عشر غرف، تفصل بينها واجز زجاجيّة تدلّت منها ستائر معدنيّة متحرّكة. طلبت منّي عاملة الاستقبال الجلوس بانتظار الأستاذ.
بعد قليل استُدعيت إلى مكتبه.
– سيّد علّام!
– كيف حال الوالدة؟ سألته.
– بخير شكرًا.
أردت الاعتذار منه ممّا سبّبتُه لأمّه.
– بخصوص ما حصل مع الوالدة من وعكة...
– ليس جدّيًّا. تُصيبها حالات إعياء بين الحين والآخر، عليها الانتباه إلى صحّتها فقط.
– بدت مستاءة جدًّا.
– نعم. كيف تعوّض فقدان زوج، وبهذه الطريقة؟ لا أعتقد أنّ أيّ إنسان يمكنه أن ى فاجعة كهذه. على كلّ حال، ليس هذا ما أردت الحديث عنه.
إذن لم يحصل لها شيء. شعرت بارتياح.
أريد الكلام معك عن الحقيبة أو بالأحرى عن محتواها. هذه الوثائق بالذّات.
وضع أمامه ملفّات الحقيبة.
– ألم تكن تخصّ والدك؟
– بلى. لكن ما يهمّ هو الدعوى الّتي تتناولها.
– نعم!
– مقتل السيّدة إلهام بدري.
– إلهام؟
لم يكن الاسم الأوّل للسيّدة بدري واردًا في الوثائق.

انتبه إلى قصدي فقال:
- أعرف القضية جيّدًا. فقد رواها لي المرحوم والدي. قُتلَت السيّدة إلهام بدري في شقّتها الكائنة بمنطقة المصيطبة، على يد بوّاب البناية، وبواسطة مطرقة حديديّة. تلقّت ثلاث ضربات، واحدةً على يدها ثمّ ثانيةً على كتفها، وضربةً أخيرةً على رأسها قتلَتْها. حصلت الجريمة بدافع السرقة.

ادئ الأمر ادّعى البوّاب البراءة. إلّا أنّ أدلّة كثيرة كانت ضدّه. أوّلًا بصماته على سلاح الجريمة. ثانيًا لم تكن هناك دلالة على الاقتحام، ممّا يعني حيازة القاتل على تاح الشقّة. وقد كان من عادة سكّان البناية ترك مفتاح إضافي لشققهم مع البوّاب، حال هربهم من القصف أو من حرّ المدينة في الصيف. ثالثًا، لم يجد المحقّقون آثار ام لغير المتّهم – إذ من العادة في حالات القتل بالسلاح الأبيض أن يترك القاتل ذيلًا خطاه من أثر دماء الضحيّة، ممّا يدلّ على طريقة انسحابه من مسرح الجريمة.

عندما وجدوه كان يحتضنها، وثيابه مضرَّجة بالدماء وإلى جانبه المطرقة. وُكّل أبي عوى القضائية، لمحاكمة القاتل. توصّل المحقّقون إلى اعتراف البوّاب بجرمه. كانت لمحاكمة سريعة، انتهت بالحكم المؤبّد. لكنّ الغريب، ما حصل بعد ذلك.

جاء بعد أشهر صغير أبناء القتيلة. طلب من أبي فتح القضيّة من جديد، بدافع برئة البوّاب من الجريمة.

تصوّر! بعد الاعتراف وانتهاء القضيّة والحكم، يريد ابن القتيلة تبرئة المحكوم ه! طبعًا أبي رفض، لكنّ الابن أصرّ، مدّعيًا براءة البوّاب. أبى والدي قطعًا فتح قضيّة من جديد. لكنّ الابن قارب الموضوع من منظار آخر، فأقنع أبي بما يلي:
ى أنّ شخصًا آخر متورّط في قتل أمّه. وهذا الشخص الآخر هو، على الأقلّ، شريك ي الجريمة، إن لم يكن الفاعل. لذا، عليه ملاحقته. وإذا تمّ القبض على هذا المتّهم دديد، فسيتمّ إثبات ما يلي: إمّا أنّه قد شارك البوّاب في جريمته، وفي هذه الحالة تتمّ مقاضاته أيضًا، وإمّا قام بها منفردًا ممّا يبرّئ البوّاب. في كلّ الأحوال يكون العدل قد أخذ مجراه.

لم يرتح أبي للموضوع، إلّا أنّ أمرًا قد شغله طويلًا: ماذا حلّ بالمجوهرات؟ لم مّ العثور عليها في الشقّة ولا لدى البوّاب، ولا حتّى في منزله. ممّا أقنع أبي باحتمال وجود شريك في الجريمة. قَبِل أبي القضيّة فوظّف تحرّيّين وأعاد مقابلة كلّ الشهود يد. عاين الأدلّة، وقابل مجدّدًا كُلًّا من البوّاب وابنته الشابّة الّتي كانت طالبة جامعية ها. بعد أسابيع من التحقيق وضّب أبي حقيبته، وسافر إلى مصر. قال إنّه توصّل إلى هويّة المشتبه به: عامِل مصري كان قد انتهى من طلاء الواجهة الخارجية للبناية. ي استشهد في المطار عند عودته، فضاعت الأدلّة وانتهت القصّة عند هذا الحدّ. إلى وجدت حضرتك الحقيبة وأعدتها إلينا.

د قرأت اعتراف المصري. يقول إنّه رأى الخزنة من نافذة الشقّة، وإنّه دخلها من ة عبر السقالة الّتي بناها. حصل على المطرقة من غرفة البوّاب ولبس قفّازات تحمي بصماته، ثمّ قتل السيّدة بدري وسرق المجوهرات. عند مغادرته محا أثر لدماء من على الأرض، بواسطة أقمشة من الكتّان كان يستعملها للدهان. أقرّ بأن لا علاقة للبوّاب بالأمر، وأنّه أراد توريطه حتّى يُبعد الشبهة عنه، ممّا يسمح له

هرب إلى مصر. وقد صُعِقَ جدًّا من اعتراف البوّاب بالجريمة رغم براءته. وكدليل لى أنّه السارق، قدّم ساعة الروليكس.
كان في سجن القاهرة بسبب جريمة أخرى ارتكبها عند عودته إلى مصر. بما يخصّ لبنانية، رفض الاعتراف أوّلًا، إلّا أنّ أبي أعلمه بمصير البوّاب، وبما أنّه على أيّ حال محكوم بالسجن المؤبّد في مصر، فلن يضرّ به الاعتراف. لكنّه لم يوافق، إلى أن أبي لعائلته وأولاده الأطفال مبلغ عشرين ألف دولار كمساعدة. دعَوتك إلى هنا، يك كلّ الوثائق والاعتراف والدلائل. أرجوك أن تسلّمها إلى عائلة بدري كي تتصرّف بها كما تشاء.
– عفوك. لم لا تأخذها بنفسك ما دمت تعرفهم، ووالدك كان محامي العائلة؟
– ما من علاقات بيننا. بعد استشهاد أبي في المطار، رفضوا دفع تكاليف السفر ات والعشرين ألف دولار، مدّعين أنّ الأخ الأصغر تصرّف من دون علم العائلة. وكنّا قد فقدنا الدلائل باستشهاد أبي، فقامت بيننا دعاوى ومحاكم. وانتهى بنا الأمر إلى عداء. لكنّ ضميري لا يسمح لي بحجب الأدلّة عنهم، خاصّة أن في ذلك براءة البوّاب. العثور على الأخ الأصغر وتسليمه الأدلّة، بذلك تكون أكملت مهمّتك، وعلى الأقلّ، بت بعمل إنساني يجازيك الله خيرًا عليه. وليسامحهم الله بالمبلغ المتوجّب عليهم.
أكثر الأسرار الّتي حملَتها هذه الحقيبة! أسرار جعلت متري يضرب رأسه قائلًا: إنّ يئًا قد قضى واحدًا وعشرين عامًا في السجن بسبب ضياع الحقيبة. وأكثر ما آلمني نّه رغم انتهاء الحرب منذ سنين، ما زال الأبرياء يدفعون ثمنها حتّى اليوم. فالقذيفة بت بحياة المحامي على مدرج بيروت، ختمت أيضًا مصير البوّاب. عصفوران بحجر واحد. أو بالأحرى بريئان بقذيفة واحدة.
ت من السمّان عند مدخل البناية أنّ الأخ الأكبر ما زال يسكن الشقّة، أمّا الأخ الأصغر فلم يره منذ زمن.
- سمعت أنّه أصبح كاتب عدل، قال.
ت عددًا من الاتّصالات وحصلت على عنوانه بسهولة، فلبنان صغير والكتّاب العدول روفون. كان يزاول عمله من منزله في الأشرفية فذهبت إليه من دون تردّد.
وصلت قرابة السّاعة الخامسة بعد الظّهر. فتحت لي سيّدة. وبعد سؤالي عنه، برتني بأنّ دوام العمل هو بين الثامنة صباحًا والرابعة بعد الظهر. وتمنّت عليّ التقيّد هذه الأوقات. قلت لها بأنّ الموضوع مهمّ وعليّ رؤيته، فأصرّت على أنّه لا يستقبل أحدًا بعد الرابعة. أعلمتها بأنّ الموضوع لا يتعلّق بي أو بالمعاملات الرسميّة، ، أصرّ حتّى أدخلتني إلى غرفة الانتظار.
دخل عليّ بعد قليل، صافحني، ثمّ طلب من زوجته إحضار القهوة. عرّفْته بنفسي ملي في المطار، ومهمّتي بإرجاع الحقائب الضائعة.
– ما علاقة ذلك بي؟
– إحدى الحقائب لها صلة بوالدتك.
– والدتي؟ والدتي تُوفّيت منذ زمن بعيد.
– أعلم. هذه الحقيبة لها علاقة بذلك.
– كيف؟ أمّي لم تسافر طوال حياتها... سأل وقد ضاق ذرعًا.

– الموضوع متعلّق بمقتلها.
فوجئ بما قلت.
– لا أدري كيف لحقيبة ضائعة صلة بمقتل والدتي.
- الحقيبة كانت تخصّ محامي الدّفاع الّذي وكّلته حضرتك، وداخلها وجدنا اعترافًا مل مصري، يثبت علاقته بالجريمة، وبالتّالي براءة البوّاب الّذي حُكم عليه في ضيّة مقتل والدتك.
سقطت الصينية من يدَي زوجته محدثة ضوضاء، فامتلأت الأرض قهوة وزجاجًا. مي عليها عند مدخل الغرفة بعد سماعها ما قلت. هبّ كلانا لالتقاطها، وهرعت نها يرشّشن الماء على وجهها، ويمسحن القهوة ويجمعن أشلاء الفناجين المبعثرة على سجّاد الغرفة وبلاطها.
أُصبْت بالصدمة بسبب ما حصل.
د قليل، عادت الحياة إلى وجه الزوجة، وبعينَين نصف مقفلتَين قالت:
– بابا يا منير. بابا.
تبع ذلك من أحداث أرسل قشعريرة في جسدي، جعلت قصص الأفلام كأنّها روايات أطفال مقارنةً بما سمعت.
كاتب العدل هي ابنة البوّاب. تذكّرت المحامي يقصّ عليّ طلب ابن الضحيّة الأصغر من أبيه، أن يعيد فتح القضيّة لتبرئة البوّاب. كان مغرمًا بها أثناء وقوع الجريمة. هي العشرين من عمرها، مثقّفة جميلة وطالبة علوم سياسية، وهو شابّ من عائلة ميسورة تملك عدّة أبنية ومحلّات في بيروت.
في ما مضى، كان البوّاب أحد سكّان هذه البنايات، رجل أعمال ثريًّا فقد ثروته مع ستثمر في بيروت. حدث هذا في الثمانينيّات حين فقد الكثيرون ثرواتهم بين ليلة ضحاها. فعرضت عليه العائلة العمل لديها، مقابل السكن وأقساط ابنته المدرسية ب شهري صغير. ومع الأيّام، نما الحبّ بين الكاتب العدل والفتاة، في غفلة عن عيون.
عوري الأوّل كان عدم التصديق. لم أصدّق أنّ أمّي قُتلت، ولم أصدّق أنّه هو من . ثم تحوّل الشعور إلى حزن وغضب وألم. أصابتني فاجعتان، فقدان أمّي والخوف قدان الفتاة الّتي أحبّ. وحين كان أخي وإخوتي يتوعّدون بقتله وتشريدها، وينعتونهما لأسماء المهينة، كنت أتمزّق من الداخل. أردت صبّ جام غضبي على أحد مثلما فعل ي، لكنّي في الوقت نفسه كنت أعشقها، وأردت الزواج منها. ويلاه ما أصعب تلك م! لكنّي في حزني وغضبي، رأيت أنّها أيضًا ضحيّة الجريمة. فقدَت والدها ومسكنها وحياتها كلّها. حتّى لو كان أبوها قاتل أمّي، فلن أجعلها تدفع الثمن. بسرعة، تدبّرَت رها حتّى تهدأ الأمور. ثمّ بعد مرور أشهر، وحين عدْت إلى نفسي، عادت شكوكي ي أنّه قتلها، رغم إقراره واعترافه وصدور الحكم. أردت التأكّد بنفسي.
كان يروي القصّة وهي جالسة بجانبه، ويده حولها وهي تبكي بصمت.
زرته في سجن رومية، نظرت في عينيه وسألته: هل قتلت أمّي؟
فقال:لا. ثمّ راح يبكي ويقسم بالله وبأنبيائه إنّه أحبّنا مثل أولاده، وإنّه لا ناءها ولا في أيّ وقت آخر، قام بأذيّة أيّ منا.

– لم اعترفت إذًا؟
ل إنّهم ضربوه وعذّبوه، وحرموه النوم والأكل والشرب، ومع كلّ ذلك أصرّ على براءته. ولو بَليتْ عظامه في السجن، لن يعترف بما لم يفعل. إلّا أنّهم هدّدوه بتوريط ابنته في الجريمة بسبب شكوكهم في وجود شريك له في الجرم. فخاف رف. ثمّ أعلمني بشكوكه في العامل المصري، قال إنّه الشخص الوحيد الّذي توفّرت عنده الفرصة وإمكانية التنفيذ. صدّقته.

حين تسمع الحقيقة تعرفها. وكثيرًا من الأحيان ظاهر الأشياء ليس حقيقتها. إذا عمّقت قليلًا، ترى أنّ ما كنت تؤمن به ليس إلّا سرابًا. وليس من السهل أن يشكّك الإنسان بما يؤمن به، وخاصّة حين تعمينا المشاعر.

دت أن موقف إخوتي سيكون كموقفي. لكنّي حين واجهتهم بالأمر جنّ جنونهم، وخاصّة أخي الأكبر. كان قاسيًا، بلا رحمة. قال: لم تبرد عظام أمّك في القبر بعد، وتريد تبرئة قاتلها؟

ن علم بحبّي لابنة البوّاب طردني من البيت. لكنّي، رغم اليأس، لم أتراجع. واجهت ي الّذي أصرّ على أنّ البوّاب هو من قتل أمي، فأقنعته بقصّة الشريك، فقبل سرًّا عن إخوتي. إلى أن انتهت تحقيقاته في سجن القاهرة، حيث اتّصل بي وطلب وافقة على دفع العشرين ألف دولار، مقابل الاعتراف وساعة الروليكس، ومن ثمّ ن ما حصل ومات المحامي ومعه الأدلّة.

بعد ذلك بأشهر، تزوّجت من عبير، فقالوا لي، قُتِلَت أمّك مرّتَين، يوم ضربها وحين تزوّجت ابنته. ثمّ أبعدوني عن العائلة وحرموني من كلّ شيء. خلال إحدى شرين سنة لم أرَ أيًّا منهم، ولا حتّى أولادهم. ووالد زوجتي ما زال في السجن. ومهما ، من وقت، فلن نتحرّر من ثقل هذه الفاجعة. في الأعياد والمناسبات والأفراح، هناك دائم، زوجتي من دون والدها، وأنا محروم من إخوتي.

ها أنت تأتينا بالوثائق والاعتراف. أيّ ملاك أنت؟ أيّ قوّة خير أرسلتك إلينا؟ لا تدري ما يعني ذلك لنا ولمظلوم قضى سنين بسبب جرم هو منه براء.

، منّي وقبّل رأسي، ثمّ عانقتني زوجته وامتزجت دموعها على عنقي بالعرق البارد ذي بلّل جسدي.

* * *

«الحقّ فوق الجميع، كان الشيخ نعيم يقول. لكنّ الحقّ بحاجة إلى أداة يظهر عبرها، فاسعَ أن تكون تلك الأداة. والحقّ لا بدّ أن يظهر، فكن معه وليس عليه.»

بدأ الأب نعمان برنامج تعليم ديني للأولاد، تحضيرًا لمناولتهم الأولى. أمّا أنا استدعاني إلى مكتبه، هناك عرّفني برجل متوسّط العمر، يعتمر عمامة، اسمه خ نعيم، رجل رصين، رأيت في عينَيه الزرقاوَين حنانًا وهدوءًا عميقًا.

كانت الحروب والمعارك قد توالت علينا، فودّعنا معها ساحة البرج والأسواق، لافًا من النّاس، الّذين اتّحدت في أجسادهم شظايا معدنيّة، من هدايا بأسماء روسيّة وأمريكيّة. بدأ الكلّ يُتقن تعبئة الرمال والانتظار في الصفوف، طلبًا للخبز والماء . وظهر على الأرض لون غنائي جديد، يشمل أسماء البنادق والأحزاب والسياسيّين،

ويُذاع بمكبّرات صوت متحرّكة.

وبدأت أيضًا تظهر على شاشاتنا أفلام رعب محلّية، بممثّلين بارعين وأدوار فظيعة، تدور أحداثها في مستشفيات وشوارع مقفرة، ومحلّات أبوابها نصف مرفوعة. فكنّا نرى صور النجوم على الجدران والمباني، فوق عناوين تتغيّر من فصل إلى آخر. وتَطوَّر الإخراج السينمائي سريعًا، ولم تعد هناك حاجة لاستعمال الكاتشب اللّون الأحمر، ولا الاستوديوهات للنار الحارقة، ولا بودرة التجميل للأعضاء المبتورة. صارت بيروت معروفة عالميًّا بفنّها الطبيعي، وقد أرسل العديد من الدول ممثّليهم للتخرّج في معاهدنا، فدفعوا أقساطًا ودعموا أعمالًا مسرحيّة ومسلسلات وأفلامًا. كلّها باسم الفنّ الجديد. فتغيّر اسم لبنان من سويسرا الشرق إلى هوليوود الشرق الأوسط.

كان الشيخ نعيم يأتي إلى بيروت الشرقية، كلّما سنحت له الظروف وفُتحت المعابر، فطلب منه الأب نعمان إعطائي دروسًا دينيّة. أخذ يقرأ لي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ويشرح التعاليم والعادات.

وذات يوم، علّمني أسماء الله الحسنى. قال لله مئة اسم، تسعة وتسعون اسمًا معروفًا، وواحد غير معلوم، سيكشفه المهدي عند مجيئه.

فسألته: هل للشيطان أيضًا مئة اسم؟

فقال لا. أعوذ بالله منه.

- من أين أتى؟

– هو ملاك ساقط، سمح له الله أن يتجوّل بيننا حتّى يوم الدين، وفي الآخرة سيرميه في نار جهنّم.

ثمّ استطرد: الله يأمر بالمحبّة والسماح والعدل، أمّا الشيطان فيريد الشرّ والحقد والانقسام.

فسألته:

– أين يسكن؟ في شرق بيروت أم غربها؟

– من؟

– الشيطان.

– ماذا! لا يا ابني، ليس الأمر هكذا. لمَ هذا السؤال؟

فقلت له:

- أظنّ أنّ الشيطان يسكن شرق بيروت وغربها.

* * *

مضى يومان. ثمّ فوجئتُ بمكالمة من الكاتب العدل.

أخذ الاعتراف إلى المدّعي العامّ، آملًا تبرئة والد زوجته، فاشترط عليه أمرَين. أوّلًا: ... ساعة الروليكس، إذ من دونها يبقى الاعتراف حبرًا على ورق، وخاصّة بسبب تبادل ... بين المعترِف وأصحاب العلاقة. وثانيًا: إسقاط حقّ من قبل كافّة المعنيّين، وعنى ... أهل الفقيدة، أي إخوته. من دون ذلك، عليه فتح القضيّة من جديد، ومقاضاة المتّهم لكي تَثبت براءته، فيضطرّ إلى معاينة كلّ الشهود والأدلّة، واستدعاء

صري للشهادة، وهذه عملية تتطلّب جهدًا ووقتًا طويلًا. سألني عن الساعة وطلب منّي بذل أقصى الجهود لمحاولة إيجادها.

إذًا، القصّة لم تنته حتّى مع الاعتراف، وإذ بالساعة هي مفتاح الحلّ.

بدأتُ مع متري بحثًا دقيقًا في مكتب الجمارك وخزائنه. كان الأمل بالعثور على ساعة، بعد مضيّ كلّ هذا الوقت، مستحيلًا. صار متري يراجع زملاءَه، علَّ أحدهم رأى أو سمع عن الساعة، لكن من دون جدوى. بحثنا أيضًا في غرفة الحجز، قلّبنا كافّة قائب والصناديق، وفتحنا كلّ الجوارير، فلم نصل إلى شيء.

ال متري: فلنبحث في الحقائب الباقية.

فتحنا الحقيبتَين الباقيتَين. كان في داخلهما، كالعادة، ثياب وحاجات... في إحداها وجدنا صورتَين بالأبيض والأسود، وكتابًا وكوفيّة سوداء. أمّا في الأخرى فوجدنا ة صغيرة، وحصانًا خشبيًّا. لفت نظري الحصان الخشبي الصغير، يقف فوق عجلات بألوانه البيضاء والزرقاء. لعبة ظريفة، لم أرَ مثيلًا لها منذ صغري. أمسكت سان بيدي ودفعته على المكتب أمامي، كان لا يزال في حالة جيّدة.

لم نجد ساعة اليد.

ا حاجات الحقيبتَين إلى مكانها، كان متري في صدد إرجاع الحصان الخشبي، لكنّي طلبت منه تركه على مكتبي. كان ظريفًا بألوانه.

فكّرنا في إعادة البحث في الحقيبة المعنية لكنّها لم تعد بحوزتنا، فقد ها إلى عائلة المحامي. رأيت أن لا بدّ من الاتّصال بالمحامي الابن.

ي المساء، حوالى الساعة الثامنة، جاءني اتّصال من نبال، سألتني عمّا تبيّن، فرويت لها الحكاية.

– يا إلهي. مثل قصص الأفلام.

– وأكثر.

ثمّ أخبرتها عن ساعة الروليكس وأهمّيّتها في اختتام القضيّة. مضى قرابة الساعة ونحن نتحدّث، أظهرَت اهتمامًا كبيرًا بالقصّة ونتائجها. ثمّ طلبَت منّي الاتّصال بها وإعلامها بالنتائج حالما أتوصّل إليها.

– لا يهمّ أيّ ساعة من الليل أو النهار. اتّصل بي. لا تنسَ.

معكِ أقدر على كلّ شيء إلّا النسيان، العينان الزرقاوان والشفتان المليئتان وذلك العطر...

اتّصلْتُ بالمحامي الابن، وأعلمته بالحاجة الملحّة إلى ساعة الروليكس، فأقرّ بأهمّيّتها من ناحية قانونية الاعتراف. ثمّ وعدني بإعادة البحث في الحقيبة وياتها. أوصلت له أيضًا كلمات الشكر الّتي حمَّلَنيها الكاتب العدل.

– كيف حاله؟

– جيّد.

– كنّا أصحابًا في صغرنا. أنا أحترم ما فعله من أجل البوّاب، وخاصّة زواجه من ابنته. كان صاحب حقّ، وقد كلّفه الالتزام بمبادئه غاليًا.

قلت للمحامي:

– لم ينسَ المبلغ المستوجب على عائلته.

– غير مهمّ. أتمنّى له التوفيق.
لم يجد ساعة اليد في محتويات الحقيبة. مزّق بطانتها علَّ والده خبّأ الساعة
خلها، ولكن من دون نتيجة.
اقشت مع متري الموضوع ولم يبقَ إلّا شيء واحد، سؤال صعب ولكنّه الأمل الأخير
يجاد الساعة. عاودت الاتّصال بالمحامي.
ذرك. هل يوجد أيّ احتمال أن والدك كان يحمل الساعة حين استشهد؟
– لا داعي للاعتذار. سأسأل الوالدة.
جاءني الجواب بعد قليل. لم يكن بحوزته ساعة يد.
كان ذلك بمثابة كارثة، خاصّة أنّ تبرئة والد عبير قد تأكّدت عبر ظهور الحقيقة.
صحّ قول: «الجهل نعمة». لم أتمكّن من تصوّر الفاجعة الّتي ستصيبهم إذا بقيت
الأحوال كما هي بعد معرفة الحقيقة.
ا أنا غارق في تفكيري، رنّ هاتفي من جديد. كان المحامي على الخطّ مجدّدًا.
إيهاب، اذهب إلى بيت والدتي، تريد أن تعطيك شيئًا.
– الساعة؟
- لست متأكّدًا. اذهب وسترى.
أعطتني الأمّ منديلًا صغيرًا، وجدت في داخله ثلاثة أجزاء حديديّة مكسوّة
بالسواد.
– ما هذه؟
– أظنّها ساعة اليد الّتي تبحث عنها.
- لم أقدر أن أتخيّل أنّ هذا الحطام كان فيما مضى ساعة يد. لكنّي رأيت أجزاء
صغيرة بشكل دوائر تعلو أطرافها أسنان.
- حين خرج من المستشفى أعطوني ثيابه في كيس بلاستيكي أصفر، وعلبة أحذية
وضعوا فيها محفظته وقلادة عنقه، وهذه القطع الحديدية. لا أدري لماذا احتفظت
ا حتّى اليوم. عندما اتّصل ابني، لم أتذكّر ساعة يد، لكنّي أردت التأكّد فأخرجت
أشياءَه وتفحّصتها. لم أدرِ حتّى اليوم أنّ هذه الأجزاء الحديدية هي بقايا ساعة يد...
ما يتذكّر الإنسان من الأوقات المفصلية: لون أغطية المستشفى، اسم الطبيب،
ائحة قليّة البصل قبل أن يرنّ الهاتف. الله يرحمه.
اعتذرْتُ منها لما سبّبْتُ لها من ألم.
قد أعطيتني سببًا كي أتخلّى عن أحد أشيائه. ربّما سيأتي اليوم الّذي أتخلّى فيه عن
باقي الأشياء.
لم أدرِ أكان عليّ أن أفرح أم أحزن، بقايا الساعة في يدي ولكن لأيّ نفع؟ في
ساء، قرّرت الاتّصال بنبال لأطلعها على المستجدّات.
– أرسلها إليّ.
– لماذا؟
– كي أبعث بها إلى أحد مشاغلنا. لكلّ ساعة روليكس رقم متسلسل يُحفر داخلها،
إذا تمكّنّا من قراءته وتطابَق والرقم الموجود على وثيقة الأدلّة، يكون ذلك كافيًا
لإدراج ساعة اليد كدليل قانوني.

تمّ كلّ شيء بسرعة البرق. أخذ سائق نبال الساعة إلى مشغل أحد الفروع، ثمّ أعادها إليّ بعد الظهر، مع شهادة رسميّة بختم شركة «برايت ستون»، مدوّن عليها نوع الساعة، تاريخ صنعها ورقمها المتسلسل.

ت الشهادة إلى الكاتب العدل وزوجته، فعمّت المنزل روح جديدة. جلس معنا بناتهما الثلاث وابنهما الصغير. وعندما أعلمتهم بمساعدة الآنسة نبال أشقر، حبة محلّات «برايت ستون»، في كشف تفاصيل الساعة، شهقت الفتيات لأنّهنّ ن عنها ورأين صورها، في المجلّات المحلّية والتلفاز. فأخذن يطرحن عليّ الأسئلة، ا أخجلني.

ي نهاية الزيارة، طلب منّي الكاتب العدل الحضور إلى اجتماع العائلة.

على ضوء الأدلّة الجديدة، وافق كافّة الإخوة على المصالحة وإسقاط الحقّ ضدّ وّاب. مرّت لحظات صعبة، قابلها الأخ الأكبر بصلابة، لكنّ إقرار المدّعي العامّ بثبوت راءة البوّاب ليّنت موقفه. أمّا الأخوات فكنّ أكثر تقبّلًا واستعدادًا، لنسيان الماضي وفتح صفحة جديدة.

فضّلتُ عدم التورّط في الموضوع لكنّه أصرّ، أراد منّي شرح التفاصيل حتّى لا يبقى شكّ في صدق القصّة وأحداثها.

* * *

ن، جاءني خبر مفاجئ من ألمانيا. كان البحث في ملفّات شركات البريد والطرود العالميّة قد عاد بنتيجة.

في ربيع سنة 1979 أرسل أبي طردًا إلى لبنان. وكانت التفاصيل كما يلي: رسالة وزنها سبعون غرامًا. نقطة الانطلاق زوريخ. نقطة الوصول لبنان.

يا إلهي! هذا اكتشاف مهمّ!

إلى أيّ عنوان أُرسلت الرسالة؟ لمَ لمْ يُشيروا إلى ذلك؟ والأهمّ، لمن أُرسلت؟

ذا يعني أنّه على الأقلّ كان حيًّا حتّى سنة 1979 أي أكثر بسنة ممّا اعتقدت من قبل.

ت برسالة إلكترونية، أسألهم عن عنوان الرسالة واسم الشخص الّذي أُرسلت إليه.

مّ ألصقت على اللوح المعلومة الجديدة بالقرب من إشارة سفره سنة 1978 من ألمانيا إلى فرنسا.

* * *

رّر اجتماع عائلة بدري في أحد الفنادق القريبة حيث حُجزت صالة للّقاء. كان المكان يعجّ بالأولاد، الّذين تخالطوا، غير عابئين بتاريخ أو أسباب انقطاع أهلهم عن اللقاء.

لزاوية البعيدة، جلس الكاتب العدل وزوجته قبالة الأخ الأكبر والأخوات.

برتُ القصّة بتفاصيلها. عن متري، والحقائب، ثمّ الوثائق والاجتماع بالمحامي الابن، ساعدة نبال. لم أبخل بشيء، وأجبت عن كلّ الأسئلة بصدق وشفافيّة. عند انتهائي من سرد الوقائع ساد الصمت. كأنّ كلًّا منهم ينتظر قيام الآخر بمبادرة المصالحة.

ي، هبّت إحدى الأخوات ورمت بنفسها على الكاتب العدل، ضمّته وطلبت منه ماح، ثمّ قبّلت زوجته وقالت لها: ظلمناك يا أختي وظلمنا والدك. أتت باقي الأخوات

نَ، إلى الأبد، كلّ ما في قلوبهنّ من حقد وألم سنين.
بعد ذلك وقف الأخ الأكبر.
نادى أولاده:
– سلّموا على عمّكم.
توجّه إلى الكاتب العدل:
- حصّتك من الميراث ستعود إليك.
– لا يهمّني ذلك.
وتعانقا.
عند انتهاء اللقاء تودّع الجميع بين السلام والقبل. وبين زعيق الأولاد وصراخ الأهل سيّاراتهم. رأيت ابن الكاتب العدل يلوّح لي من النافذة، وارتسمَت على وجهه ابتسامة بريئة.
صلت إلى شقّتي، كانت مظلمة بسبب التقنين الكهربائي الّذي فرضه شحّ الوقود. ضأت شمعة لأتبيّن معالم الغرفة. بحثت عن شيء أقرأه لكنّي لم أستطع التركيز. ت إلى الشرفة، فرأيت من بعيد أضواء بيروت وتخيّلت الإخوة مع عائلاتهم والفرح بد يملأ قلوبهم. واحد وعشرون عامًا من الحزن والفراق، انتهت اليوم. ما أجمل لقاء الأحبّة! غمرتني سعادة لكنّها لم تدم...

* * *

د يومَين قرأت في الصفحة الأولى من جريدة الصباح: «بريء يقضي واحدًا وعشرين ي سجن روميه». وصورة على أبواب السجن، رأيت فيها حشد الأهل والأولاد وعناق جة الكاتب العدل لأبيها. تطرّق المقال إلى تفاصيل الحقيبة، واحتوائها على أدلّة تبرئة المحكوم، ووجودها في حجز المطار منذ 1984. وتكلّم المقال عن وجوب الأمل حتّى في مثل أوقاتنا، وأنّ لبنان قد يخرج بدوره من سجنه بإرادة وشجاعة أبنائه.
ت الجرائد تغطّي يوميًّا تحرّكات الشارع، والتظاهرات الّتي أعقبت اغتيال رئيس الوزراء. وبعد كبت أعوام، بدأ يظهر في الصحافة نفسٌ تحرّري. تراجع الخوف ، بسبب الروح الجديدة الّتي غمرت الكثيرين. كتب الصحافي ملحم شمّاس المقال، شكرني بالاسم في ختام مقاله. لأوّل مرّة أقرأ اسمي في الجريدة.
كان حسن ومتري بانتظاري، والجريدة بين أيديهما.
– عزّام راح يموت، قال حسن.
– بعيد الشرّ! أجابه متري مازحًا.
نظر إليّ متري نظرة فهمْت فحواها. ما فعلناه كان أكبر من عزّام ولؤمه، وأكبر بكثير من شعورنا بالرضى لتحقيق شيء مهمّ. لقد حرّرنا رجلًا بريئًا من سجنه، وجمعنا شمل عائلة شتّتها الظلم والحرب.
ثمّ وصلتني رسالة خليوي قصيرة من نبال.
- مبروك إيهاب... أصبحتَ مشهورًا :–)
– شكرًا لكِ.
– حلوة الشهرة؟

– لا أعلم. أنتِ الخبيرة.

وفيما أنا بانتظار ردّها، تلقّيت اتّصالًا من الرقيب عزّام. فوجئت بسماع صوته.

– المدير عايزك.

– ما الأمر؟

– تفضّل إلى مكتبه في الساعة الواحدة.

أيت الجريدة على مكتبه، أمّا هو فكان منكبًّا على كتابة محضر.

أبقاني منتظرًا ما قارب العشر دقائق.

– الأستاذ إيهاب علّام. قالها باستهزاء ورفع رأسه. اسمك صار بالجرائد، يا كبير أنتَ. بتعرف أنت مثل برد شباط، مهما يلبس الواحد بضلّ يشعر بقرص

كيف حصلتَ على الحقيبة، ومن أين عرفَت الجريدة بقصّتك؟

لم يفاجئني سؤاله، لا بدّ أنّه أحسّ بأنّ مقال الجريدة فرصة فاتته. لم نرث للبوّاب أو العائلة، إنّما أزعجه الموضوع من ناحيتَين: الأولى بسبب تحقيقي شيئًا يُذكر، والثانية ذكر اسمي في الجريدة بدل اسمه. أوجزت له خبر الحقيبة والأدلّة باختصار شديد. حمل الجريدة بين يدَيه.

– «سيخرج لبنان من سجنه بإرادة وشجاعة أبنائه» شو هالمسخرة! أرسلتك قسم الجمارك حتّى لا أسمع باسمك، أريدك مثل القصب لا ظلّ لك.

– من مسؤوليّتنا إعادة الحقائب لأصحابها.

– مسؤوليّتك أن تفعل ما آمرك به. اغرب عن وجهي ولا تدعني أسمع اسمك بعد اليوم.

لم يكن يبدو عليه أنّه عالم بباقي الحقائب.

إلى متري وحسن، وأطلعتهما على ما حصل.

– الله يبعتله ترقية.

ضحكنا.

الفصل السادس

في منتهى الفقر. حقيبة مدروزة في عدّة أمكنة. وضع متري المحتويات على الطاولة أمامنا: ثياب رثّة، كوفيّة سوداء، صورتان فوتوغرافيّتان بالأبيض والأسود، ت ممزّقة من كتاب عربي من دون غلاف.

– هذا كلّ شيء؟ سألت متري.

– نعم. تاريخ حجزها 1982.

– هذه الحقيبة تستحقّ صندوقًا من الدخان وليس «كروزًا» واحدًا، قلت له.

صت جيوب الثياب. كانت خالية. قلّبت صفحات الكتاب، لم أجد شيئًا، حتّى السعر أو ل الشراء. بقيَت أمامي الصورتان. كانتا قديمتَين جدًّا، وإطاراهما خشبيَّين سميكَين. هر في الأولى عن بعد شابّان في زيّ رسميّ بأكتاف مرفوعة ونصف قبّات، وأزرار يضة مدروزة على امتداد الجاكيت. على رأس كلّ منهما قبّعة سميكة تشبه قبّعات قي القطارات. وجلسا إلى طاولة خارجية في مقهى.

ا الصورة الثانية، فالتُقطت عن قرب، لشابّ يرتدي زيًّا مشابهًا لزيّ الشخصَين في الصورة الأولى. كان واقفًا أمام بوّابة واسعة، تتخلّلها أشكال عموديّة ظريفة، أنّها مدخل محلّات أو صالة عرض.

ت داخل الحقيبة وفي جيوبها. كانت خالية هي الأخرى.

– إذًا، ليس لدينا سوى الصورتين.

رجتهما من إطارَيهما، فلم أجد أيّ كتابات عليهما. تفحّصت خشب الإطارَين، فرأيت لوحة معدنيّة صغيرة مسمّرة على كلّ منهما، محفور عليها:

Studio Jaffa – Alfred Blake & Sons Est. 1924

استوديو جافا – لصاحبه ألفريد بليك وأبنائه. تأسّس سنة 1924.

أخذت دليل الهاتف واتّصلت بعدد من استوديوهات بيروت. لم يسمع أحد باستوديو جافا أو بألفريد بليك. وكالعادة، بدأت البحث في الإنترنت.

إصابات كثيرة...

ألفريد بليك اسم إنكليزي شائع، ولكن لا شيء عن الاستوديو. حوّلت بحثي لسنة 1924 استوديوهات تأسّست في ذلك العام لكن من دون نتيجة. أمضيت حوالى نصف

ساعة في القراءة والبحث.

جاء حسن. شربنا القهوة، سألني عن الحقيبة ومحتوياتها. ثمّ تفحّص الصورتَين.

بدأ كعادته بإخباري عن تفاصيل فيلم سينمائي شاهده، ثمّ سألني:

– يا ترى ماذا حلَّ بالبرنامج التلفزيوني «نابغة العرب»؟

– أيّ برنامج؟

– «نابغة العرب». برنامج تلفزيوني على نسق سوبر ستار أو ما شابه، مجموعة شباب من بلدان عربية مختلفة... ألا تذكر يوم انطلقت المجموعة من المطار؟

– متى؟

– منذ عدّة أشهر.

– لا أذكر.

ضحك حسن:

– صحيح كنت مشغولًا يومها.

– بماذا؟

- بضرب مهرّب المخدّرات.

ت مهرّب المخدّرات، كان أوّل المهرّبين الّذين قبضت عليهم. ولكنّي لم أذكر برنامج التلفزيوني.

جأة انتبه حسن للحصان الخشبي على مكتبي فسألني:

– هذا أيضًا يخصّ الحقيبة؟

– لا هذا من حقيبة 1975.

أمسكه حسن ثمّ دفعه فوق عجلاته ذهابًا وإيابًا.

– هذا حصان أوتوماتيكي.

– ماذا تعني؟ سألته.

– أنظر.

لفتَتْ نظري فتحة صغيرة في جانب الحصان تظهر فيها سنّ سداسية.

ثمّ قال:

– تُدخل مفتاحًا هنا وتُدير السنّ، ثمّ تُفلت المفتاح، فتدور العجلات تلقائيًّا. هل جدت مفتاحه؟

– لا. سوف أسال متري عنه.

صرف حسن إلى مكتبه، فعدت بأفكاري إلى أدلّة الحقيبة.

خذت أوراق الكتاب وقرأت بعض صفحاته.

القصّة تتناول ثلاثة رجال، اختبأوا في صهريج ماء في شمس الصيف الحارّة، م في طريقهم إلى الكويت. يعترض السائق أحد عناصر حاجز الحدود بمزاح ثقيل، يتأخّر عن الرجوع إلى الصهريج، ممّا يتسبّب باختناق الرجال داخله.

لم أقرأ تلك القصّة من قبل.

اتّصلت بالكاتب الياس بشارة الّذي سُرّ لسماع صوتي، وسألته عنها. فعرفها للتوّ.

واية «رجال في الشمس» للكاتب الفلسطيني غسّان كنفاني، من أشهر قصصه. ىرت في الستّينيّات.

في المساء، خلال النشرة الإخبارية، رأيت في فقرة الأخبار المتفرّقة طلبًا من دولة ىرائيل للحكومة اللبنانية، للسماح لفريق من العلماء الأوروبيين بالتحرّي في إحدى ى الجنوبية عن معبد يهوديّ قديم، يعود، حسب تقديرهم، إلى القرن الميلادي الأوّل، يحتوي على مخطوطات تسلّط الضوء على أحداث تلك الفترة...

في الخبر الثاني، رأيت لقطات من حفل جمع تبرّعات للأطفال في بيروت، حيث عرض لوحات ورسومات لتلامذة مدارس المخيّمات الفلسطينيّة، وتباع بطريقة ىاد العلني، ويعود الريع إلى مؤسّسات خيرية.

ىهرت نبال وفي حضنها طفلة. ركّزَت الكاميرا عليها، فبدت خجولة وراء الطفلة، ان الصحافيّون يطرحون عليها أسئلة لا تمتّ إلى الحفل بصلة. كانت كالمغناطيس ذب الناس والصحافيّين، غموضها وخجلها جعلا منها موضوعًا يستهوي مجلّات لنساء وبرامج المشاهير.

وبينما أنا جالس أستمتع بمشاهدتها، تذكّرت أنّ معظم الاستوديوهات، في دليل الهاتف، كانت مسمّاة إمّا باسم أصحابها، وإمّا باسم المناطق الّتي تتواجد فيها. مثل استوديو حمّود أو استوديو الروشة واستوديو بيروت. ربّما استوديو جافا سُمّي باسم منطقة جافا، لكنّي لم أسمع بها من قبل... بالرغم من أنّ الاسم لا يبدو ريبًا عنّي.

ىرعت أبحث في الإنترنت...

اكتشفت سريعًا أنّ جافا هو الاسم الإنكليزي لمدينة يافا الفلسطينية.

ت مكبّر النظر لأرى معالم الصورتَين بوضوح أكثر. ركّزت على وجهَي الشابَّين في مقهى، فاتّضح لي أنّ معالم وجه أحدهما تتطابق مع معالم وجه الشخص الواقف وحيدًا في الصورة الثانية.

إذًا هو الشخص نفسه في الصورتَين، بدا وكأنّه لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره.

تلخّصت معلوماتي كما يلي: لا بدّ أنّ الصور أُخذت في مدينة يافا، والشابّ الّذي يظهر في الصورتَين، قد يكون صاحب الحقيبة أو على الأقلّ له صلة بصاحبها. ومات قليلة جدًّا! رأيت أنّي بحاجة إلى من يعرف يافا جيّدًا للتأكّد من استنتاجي. ىكّ أنّ نبال، وبسبب عملها مع المؤسّسات الخيرية، تعرف مسؤولين من هيئات فلسطينية. فاتّصلت بها.

جهازها الخليوي لكن من دون جواب.

تفحّصْتُ الساعة. كانت العاشرة ليلًا. لعلّها نائمة.

لكن بعد دقائق رنّ هاتفي.

– مساء الخير إيهاب.

– هل أزعجتكِ؟

– لا، أبدًا.

– رأيتكِ على التلفاز.

- يا جرصتي! لا أحبّ أن أرى نفسي، لا على التلفاز ولا في المجلّات. لا تناسبني الصور أبدًا!
ت أن أقول إنّها مخطئة جدًّا، وإنّ الوسائل المرئية والمسموعة والمكتوبة بمجملها تناسبها، لكنّي امتنعت، وقلت لها بصوت جدّيّ:
– على الأقلّ شخصيّتك جميلة. ممّا يعوّض...
سكتَت للحظة. ثمّ انتبهَت لمزاحي.
ير معقول. الرقيب إيهاب قادر على غير الجدّ!
ثمّ ضحكَت، وسألتني:
– ماذا يقلقكَ؟
– لمَ تعتقدين أنّ شيئًا يقلقني؟
إنّها العاشرة، ولست من النوع الّذي يحبّ الدردشة.
حيح... أردت أن أسألك عن مسؤولي الهيئات الفلسطينيّة في بيروت.
ثمّ أطلعتها على الحقيبة ومحتوياتها، وأضفْتُ:
- لن يمكنني النوم بدون أن أعلم الخطوة التالية. أكره الفشل.
– هذه نقطة ضعفكَ؟
– ماذا؟
– الفشل!
– نعم، قلت متردّدًا.
– هذه نقطة ضعفكَ الوحيدة؟
أردت أن أُنبئها بنقطة ضعفي الجديدة، لكنّي أجبتها:
– نعم.
– حسنًا. سأقوم ببعض الاتّصالات في الغد ثمّ أعلمك.
لم أرد إنهاء الحديث بهذه السرعة فسألتها:
– نبال، ما هي نقطة ضعفكِ أنتِ؟
– أنا! لمَ تريد معرفة نقطة ضعفي؟
– لأنّي أعرف نقاط قوّتك.
– نقاط؟ بالجمع؟
سمعت في صوتها لحن ابتسامة، وأكملَت:
– وما هي برأيك هذه النقاط؟
– لا تتهرّبي من السؤال.
– إنْ قُلت لكَ نقطة ضعفي، تقول لي ما هي نقاط قوّتي.
– نعم هذا وعد.
– أخشى أن لا أهمّيّة لي. هذه نقطة ضعفي.
معقول! أنت؟ مع كلّ شهرتك وأعمالك الخيرية والمساعدات؟
– بالضبط. لذا أقوم بكلّ هذه الأعمال، أريد أن أحدِث تغييرًا إيجابيًّا حولي. بدأت هذه الأعمال بجدّيّة بعدما تُوفّي أبي. عند موته انقطعْتُ عن العالم. فارقتني بهجة ياة ونبضها. شعرت بأن لا أهمّية لشيء في الدنيا، فأصابني الاكتئاب. وصرت أعرف

مكوّناته. هو نوع من الحزن الملازم، معه، لا يقدر شيء أن يفرحك. ربّما تُسعَد
كّر، ولكن لا شيء في الحاضر أو المستقبل. هذا هو الاكتئاب. طفولتي وأبي وكلّ ما
، تعود إلى ذاكرتي. وددت لو أعود إلى الوراء وأبقى هناك. أصبح حاضري هو العيش
ي الماضي، فرحت أتخيّل الأيّام الّتي مضت، بأحداثها وأمكنتها، فأستمدّ منها مشاعر،
ا من الغشّ في الحياة. والأسوأ كان شعوري بأنّي غير ذات أهمّيّة، ولا معنى
دي. كان أبي دومًا يقول لي: «اخرُجي من نفسك تجديها». وهكذا فعلت. خرجت من
ي إلى عالم العطاء والمساعدة والتضحية، فوجدت نفسي في أعمالي. وهكذا
بحت حين أعطي، آخذ لنفسي، لا مادّيات ولا شهرة ولا شيئًا ملموسًا، بل معنى
فقط.

ت كلماتها عبر أذني إلى مكان في داخلي. لكِ عمق مثل البئر يا نبال. مثل نبع من
، الأرض. لا يخرج منك إلّا الصفاء والانتعاش. حُسْنك أطفأ ظمأي، وأخمد النّار الّتي
ي منذ زمن. ولكن رغم أنّ صوتك ملتصق بأذني، ورغم أنّ رنّته أوقفت الوقت
رات جسدي معًا، وذكرى رائحتك الملائكيّة ترفعني عن فراشي، إلّا أنّ مسافة
سعة ما زالت تفصلنا، ومساعي وآمالًا قديمة في حياتي، بقيَت تترأس الصفّ عندي
وتدفع بي إلى الأمام.

– والآن دوركَ، ما هي نقاط قوّتي؟ سألَتني بحماسة.

– حسنًا، سأخبرك بواحدة الآن وهي الأهمّ بالنسبة إليّ.

– هيّا، إنّي أستمع.

– أهمّ نقطة قوّة عندك أنّه لا يمكنني استيعاب فهمِكِ.

– ماذا تقصد؟

– عادة أضع الناس في خانات معيّنة وثابتة، أحكم عليهم بذكائهم ومعلوماتهم
زهم، أمّا معك فكأنّي طفل من جديد، في عيد ميلادي، وأمامي هدايا عدّة. مع كلّ
هديّة أرى شيئًا جديدًا فأفاجَأ به وتزيد فرحتي، وبشوق أنتظر الهديّة التالية.

ساد صمت. شعرت بأنّها فوجئت بما قلت، فكلّ ما سبق من كلام بيننا، وحتّى
ه اللحظة، كان بعيدًا عن الخصوصيّات، ورغم أنّها أخبرتني ببعض أمورها، لكنّ أيًّا
منّا لم يبادل الآخر أيّ كلمات تحمل مشاعر معبّرة.

إيهاب... هذا أجمل شيء قاله لي إنسان.

* * *

خرجْت إلى مركز مؤسّسة «بيوتنا» الفلسطينيّة، لمقابلة عميدها.

ت لي نبال أنّه الخيار المنطقي للسؤال عن الصور. لأنّ المؤسّسة تحتوي على
ومات، شفويّة ومدوّنة، عن ذكريات النكبة وما قبلها، من شهود أحياء وأموات،
لإضافة إلى صور ووثائق وإلى ما هنالك.

أعطيت عميد المؤسّسة صورة الشابَّين فأخذها بين يدَيه وتفحّصها.

– فعلًا، إنّهما في مقهى.

– أعتقد أنّ المقهى موجود في مدينة يافا.

أخبرته عن استوديو يافا.

– لا شيء يدلّ على ذلك في معالم الصورة.
فقلت له:
- هذا الشابّ ظاهر في الصورتَين.
تمعّن العميد في الصورة الثانية.
– هذا غريب.
– ماذا؟
– البوّابة خلفه. أظنّني رأيتها من قبل.
– أين؟ سألته مستغربًا.
فكّر ثم أخرج عدّة ألبومات تحتوي على صورٍ قديمة، وراح يدقّق فيها.
– أين... أين يا ربّي رأيتها؟
هرع إلى شاشة الكمبيوتر، فتح صفحة موقع «فلسطين بالذاكرة» وأخذ ينظر ى الصور المنشورة عن يافا.
وصل إلى صورة بانورامية لمبنى، أمامه بعض الأشخاص، وشكله مميّز كأنّه صالة عرض أو ما شابه.
في منتصف أعلاه عُلِّقت ساعة حائط، وتحتها صورة ملصقة تمتدّ على مساحة سعة من المبنى، لرجل وراء قضبان.
– انظر!
– ماذا؟
– بوّابة المدخل.
– إنّه نفس شكل البوّابة الّتي في الصورة.
– ما هذا المبنى؟ سألته.
– هذه سينما «الحمرا» في مدينة يافا، شارع جمال باشا.
– معقول؟
– نعم. أنا أكيد. ممّا يفسّر الزيّ الرسمي للشابَّين، لا بدّ أنّهما كانا يعملان في السينما.
– ربّما أنت على حقّ. قلت له باندفاع.
ثر من ذلك، أظنّني الآن أعرف مكان الصورة الثانية.
قلّب الصور المنشورة في الموقع من جديد، فاستقرّ على صورة مبنى آخر. كان هذا مبنى مؤلّفًا من أربع طبقات، تكثر الشبابيك في طبقاته الثلاث العليا كأنّها شقق أو ب، أمّا الطبقة السفلى فكانت مقسومة إلى محلّات ومقاهٍ، أمامها نافورة ماء تلتفّ الطريق حولها.
- هذا كان مبنى البلديّة. أترى هذا؟
أشار إلى جهة من الطبقة الأرضيّة تحجبها خيم شمسيّة.
– هذا مقهى الحلواني.
أتعتقد أنّ الصورة أُخذت هناك؟
– أظنّ نعم. المقهى قريب جدًّا من السينما. ها... انظر. برج السينما.
ار إلى أسفل الصورة الشمالي وأكمل:

– تكاد ترى حرف A، أوّل حرف من يافطة السينما المعلّقة عموديًّا.
ك على حقّ. أيّ فكرة عن الأشخاص داخل الصور؟
هزّ برأسه.
– لا.
– ما العمل إذًا؟
– أعرف رجلًا كان يعمل أيّام شبابه في المقهى، قبل النكسة أكيد... وقد دوّنّا
كرياته في أرشيف المؤسّسة.
– أين هو؟
– في مخيّم للّاجئين في بيروت.

* * *

كان الرجل هرمًا يناهز التسعين. يرتدي زيًّا عربيًّا قديمًا، وفي يده سيجارة لفّ. فقدَ
ّ أسنانه الأماميّة، سماره حالك ورجلاه طويلتان. وجدْته جالسًا على كرسيّ خارج
منزله.
ب بي. وبعد أن أوضحت له مبتغاي أخذ الصور بين يدَيه. عرف المقهى حالًا من
الصورة.
– نعم هذا مقهى الحلواني، هذه طاولاته وستائره.
أمّا الشبّان في المقهى فلم يتعرّف إليهم، لأنّ الوجوه كانت بعيدة بحيث لا
يستطيع التمييز بينها.
أخذ الصورة الثانية، حيث الوجه قريب. تأمّلها لفترة.
- ويلاه! هذا صديقي وحبيبي أبو رامي!
أدنى الصورة من وجهه وقبّلها.
– عُمر يا أبو رامي. عُمر.
– أكنتما تعملان سويّة؟ سألته.
لا. أنا كنت أعمل نادلًا في المقهى، أمّا أبو رامي فكان يعمل على شبّاك التذاكر في
السينما.
– كنتما صديقَين إذًا؟
– نعم. أكيد. وعملنا معًا قبل ذلك، كنّا في الثامنة أو التاسعة من عمرنا، عملنا في
شركة «برتقال يافا». كنّا نعلِّب البرتقال ونبيعه إلى أوروبا وخاصّة إنكلترا. من الفجر
ى النجر. كلّ الأولاد من حولنا يلعبون، باستثنائي أنا وأبي رامي، بقينا نعمل في
ليمون ونتحسّر.
لوى رأسه وضحك.
– تأتي الشاحنات وتفرّغ حمولتها في ساحة المعمل. لكلٍّ مسؤوليّته، يبدأون
بتوضيب حبّات البرتقال حسب أحجامها، صغيرة ومتوسّطة وكبيرة. بعدها تمرّ
للتنظيف. بخرَق مبلّلة يُمسح عنها التراب والغبار، ثم تُجفّف بمناديل قطنيّة.
صل الحبّات الكبيرة إلى أمامي وأمام أبي رامي. نجلس القرفصاء على الحصر، نلفّ
كلّ حبّة بورقة بيضاء. نوضّب الحبّات الكبيرة فقط، الصغيرة والمتوسّطة تباع

لاستهلاك المحلّي. وحين يبطئ أحد منّا، أو تغمض عينه من النعاس، يسمطه مصَنْدِق بقضيب خيزران.

– المصندِق؟

– نعم المصندق. الّذي يضع الليمون بالصناديق، صناديق St Peter.

– St Peter ؟ سألته.

– اسم ماركة مشهورة يومها. والله لحدّ اليوم، لمّا أمرض وتصيبني حُمّى أو حرارة، بحلم بالليمون. كابوس يصيبني. ألف حبّة لازم صندقْها، وكلّ ما قرّب خلِّص، ني كميون جديد. كميون وراء كميون. ليمون وراء ليمون. فوقي وتحتي، وما بعرف خلّص. الله يمحيك يا ليمون. هيك لمّا يجيني الكابوس، بعرف بأنّي سأمرض، ولليوم ما آكله.

– عفاك! تتذكّر كلّ التفاصيل، قلت له بإعجاب.

– ومن أين أنساك يا ليمون، ومع كلّ عصّة غصّة، وكلّ غفوة سمُّوط؟

أضحكني جدًّا قوله.

– كانت دنيا غير دنيا. الله يرحمك يا أبو رامي.

– تُوفّي؟ سألته بخيبة.

– بأوّل السبعينيّات. قتلوه عطريق الضبيّه. رحنا جبناه بسيّارة أجرة. نعم. مثل ما عم قلّك، سيّارة مرسيدس تاكسي دفعنا له مبلغًا مقطوعًا. لفيّناه المسكين بحرامات الأونروا، مدّدناه بالمقعد الخلفي. كنّا ثلاثة والسائق أربعة، فلم يسعنا لمقعد الأمامي. عدنا أجلسناه، وركب واحد جنبه هدّاه، ورحنا فيه وهو قاعد.

– له عائلة أو أقارب؟

– أولاده كلّهم ماتوا واختفوا، منهم بحرب، منهم بقصف، بعرف مراتو بعدها ليّبة، هون بلبنان، بسّ وين الله أعلم.

* * *

ُ إلى مؤسّسة «بيوتنا» الفلسطينية، أخبرت العميد بما وجدتُ، تكفّل بالبحث عن جة في ملفّات المؤسّسة، للحصول على مكان إقامتها.

رت نبال قصّة الليمون، والكابوس، فضحكت وأجبرتني على إعادة روايتها أكثر من مرّة...

– مع كلّ غفوة سمّوط! قالت وهي تضحك.

مرّ يومان من دون أن أسمع شيئًا من عميد المؤسّسة.

قال متري:

– اتّصل به. لن تخسر شيئًا.

ا إن فعلت حتّى أخبرني أنّه يواجه صعوبة في تحديد مكان أمّ رامي. وجد معاملات لها تعود إلى سنة 1986، من ثمّ كأنّها اختفت عن وجه الأرض. وهو بصدد الاتّصال المؤسّسات، للبحث في ملفّاتهم عن معاملات أو معلومات تفضي إلى مكانها.

أخبرْت متري فقال: حسنًا، لننتظر جوابه.

ـأة، تذكّرت الحصان الخشبي والسنّ السداسية الّتي انتبه إليها حسن.
– متري، هل وجدت مفتاحًا سداسيًّا صغيرًا في الحقيبة؟
ورويتُ له ما اكتشفه حسن بصدد الحصان.
– لا. لكنّي سألقي نظرة ثانية.
في اليوم التالي اتّصل بي عميد المؤسّسة الفلسطينية. قال: وجدناها، بعد صعوبات جمّة. السبب يعود إلى تبدّل في اسم عائلتها سنة 1986 من عائلة زوجها إلى اسم ئلتها الأصلي. وهي تسكن في مخيّم نهر البارد في الشمال.
ـلْت إلى المخيّم بعد الظهر. أوقفْت سيّارتي في أحد الشوارع الرئيسية. رأيت ـنودًا مسلّحًا داخل المخيّم. بدا وكأنّه منفصل عن باقي الأمكنة وخارج الزمن. جزُر ـسمّى المخيّمات... مشيت بين البيوت المتقاربة، قفزت على حجارة الطرق لتفادي الماء الموحلة، أحنيت رأسي لتجنّب الأشرطة الكهربائية المتدلّية كخيوط عنكبوت ـلاد آدميّين، مررت أمام دكّان صغير، فسألت عن أمّ رامي:
الشارع الثالث إلى اليمين.
ـلْت إلى منزلها وقرعْت الباب، ففتحَت لي امرأة يافعة.
ـنّي أبحث عن أمّ رامي. قلت لها.
– الطبقة السفلية.
نظرْتُ حولي فلم أرَ طبقة سفليّة. أشارَت إلى فوهة تحت الطريق بدرجتَين.
– هناك؟ سألتها.
هزّت رأسها، أي نعم. تقدّمْت نحو الفتحة. صرخْت باسم أمّ رامي، فجاءني جواب ـن الأسفل.
– يا أهلا... تفضّل.
ـرجتَين. أحنَيت رأسي ثمّ وضعْت رجْلًا داخل البيت، وأنا أتّكئ بيدي على حائط ـدخل، ثمّ أدخلت رأسي وأتبعته بباقي جسدي.
– أمّ رامي؟
– نعم... يا أهلا.
بحثْت عنها في الغرفة، كانت عيناي لم تعتادا على الظلمة بعد.
– هنا، هنا تفضّل اجلس. هنا.
أخذْت كرسيًّا وجلسْت.
كانت ممدّدة أمامي على فراش من إسفنج، ووراءها أغطية ملفوفة تسند ظهرها. الرطوبة تعمّ المكان.
ـأتْ عيناي تعتادان على الضوء الخافت، فجبت بنظري أرجاء الغرفة. رأيت بعض ـق المعدنية في سطل، وحاجات مطبخيّة أخرى ملقاة على الأرض. بحثت عن مفتاح فلم أجده، فطنت إلى أنّ السقف كان خاليًا من أيّ إمداد كهربائي.
– يا أمّ رامي... وجدنا حقيبة في حجز المطار، نعتقد أنّها تخصّك أو تخصّ أحد ـفراد عائلتك.
يا ابني، زوجي وأولادي استشهدوا منذ زمن، والصغير اختفى من عشرات السنين، ومن الجائز أن تكون مخطئًا بأمّ رامي ثانية.

– لا، أنا متأكّد من ذلك.
ي استشهد أوائل السبعينيّات، وابني البكر خلال عمليّة على الحدود، وأخواه الاثنان دما قصفت إسرائيل مخيّم تدريب في البقاع. والصغير اختفى سنة 1982 . وأنا كما ى أنتظر السفرة الأخيرة، فمن غير ممكن أن تخصّني الحقيبة.
قالتها بحزن وابتسمَت.
– الحقيبة في حجز المطار منذ سنة 1982.
– أوف!
أعطيتها الصورتَين، أمسكتهما، تأمّلت فيهما، عصرتهما على صدرها ثمّ بدأت رخ وتولول، وتميل بجسدها ذات اليمين وذات اليسار.
– يا أبو رامي يا شيخ الشباب... يا حبيبي... يا بيّ ولادي... الله يرحمك ويرحم عجانب الطريق رميوك... عجانب الطريق... ومثل الغريب نسيوك...
فاجأني انفعالها، لكنّي أحسست بفاجعتها. راحت ترثيه بصوت عال.
– لا كلمة آنستك... ولا يد مسكتك... ولا كبّاية روتك... ولا محرمة دمَّعتك... ولا آية ... ولا أكتاف حِملتك... ولا زهور جمّلتك... ولا ميّ غسّلتك... ولا عائلة أحاطتك... ولا زغاريد زفّتك... يا أبو رامي يا شيخ الشباب.
تصرخ وتعيد كلماتها ودموعها تنهمر، كأنّ الصورتَين أعادتا إليها ذكرى خالتْها همًا وليس حقيقة.
تجمّع الناس عند مدخل الغرفة ودخلت الجارة علينا. أخذَت تهدّئها. لكنّها أكملت صراخها وبكاءها وأعادت تلاوة كلماتها، كأنّ سدًّا انفجر وأفرغ محتواه.
ت لي الجارة معاناة أمّ رامي، كيف أنّها فقدت كلّ عائلتها، وهي، منذ سنتَين، طريحة الفراش بسبب ديسك في الظهر. لم يبقَ لها لا ولد ولا عائلة ولا صديق، ن المساعدات والهبات والإعاشات. سألتني الجارة عن هدف زيارتي، فأجبتها.
قالت الجارة :
– يا أمّ رامي، هل سافر أحد من أهلك حينها؟
نعم. ابني الصغير، قبل الاجتياح الإسرائيلي بأيّام، ذهب إلى السويد. كان دومًا ينوي ثأر لإخوته وأبيه. أراد الانضمام إلى المقاومة، فكنت أقنعه بالسفر، خفت عليه. قلت له لم يبقَ غيرك، من بعدك تنتهي سلالة أبيك. تمنّيت له السفر إلى أيّ مكان بعيد رب وعن إسرائيل. فكان يقول لي: إذا سافرت ففي أي جامع سأصلّي؟ أقول له: كلّ بلاد العالم فيها جوامع فما معنى هذا بالذات؟ يقول لي: لأنّه قريب من الّذين حبّهم. كان ذكيًّا... قصدني وقصد فلسطين.
سكتَت ولوَت رأسها.
– هل هذه أغراضه؟
– الصور نعم أكيد. قلت له خذ صور أبيك، آخر ذكرى لنا عن أرضنا.
ثمّ قلت لها إنّ الكتاب هو رواية لغسّان كنفاني.
– كان يحبّ القراءة وخاصّة للشهيد غسّان.
سألتها:
– أين ابنك؟

غصَّت.
لم أسمع أخباره منذ ذلك اليوم، ذهب إلى السويد ونسيني...
– يا أمّ رامي، لا أظنّه غادر لبنان.
عبسَت.
– غير معقول.
– لم يسافر لا هو ولا الحقيبة.
- أين ذهب إذًا؟
لم أستطع الإجابة.
قي شيء واحد أردت السؤال عنه.
غيّرت اسم عائلتك، من اسم زوجك إلى اسمك الأصلي؟
– من أجل «الإعاشة»...
رأت أنّي لم أفهم قصدها.
بما أنّ ابني ما زال على قيد الحياة، يعتبرون أنّ لي معيلًا، حتّى لو كان مفقودًا... ؤني بأن أبدّل اسم عائلتي، وهكذا، أصبح عزباء من دون مُعيل، فأتلقّى مساعدات أكبر.
تركْت الحقيبة ووعدتها بمحاولة معرفة ما حلّ بابنها.
عميد المؤسّسة، وطلبت منه المساعدة في البحث عن ابن أمّ رامي. ثمّ اتّصلت ل وأطلعتها على قصّة أمّ رامي، وصفت لها حالة الفقر والمرض الّتي تعيشها، قلت نّي لا أصدّق أنّ أحدًا في عصرنا يعيش هذا الفقر، وكيف أنّ أمّ رامي بدون ولد أو وهي عاجزة إلى درجة الهلاك. وصفْت لها حالة الغرفة وأدوات المطبخ البدائية رطوبة، لعنْت الحرب والتشرّد والألم.
ة أمّ رامي هي آخر الدنيا، قلت لنبال. درجتان وفتحة، فجهنّم. أين الناس؟ أين العالم؟ من يطعمها؟ من يسقيها؟ من يُشعرها بحبّ أو حنان؟ كانت أمًّا وزوجة، أمّا الآن فليست إلّا كسيحة، نفسها منسحقة، يأتيها الضوء من فتحة ومعه بعض لأصوات، وما تبقّى ظلام في ظلام.
إيهاب هل أنتَ على ما يرام؟
– نعم.
– أراك كثير التأثّر بقصّة أمّ رامي.
– إنّها قصّة مؤثّرة جدًّا.
– نعم أكيد... لكنّ شيئًا فيها أثّر بك أكثر من باقي الحقائب.
– نعم.
– أخبرني!
– لا شيء.
ؤال نبال جعلني أسائل نفسي. نعم، قصّة أمّ رامي أثّرت بي أكثر من القصص لأخرى.
- إيهاب أخبرني.
تردّدت لحظة.

– أنا وأمّ رامي في المكان نفسه.
– كيف؟
– كلانا من دون عائلة.
– ماذا تقصد؟
لم تكن عالِمة بقصّتي...
– كلانا فقدَ من يحبّ.
– كيف؟
كنتُ في السادسة، سقطَت قذيفة قتلَت جدّتي، كان أبي خارج لبنان، وحتّى اليوم لم أسمع عنه شيئًا...
سكتَت لحظة.
– إيهاب، أنا آسفة لم أكن أعلم.
– هذه قصّتي يا نبال! كلمات قليلة وبسيطة، لا تستحقّ أن تكون كتابًا، أو حتّى ا يرويه زميلي حسن، وهو الّذي يروي حتّى أبسط الأفلام. وهي لطالما آلمتني نني ومنعت عنّي أشياء، ولا يشعر بها إلّا من كان مثل أمّ رامي. هناك مكانان في العالم كلّه بهذه الظلمة، غرفة أمّ رامي وداخلي يا نبال.
– إيهاب!
وها قد تحقّق أكبر خوف عندي، ألا وهو العجز. واليوم تبيّن لي ذلك، أحسست فقة على أمّ رامي، لكنّي لست بأفضل منها، هي وحدها وأنا وحدي، تعيش على كرى وأعيش على الأمل، كلانا عاجز وكلانا يتيم.
– إيهاب!
– قد يكون المرء يتيمًا في أيّ عمر كان يا نبال.
– ...
– واليتم خطوتان، خطوة الفرض وخطوة القبول. يفرضه القدر وتقبله الضحيّة. قبلتُه يوم القذيفة، وحملتُه منذ ذاك اليوم. قد أرميه ساعة أشاء، ولكنّي حتّى اليوم عن ذلك. والكاتب الياس بشارة محقّ في قوله «على الإنسان دومًا سدّ فجوات ني قبل الشروع إلى المستقبل». ففقدان أبي يا نبال فجوة داخلي وعليّ سدّها.
بعد لحظات من السكون قالت:
– إيهاب. أصعب ما في الدنيا ألّا يحبّك أحد.
– لا يا نبال. هناك شيء أصعب بكثير...

* * *

ابن أمّ رامي، على كلّ المؤسّسات الخيريّة والصليب الأحمر والهلال الأحمر، وعلى ات العدل والداخليّة والخارجيّة، أدخلتُ اسمه في الكمبيوتر لاكتشاف أيّ رحلة قد يكون قام بها على مرّ السنين، فلم يظهر اسمه.
اتّصلتُ مرارًا بعميد المؤسّسة الّذي بدوره لم يدع بابًا إلّا وطرقه، أو جهة إلّا وسألها.
قال:

- هناك حالتان، إمّا أنّه مات وإمّا أنّه ليس في لبنان.
– لم يترك لبنان عبر المطار، هذا أكيد.
– ربّما عبر البرّ أو البحر.
– هذا ممكن.
– ماذا لو استشهد في الاجتياح الإسرائيلي؟
– تحقّقنا من لوائح الاستشهاد كلّها، اسمه لم يظهر.
ماذا لو كانت إسرائيل أسرَته، وربّما رحَّلته إلى إحدى الدول العربية؟
– في هذه الحالة علينا مراجعة المنظّمات العالمية الّتي تتولّى أمورًا كهذه.
ثمّ قال:
– ليس لك إلّا معارف الستّ نبال.
نظّمت نبال لقاء مع أحد مسؤولي المؤسّسات الخيرية العالمية. تقرّر اللقاء في بيانو بار في برمّانا، فطلبَت منّي ملاقاتها في منزلها الساعة السابعة مساء.
– فلنذهب بسيّارتك... قالت لي.
فوجئت بطلبها، إلّا أنّها أسرعت وركبت في الهوندا إلى جانبي. كانت ترتدي بنطالًا أسود، وقميصًا ناعمًا ملاصقًا لجسدها النحيل، تحت كنزة بيضاء من الصوف الرقيق، مفتوحة من الأمام. استحوذ عطرها على فضاء السيّارة، فحجب الرائحة البسيطة للأرزة الخضراء المعلّقة على المرآة الأمامية.
حادَثنا طوال الطريق. كانت مرتاحة على المقعد قربي، رجلاها مضمومتان، وتميل بجسدها نحوي، والابتسامة لا تفارقها.
لم يجلس أحد إلى جانبي في السيّارة من قبل، ولأوّل مرّة، تساءلت عن شكلي... كنت طويلًا، نحيفًا، شعري أسود كثيف، لم أحتج مرّة إلى تقصير أو تضييق ثياب، «مقاسك مثل قياس المنوكان» كانت عاملة الـ ABC تقول لي. كثير من النساء وخاصّة في عملي يُبدين اهتمامًا بي، لكنّي دومًا أتجاهلهنّ. كان حسن يقول: «عاملات شركات الطيران وخاصّة المضيفات دائمات السؤال عنك.»
فأقول له:
– قل لهنّ إنّي طائرة أوتوماتيك، تعمل آليًّا...
وصلنا إلى برمّانا، وكان الجوّ باردًا.
دخلنا البيانو بار، كان مسؤول المنظّمة الخيرية في انتظارنا ومعه بعض الأشخاص. سلّمنا على الجمع وجلسنا.
تميّز المكان بصالونات فخمة، وخزائن خشبية داكنة تحتوي على عدّة أنواع من السيجار والكونياك الّذي تلمع زجاجاته تحت أضواء تشعّ من زوايا الخزائن. فُرشت أمامنا على الطاولات جميع أنواع البزورات، وقِطَع لحم مبهّرة باردة ورقيقة.
عرّفتني نبال بالمسؤول فأعلمته بطلبي.
شرح لي علاقته بباقي المؤسّسات العالميّة، ثمّ تعهّد الاتّصال بها، من أجل البحث في ملفّاتها عن أيّ معلومة عن ابن أمّ رامي.
أصرّ الموجودون على نبال بأن تعزف البيانو. تعجّبْتُ لأنّي لم أكن أعرف شيئًا عن مواهبها الموسيقيّة. بعد رفض طويل انصاعت للمطالب الملحّة. خلعت كنزتها، جلست

بيانو، أخذت موضعًا قريبًا من مفاتيح الآلة الموسيقيّة، وأرخت رجلها على إحدى
دعسات المحاذية للأرض.
ر البيانو نغمات جعلت شعَيرات جسدي تنتصب. عزفَت مقطوعتي المفضّلة،
وسيقى شوبان. يا للصدفة. بين عزفها وحركات جسدها المتمايل، انفلت شعرها من
قدته، غطّت الخصيلات الحمراء انحدار رقبتها وكتفَيها، وتماوج الشعر اللامع مع
قاطع المعزوفة. العنق الجميل، الشعر الأحمر، البشرة البيضاء.
قطعَت أنفاسي للحظات. غير ممكن. لا أصدّق. هذه نبال؟
يا للصدفة، إنّي أعرفها من قبل. منذ كانت طفلة ربّما في الثامنة أو التاسعة من
عمرها. إنّها سبب عشقي لهذه المعزوفة...
بعد الانتهاء من عزفها، جلسنا بعض الوقت مع الموجودين. راقبتها وهي تتكلّم
تضحك، يداها ناعمتان، تمسك بمشروب «الدايت»، جسمها دائم الميل نحوي، لا
تثنيني من أيّ حديث، وتشرح لي أساس الحكايات الّتي كانوا يذكّرونها بها.
أنا، فملأتْ أذنَيّ أصداء المعزوفة، جلسْت هناك قربها تحت النور الضئيل وعلى
المقعد الجلدي الثمين، تملّكني شعور بالراحة والسعادة.
ي طريق العودة سألتني عن سبب صمتي.
– نبال رأيتك من قبل.
– قبل ماذا؟
– قبل الآن. قبل حقيبة والدك.
قالت بطريقة المداعبة:
– أكيد. رأيتني في المجلّات والتلفاز. أنا مشهورة، تذكّر...
– لا. رأيتك قبل أن تصبحي مشهورة.
– متى؟
– كنتِ في الثّامنة أو التاسعة من عمرك.
– أنت جادّ!
– نعم.
– وتتذكّرني؟
– تذكّرتكِ اليوم. عندما عزفتِ على البيانو.
– معقول!
– أنا أكيد.
– أين حصل هذا؟
– في دير كفرشيما.
– ...
تِ مع والدك على ما أظنّ، عزفت في غرفة الاجتماعات على بيانو الدير.
سكتَت لبرهة ثمّ ابتسمَت.
– نعم أتذكّر. ذهبت مع والدي، بعد حادثة الخطف، لزيارة الأب نعمان في دير
يما. كان والدي من المتبرّعين الأساسيّين للدير، وصديق الأب نعمان، الّذي ساهم
ن ساهموا في إطلاق سراح والدي. فطلب الأب منّي العزف ليتامى الدير.

نظرَت إليّ بدهشة، مصغية إلى ما يعني ذلك.

– إيهاب، أنا آسفة.

– لا تتأسّفي. يبدو أنّ حياتَينا تتلاقيان بأكثر ممّا نعتقد.

قالت لي وعيناها تسبحان في نظرة أسف نحوي:

– لا شكَّ أنّ حياتك كانت صعبة.

ابتسمتُ:

أذكر ذلك اليوم جيّدًا. كنتُ في السادسة عشرة من عمري، بعد فترة قصف على بيروت دامت أشهرًا، لم نرَ فيها الشمس ولم نلعب أو نمشِ خارجًا أو نمرّ عبر المنحدر.

كانت سنين عديدة قد مضت وأنا في الدّير. وأصبح أبي ذكرى بعيدة، كأنّه مشهد من فيلم قديم بالأبيض والأسود. بدأتْ ملامح وجهه تزول من مخيّلتي. شعرْت بأنّي حلمت به يومًا، واحتالت الصور على مخيّلتي، فجعلتني أصدّق بأنّه حقيقي، أو أنّي طة أوجدت الذكريات، لأكون أفضل من باقي الأولاد اليتامى.

في عمق آمالي، لم أعد أنتظر عودته ولا أحلم بلقائه. بل بالعكس، أفرغت غضبي عليه. وقرّرت أنّه لم يأتِ، لأنّه ببساطة لم يحبّني ولم يهتمّ لأمري.

ت أضحك من قصص البطولات والتضحيات بأنّها خرافية، ولا تمتّ إلى الواقع بصلة، فالبشر لا يحبّون إلّا أنفسهم. يُقال: «الغول لا يأكل أولاده» لكنّه حتمًا ماهم». هكذا كنت أفكّر. النبي إبراهيم امتنع عن ذبح ابنه لكنّ أبي لم يفعل. كانت حلة فقدان الأمل والغضب.

عَنا الأب نعمان، قال إنّ لديه مفاجأة. تحلّقنا بشكل دائري حول البيانو، دخلْتِ أنتِ الصالة، فتاة صغيرة واثقة بنفسك، نحيلة وصغيرة، إنّما واثقة، بفستان أزرق فوق جوارب بيضاء. يا إلهي كم أتذكّر تلك التفاصيل.

تِ إلى البيانو، ابتسمتِ لوالدك ثمّ أطلقتِ أجمل لحن سمعَته أذناي. بهرْتِ حاسّتَي السمع والبصر عندي. شعرك الأحمر تراقص فوق كتفَيك، ورجلاك تكادان لا لامسان الأرض، كنتِ بريئة جميلة، وباعثة ألحان.

كانت نبال تصغي وعيناها تلمعان.

– صفّقْنا لك، ثمّ أخذك والدك بين يدَيه وغمرك، وأجلسك في حضنه.

حضن. ذلك المكان الغريب عن كلّ أولاد الدير اليتامى. لعبة لم نلعبها من قبل. شارع لم تقف عنده حجارة المونوبولي، ورقم لم يقذف به زهر الريسك. فضاء لم يطر إليه غرندايزر، أو يقفز إليه ستيف أوستن. جوع لم يسدّه طعم شوكولا الأونيكا ولا دسامة ثمرة الأفوكادو. مكان قديم جدًّا بالنسبة إليّ، عرش تبوّأتُه في مر مضى.

ك حفرَ عبْر المتاريس نقطة حبّي الصافي، نوتة من أناملك لمست المشاعر الّتي والدي، فاستفاقت من جديد. عاد الشعور الّذي غاب عنّي. في يوم غابر جلستُ في ضنكَ يا أبي، كيف أنسى؟

لتَني، علّمتَني أن أصلّي الكلمات بلحن وتمايل من جسمك، هوّن عليّ الحفظ رغم نّي. كنتَ تحبّني ولستَ غولًا، ومهما مضى من عمري سأجدك أو أكتشف ما حلّ

. سأبدأ بالمطار من حيث ذهبْت. ستكون شاغل يقظتي وحلم منامي، سأضحّي بكلّ من أجلك حتّى أعرف مكانك.

هذا ما فعلتِه بي يا نبال، بسنواتك القليلة وأناملك الصغيرة وجواربك البيضاء. رة ورقية ظهرتِ خلف الحاجز. خلف الحائط الّذي يمنع حياة الناس العادية عن حياتنا، طائرة ورق ترفُّ في زرقة السماء الساطعة، يتدلّى منها حبل، يربطها ء يحجبه الحائط عن عينَيّ، وعن عيون أولاد الدير.

وضعَت نبال فجأة يدَيها حول عنقي، وأرخت برأسها على صدري، فاحتويتها بيدي صرتُ كيانها الدافئ الّذي بعث فيّ حياة ساحرة، اليوم وقبل ذلك بكثير...

* * *

ك المساء، جاءني ردّ من ألمانيا بخصوص الطرد الّذي أرسله والدي سنة 1979. لبحث المعمّق، لم يجدوا أيّ دليل عن اسم أو عنوان الشخص الّذي تسلّم الرسالة، كنّهم وجدوا اسم المدينة الّتي وصلتها الرسالة.

زحلة.

ذا غريب، في تاريخ بحثي عن أبي، هذه أوّل مرّة يأتي ذكر اسم مدينة زحلة. من هو الشخص الّذي تسلّم الرسالة وما علاقته بأبي؟ سيفتح هذا الاكتشاف بابًا جديدًا بلا شكّ.

نّي ثيابي الّتي حفظَت عطر نبال، وضعتها جانبًا، واستلقيت على فراشي وأغمضت ينَيّ.

في الليل، زارني حلم جميل. رأيت نبال ترفعني بيدَيها كأنّي طفل صغير، تدور بي مّ تقرّبني منها، فتدغدغني حتّى يُغمى عليّ من الضحك، ثمّ تُبعدني وتدور بي من بد. شعاع الشمس يُذبل عينَيّ، والهواء الصافي يلفح وجهي، والضحك يدغدغ أذنَيّ. ر إلى وجهها وفجأة أرى وجه امرأة أخرى... لكنّي أحسّ بالأمان.

استحال وجه نبال وجهًا جديدًا لم أره من قبل... رائحة حبق وشمس تبرق، ودوران وضحك، وإحساس رائع، تقرّبني منها ثمّ ترفعني. وجه نبال ثمّ وجه المرأة الأخرى رائحة حبق وشمس...

فتحتُ عينَيّ فإذا النور قد تسرّب إلى غرفتي. أغمضتهما من جديد لأسترجع حساس الّذي بدأ يهرب منّي. تمنَّيت ألّا أستفيق، أو فليظلّ حلمي إلى ما لا نهاية.

ي النهار، وصلتني مكالمة من شخص، عرّف بنفسه على أنّه مدير «المؤسّسة مية للتّواصل» في بيروت. ثمّ أطلعني على واجبات المؤسّسة، مثل مهمّات تبادل رسائل، والكشوفات الصحّية على الموقوفين بين البلدان الّتي هي على عداء أو عدم صل. ومهمّاتهم أيضًا تتضمّن معاملات ومساعدات إنسانية للّاجئين السياسيين في ول العالم.

لب منّي الحضور فورًا إلى مكتبه، بخصوص ابن أمّ رامي.

عند وصولي تجمّع حولي موظّفو المكتب.

– سيّد إيهاب، لن تصدّق.

وجدتموه؟ سألت وأنا أنظر إلى الموظّفين حولي.

وضع أمامي صندوقًا مليئا بالرسائل.
– أكثر من ستّ مئة رسالة.
– لمن؟ سألته.
– لأمّ رامي!
– كيف؟ لا أفهم.
ابتسم كلّ من حولي.
فقال لي:
– في سنة 1991 وصلتنا رسالة عبر مكتبنا في ألمانيا، من سجن في إسرائيل. جاءت الرسالة من أسير فلسطيني مولود في لبنان. نحن تعوّدنا تلقّي رسائل من موقوفين في السجون الإسرائيلية، لانقطاع العلاقات بين البلدين، ما يمنع وصول رسائل عبر الطرقات العالمية. ولكنّ ما ميّز هذه الرسالة أنّها أتت من شخص لم يكن اسمه مدرجًا على لوائح الأسرى الّتي بحوزتنا. لذا، لم يكن لدينا علم به أو والعنوان كان لبيت في منطقة دمرّتها حرب المخيّمات في منتصف الثمانينيّات.
كانت الرسالة موجّهة إلى امرأة. بطبيعة الحال، حاولنا العثور على المرأة لكن من دون جدوى. أخذت تردنا رسالة كلّ أسبوع من الشخص نفسه. وبعد مضيّ أشهر، وفيما كنّا نتناقش بشأنه والرسائل تردنا، قرّرنا الردّ على كاتب الرسائل، وإعلامه بأنّنا غير قادرين على تسليم رسائله. سألناه أيضًا عن قصّته.
أخبرنا أنّه فلسطيني مولود في لبنان. في العام 1982، وقبل الاجتياح الاسرائيلي بيوم، كان في طريقه إلى السويد الّتي كانت، يومها، تستقبل اللاجئين، لكنّ الوصول إليها مهمّة صعبة. تمكّن من الحصول على تأشيرة سياحيّة إلى روسيا. كانت الخطّة أن يستقلّ واحدة من طائرات الخطوط الجوّية السويدية، الّتي تمر عبر ستوكهولم إلى موسكو. وخلال الرحلة يمزّق أوراقه ويترجّل من الطائرة في ستوكهولم، فيسلّم نفسه إلى السلطات السويدية الّتي تضطرّ إلى إدخاله ومنحه لجوءًا سياسيًّا. لكنّه، وهو في مطار بيروت، شاهد البوادر الأولى للاجتياح الإسرائيلي، فقرّر المقاومة لا الهرب. ذهب إلى الجنوب، أراد «دقّ جدران الخزّان» بحسب تعبيره، لا أفهم ما قصد بذلك!
– «رجال في الشمس»، قلت له.
– ماذا؟ سألني في حيرة.
«لماذا لم تدقّوا جدران الخزّان؟» جملة من كتاب «رجال في الشمس» للكاتب الفلسطيني غسّان كنفاني.
– هذا ما عناه إذًا! على كلّ الأحوال، قام بعمليّة ضدّ قوّات العدوّ، ذهب ضحيّتها خمسة ضبّاط إسرائيليين. تمّ القبض عليه، ثمّ نُقل إلى سجن في إسرائيل. ولم يُسمح له بالمراسلة أو الاتّصال بأحد لسنوات عدّة. قال إنّ المرأة هي أمّه، وسيظلّ يكتب إليها علّنا نجدها فنعطيها الرسائل. يريدها أن تعلم أنّه يفكّر فيها كلّ يوم، وأنّها ليست وحدها في الدنيا، بل لها ابن يحبّها ويتمنّى لقاءها. وهذه أوّل مرّة جاء من يسأل عنه. وكما ترى، كلّ الموظفين يهتمّون بأمره. كيف علمتم به؟
علمته بالحقيبة وكيف قادتني إلى أمّ رامي، الّتي اعتقدَت بأنّه في السويد، لذا لم

تث عنه مع الموقوفين. أنا تأكّدت أنّه لم يترك لبنان، ما جعلني أبحث عنه في جميع مؤسّسات.
– كانت أمّه في لبنان طوال هذا الوقت! فكيف لمْ نهتدِ إليها؟
أخبرته عن تغيير اسم عائلتها، بسبب نظام الإعاشة، ما أدّى إلى صعوبة في تحديد مكانها. أخذتُ الصندوق ورسائله وشكرتهم جميعًا.
لعت نبال على المستجدّات.
ريد أن أذهب معك لإطلاع أمّ رامي على أخبار ابنها.
– نبال، المكان لا يليق بك.
– لا أريدك أن تذهب وحدك...
لم أرِد لها أن تأتي، يقينًا منّي بأنّها ستواجه صعوبة في قبول واقع أمّ رامي. ن أجنّبها هذه الصعوبة، لكنّي في الوقت ذاته وددتُ أن تقضيَ وقتًا معي.
– حسنًا.
كانت أوّل مرّة أرى فيها نبال في ثياب غير رسميّة. كنزة رياضية، جينز وحذاء ي. وصلنا إلى غرفة أمّ رامي، رافقنا جمع من الأولاد والناس الّذين كانوا في انتظار عن الموضوع. نزلَت معنا الجارة إلى الغرفة. أمسكتُ يد نبال لأسهّل عليها الدخول عبر الفتحة.
– أهلًا يا ابني. عذرًا يا ابنتي، هذه حالتي والله أعلم...
توجّهتُ إليها بابتسامة.
– يا أمّ رامي عندي أخبار مفرحة جدًّا.
– تفضّل يا ابني.
– وجدنا ابنك. إنّه مسجون في إسرائيل.
لم تقل شيئًا، لكنّ عينَيها، التي أطلقت رشحًا مائيًّا، كانت كافية للتعبير عمّا شعرَت.
قلت لها:
بدل سفره إلى السويد، ذهب إلى الجنوب وقام بعملية أُسِرَ على أثرها، ولم يُسمح له بالمراسلة حتّى سنة 1991.
وضعْت أمامها صندوق الرسائل.
– هذه كلّ الرسائل الّتي بعث بها إليك. رسالة كلّ أسبوع. عَلِم بأنّ رسائله لم سلك، لكنّه أصرّ على الكتابة لكي تعلمي، في حال وجدوك يومًا، أنّك لست وحيدة، وأنّه يفكر فيك كلّ يوم وهو يحبّك ويأمل لقاءك.
بدأت بالدعاء.
– لا إله إلّا الله، لا إله إلّا الله... سبحانه وتعالى، سبحانه وتعالى... ابني قلبه عليّ. ي قلبه عليّ. ليتني أموت مئة مرّة، ومكروه ما يصيبه.
ثمّ سألتني:
– لمَ لمْ تصلني رسائله من قبل؟
لم أرد أن أخفي عنها الحقيقة فقلت لها:
– لم يهتدوا إليكِ بسبب تغيُّر اسم عائلتك.

نظرَت إليّ بهلع. ثمّ خلعت منديلها وصارت تشدّ بشعرها وتصرخ.
- حجب عنّي ابني. جوعي حجب عنّي ابني. ريتني آكل هري... ريتني آكل هري...
حاولَت الجارة التخفيف عنها، لكنّها لم تهدأ، صارت تشدّ بشعرها.
- شوف يا أبو رامي... مراتك شو عملت بابنك... يا ريتني صرت جلدة على عظمة ولا ...ت اسمي. آخ يا جرصتي، آخ!
– معليش يا أمّ رامي. معليش.
أمسكَت الجارة بيدَيها ومنعتها من شدّ شعرها.
...ت لحظة مؤثّرة، خاصّة أنّ أمّ رامي عانت الأمرَّين، وها هي تلوم نفسها حتّى على الإعاشة الّتي تلقّتها.
قلت لها:
- يا أمّ رامي ما عليك ذنب، شدّي حالك، ابنك بحاجة إليك وإلى صلاتك، هو يحبّك وسوف يتفهّم.
– أقول للناس إنّه نسيني. من أين يتفهّم؟
– ما مضى قد مضى، وإن شاء الله سيخرج مع العملية المقبلة لتبادل الأسرى. ويلتمّ شمل العائلة من جديد.
– الله يهوّن لك خروجك يا ابني، وأراك بين يدَيّ.
...د أن هدأت أمّ رامي، سألتْها نبال عن مرضها، فشرعت تحدّثها عن ألم ظهرها الّذي ... مع السنين نارًا منعتْها عن الوقوف، وهي على هذه الحال منذ سنتَين.
أخذَت نبال جوالها فاتّصلت بطبيبها الخاصّ وأخبرته، ثمّ أقفلت الخطّ.
...جاءها اتّصال بعد دقائق من جرّاح في أوتيل ديو، اختصاصيّ بالظهر والديسك. ...ستمع إلى حالة أمّ رامي ثم اقترح الكشف عليها، وذكر إمكانية إجراء عمليّة لها، قد ...كّنها من المشي خلال ستّة أشهر. فطلبت منه نبال إرسال سيّارة الصليب الأحمر ... أمّ رامي إلى المستشفى.
لم تصدّق أمّ رامي ما سمعته فازداد بكاؤها ودعاؤها.
- اقتربي يا ابنتي حتّى أقبّل جبينك.
لم تتردّد نبال فاقتربت من أمّ رامي وغمرتها. عادت نبال واتّصلت بالمهندس ...اريّ، المسؤول عن تصميم وتجهيز محلّات «برايت ستون»، وطلبت منه القيام ...لإمدادات الكهربائية إلى غرفة أمّ رامي.
فقلت لها:
– أرجو أن تطلبي منه أيضًا إصلاح المدخل، وفتح نافذة في الحائط، والقيام ...ات الماء والأدوات الصحّية، وتأمين غرفة نوم وجميع أدوات المطبخ. وسوف أتكفّل ...كلّ المصاريف.
... إليّ باندهاش، ولكن حين رأت أنّ تعابير وجهي جادّة، هزّت رأسها وابتسمت، ومن ...مّ أبلغت المهندس.
...ت نبال فاتّصلت بإحدى الجمعيات الخيرية، وطلبت تأمين أغطية وثياب وإعاشة شهرية...
– أطال الله أعماركم.

– نحن مثل أولادك يا أمّ رامي. لا تحملي همّ شيء، قالت لها نبال.
تشكّرتنا الجارة ورافقَنا جمع من الناس حتّى السيّارة.
قالت لي نبال:
– تصوّر أنّ أمرًا صغيرًا مثل تغيّر اسم عائلة أمّ رامي قد أدّى إلى حجبها عن ابنها
وال هذه السنين. حدث واحد فرّقهما، وحقيبة واحدة جمعتهما.
«اخرجي من نفسك تجديها» كان والد نبال يقول. وها أنا أراها «تخرج من
نفسها». اليوم، رأيت لها وجهًا جديدًا، هالة أحاطتها، نور ملأها وفاض على الغرفة
ن والطريق، ووصل إليّ. لمستُ «المعنى» الّذي تطلبه.
في السيّارة، أحسست بعدم ارتياح نبال، ثمّ رأيتها تخفي حذاءها الرياضي،
الوحول الّتي علقت به من جرّاء عبور طرق المخيّم الموحلة. كانت جالسة وتحاول
دفع رجليها تحت المقعد.
أوقفت سيّارتي في محطّة وقود، ابتعت علبة مناديل ورقية، ثمّ بلّلت بعض أوراقها.
– اخلعي حذاءك.
– إيهاب!
– هيّا، إنّي أنتظر.
أعطتني حذاءها، رأيتها تلبس جوارب رياضية ناصعة البياض، تتخلّلها ورود ليلكية
سحت الوحل والتراب عن الحذاء، حتّى عادت ألوانه البيضاء والكحلية إلى سابق
دها، ثمّ عدت إلى السيّارة. مدَّت يدَيها لتناول الحذاء، لكنّي حجبته عنها. اقتربْتُ منها
ثمّ ألبستها الحذاء وعقدت أشرطته...
شعرت بنظراتها وأنا منحنٍ أمامها، وأرخت بيدها على كتفي.
في طريق عودتنا، كان الجوّ مشحونًا في بيروت. حصل تعارك بين مجهولين
بّان يرفعون على سيّاراتهم الأعلام اللبنانية. كانت سيّارات الدرك والجيش تمرّ
عة من أمامنا، إلى أن وصلنا إلى طريق مُقفَلَة بسبب الشجار. أخذت طريقًا فرعية
وصول إلى المكلّس، لكن فجأة، توقّفت سيّارة أمامنا وترجّل منها عدد من الرجال
صيّ وسلاسل حديدية. بدأوا بضرب مجموعة شبّان وفتيات أمام مركز أحد التيّارات.
رأينا العصيّ تتضارب والأوجه تُلطم، ثمّ ركضَت فتاة يافعة نحونا محاولةً
، من المعتدين، فتعقّبها أحدهم وأصابها بضربة على رأسها من الخلف، فارتمت على
دّمة السيارة، وتناثرت الدماء على الزّجاج أمامنا.
صرخت نبال من هول الفاجعة.
كنت بصدد الترجّل من السيّارة لمساعدة الفتاة، إلّا أنّ زملاءها صدّوا المعتدي
واصطحبوها معهم.
الحالة، فابتعدتُ عن المكان قاصدًا منطقة المكلّس، ومن هناك أخذت طريق
نصورية فبيت مري. أحسست بخوف نبال ورعبها. لم يتوقّف ارتجاف يدَيها، ورأيت
نظرة رمادية تحجب عينَيها. وصلنا إلى بيتها فأوقفْت سيّارتي عند المدخل.
- إيهاب، أرجوك اتّصل بي عندما تصل إلى بيتك.
ثم انسلّت داخل منزلها.
ريق عودتي، رأيت عددًا من آليّات الجيش تمرّ عبر الطرقات، وشاحنات تحمل

جزاء من المنصّات الّتي تُنصب، تحضيرًا للمظاهرة الّتي ستنطلق بعد يومَين.

* * *

«حقيبة ضائعة تعيد الحبر إلى قلم الكاتب الياس بشارة»: عنوان صغير في أحد دة الصفحة الأولى. بعصبية، وضع المدير الجريدة أمامي. فاجأني المقال الّذي ناول عودة الكاتب إلى تحرير عمود في الجريدة يوميًّا. وبخاصّة أنّ أحدًا لم يُعْلمني بنشر قصّة الحقيبة.

فضّل اشرح لي كيف، بعد أن منعتك من ملاحقة الحقائب، أرى اسمك من جديد.

لم أجب.

شعرت بغضبه. لكنّه كظم غيظه على غير عادة، وراح يستفيض بما قد يُنتجه من مضاعفات تسيء إليّ وإليه.

شعرت بأنّ الأمر أكبر ممّا أتصوّر، وكأنّ فريقًا آخر تتعارض مصالحه مع الحقائب. ما فريق المخابرات في حالة الكاتب: أما زالوا يراقبونه بسبب ما حصل سابقًا؟ والآن علموا بعودته إلى الكتابة وإلى قصّة الحقيبة، فاتّصلوا بالمدير يستوضحون؟

أعاد تحذيري من جديد، وقال إنّه يغطّي أعمالي للمرّة الأخيرة.

جأتني عبارته هذه، «يغطّي أعمالي» ماذا يقصد بذلك؟ متى غطّى أعمالي من قبل؟ الحقائب السابقة، أو أعمالًا قبل ذلك، وغطّى عليها من أجل ماذا؟ ومن أجل من؟ ت ظنوني بأنّ هنالك فريقًا آخر على الخطّ. قرّرت توخّي الحذر، فطلبت من متري التكتّم على موضوع الحقيبة الأخيرة، وحتّى على حقيبة أمّ رامي، الّتي لم يعلم أحد بعد بنجاحنا في إيصالها إلى أصحابها.

الفصل السابع

بخصوص الحقيبة الخامسة، قال متري إنّه لم يجد مفتاحًا سداسيًّا داخلها. أخذت
بين يديّ وتفحّصته. كان حسن على صواب، العجلات مصمّمة على أن تدور من
تلقاء نفسها بعد شدّ السنّ السداسية.
ن أين المفتاح؟ تذكّرت ألعابًا من طفولتي، كانت تعمل على بطّاريات. وقد يكون
المفتاح موجودًا في جزء من الحصان. قلّبته، فرأيت شقًّا في بطنه. دسسْتُ مفتاح
سيّارتي في الفراغ الصغير وضغطت، فإذا بباب صغير ينفتح.
وقع أمامي شيء حديدي بشكل حرف L اللاتيني، عرفت به المفتاح السداسي.

– انظروا! قلت لمتري وحسن.

أدخلت المفتاح في الفجوة وحرّكته.

وضعت الحصان أمامي، فتقدّم من جرّاء دوران العجلات الصغيرة، رافقه تحرّك
الحصان، إلى الأمام ثمّ إلى الوراء.
لت إعادة المفتاح إلى مكانه داخل الحجرة الصغيرة لكنّي عجزت. فقد كانت
مصنوعة بشكل لا يسمح بإرجاع المفتاح إلى داخلها إلّا بطريقة واحدة. حاولت
مرّات لكنّي فشلت، قرّبته منّي كي أرى شكل الحجرة بوضوح، فلمحت في الداخل
ورقة صغيرة. أدخلت إصبعي وحرّرت الورقة. قرأت عليها بالألمانية:

Hergestellt in der BRD 1975

وإلى جانبها بخطّ اليد:

HERRAOA

كانت الجملة الأولى تشير إلى أنّ مكان الصنع هو ألمانيا، سنة 1975. أمّا الكلمة الّتي
كُتبت بخطّ اليد فلم تعنِ لي شيئًا. بدت لي غريبة كأنّها رمز وليست كلمة. ربّما
قم التصنيع، أو هويّة المعمل.
أت بحثًا في الإنترنت عن أصل اللعبة وشركة صنعها. اكتشفت أنّ الشركة الألمانية
الّتي تصنعها أقفلت أبوابها سنة 1977، حين بدأت السلع اليابانية والصينية تدخل
سواق الأوروبية بأسعار بخسة، ما أجبر العديد من الشركات المحلّية على إقفال
بوابها. شيء واحد كان يميّز هذه الشركة عن غيرها: ألعابها تُصنع باليد وعلى الطلب
فقط.

ن أن تكون هذه الأحرف رقم الطلب أو دلالة على اسم المشتري.
صرت أعيد الكلمة في ذهني HERRAOA... HERRAOA
HERR... AOA... HERR
نعم Herr تعني «سيّد» بالألمانية.
سيّد AOA ... سيّد AOA رأيت هذه الأحرف من قبل، لكن أين؟
يا ربّي؟ في الآونة الأخيرة أظنّ، لكن أين، في عملي هنا؟ أم في البيت؟
يا إلهي نعم في البيت! لا أصدّق... معقول؟
وقفَت شعَيرات رقبتي كأنّ تيّارًا كهربائيًّا مسّها. أحسست بأنفي يتقلّص وضربني ألم
بين عينَيّ.
في البيت، أنا أكيد.
عت إلى منزلي. عليّ التأكّد، لا أستطيع الانتظار حتّى المساء.
ي الغرفة، فتحت أحد الملفّات، وأخرجت الفاكس الّذي وصلني منذ أيّام من مكتب
ي في ألمانيا، والمحتوي على رقم سجلّ الإقامة الدائمة، الّتي حصل عليها والدي
سنة 1975. جبت بنظري مقاطعه، حتّى استقرّت عيناي على الأحرف، AOA، وجانبها
بالألمانية كلمة Initialen أي الأحرف الأولى للأسماء.
Ahmad Omar Allam
«أحمد عمر علّام»... معقول؟
قول؟ أحرف اسم أبي على الحصان الخشبي... قد تكون صدفة؟
هل جائز أنّه اشترى حصانًا خشبيًّا وهو في ألمانيا سنة 1975؟ اشتراه لي؟ شعرت
ن في رأسي، فأمسكت بالمكتب أمامي لأتفادى السقوط. ربّاه، كيف فاتني ذلك؟
كيف فاتني...
بسرعة، أخرجت العلبة الفضّية الصدئة. حاولت فتح غطائها لكنّها عاندتني. لم
فتحها منذ سنين. وضعتها بين فخذَيّ وعصرتها بيدَيّ الاثنتين. انزلق الغطاء عنها
أة، فتطايرت الرسائل على الأرض.
كانت تحتوي على كلّ رسائل أبي الّتي وصلتنا خلال سفراته. فتحتُها واحدةً تلو
ى، حتّى وجدت رسالته الأخيرة، قرأت سطورها على عجل. في نهاية الرسالة، كتب:
«أخبري إيهاب بأنّي سأحضر له هديّة، حصانًا خشبيًّا».
سيت هذا الدليل؟ الحصان الخشبي على مكتبي منذ أيّام عديدة، ولم أتذكّر ما كتب
رسالته! أمن الممكن أن تكون الحقيبة له؟ الحصان صُنع في ألمانيا، الأحرف الأولى
لاسم أبي تظهر على الورقة. قد... قد تكون الحقيبة له.
لى كرسيّ المكتب، أرخيت نفسي فوقعَت الرسالة من يدي. نظرتُ أمامي من دون
ن أرى شيئًا. إذًا كانت الحقيبة تخصّه، يعني أنّه أتى.
أمضيت دقائق عديدة وأنا جالس، كأنّ الوقت بطل مفعوله. ثمن المعرفة باهظ،
عليّ معرفة الحقيقة. هل جاء وأخذَه أحد الأصوات مثلما حصل للمحامي، أو انتظرَته
ناصر عند أرض المطار كما حدث للكاتب، أو أنّه قام بعملية مقاومة وهو الآن شريك
زانة ابن أمّ رامي؟
عليّ معرفة ما حصل.
قبل كلّ شيء، عليّ الجزم بأنّ الحقيبة تخصّه. وذلك من ظهور اسمه في سجلّ

، الحقيبة نفسه. لكنّي أجريت عدّة أبحاث عن اسمه من قبل ولم أوفّق. لم ليس
هناك سجلّ لدخوله إذًا؟

لت ملفّات الكمبيوتر، وبدأت البحث في يوم تاريخ فقدان الحقيبة، لكنّي لم أجد أيّ
لات. كان في ملفّاتي نقص في ما يتعلّق بالأشهر الأولى من الحرب. راجعت
ظاتي على تلك الفترة، رأيت أنّ كلّ لوائح تلك الأشهر كانت تُرسل إلى المديرية
لعامّة للأمن الداخلي، بسبب مراقبة أجهزة الدولة للقادمين والخارجين في فترة
رّكات التحضيرية الّتي سبقت اندلاع الحرب الأهلية سنة 1975. لن يمكنني الجزم
بحضوره إلّا إذا ظهر اسمه، لأنّ الأمر قد يكون برمّته مصادفة. لا بدّ من
ول على ملفّات المديرية العامّة للأمن الداخلي.

لن يكون ذلك سهلًا بالنسبة إليّ، إذ ليس لي معارف هناك، ورتبتي لا تخوّلني
ى على السجلّات، هذا إذا كانت السجلّات ما زالت متوفّرة بعد كلّ هذه السنين.
ن وحيد قادر على الحصول عليها، وهو، للأسف، المدير. سأخبره عن أبي، وعن
قيبة ومدى أهمّيّتها بالنسبة إليّ. عُمْر مضى وأنا أبحث... وللمرّة الأولى تظهر أدلّة،
د تجيب عن كلّ الأسئلة الّتي طالما أردت لها أجوبة. أعتقد أنّه سيتفهّم.

عدت إلى المطار.

* * *

– أنت مجنون! صرخ بي.

– أرجوك، الموضوع متعلّق بأبي.

نظر إليّ باشمئزاز.

نت فعلًا مجنون. أتعرف ما ينتظرك إذا أصررت على الموضوع؟

– هذه الحقيبة لوالدي. أرجوك أن تتفهّم.

– أنت من لا يتفهّم. إن لم تنسَ الموضوع برمّته سيُقصف عمرك.

يا له من وغد. لمَ لا يساعدني في أمر إنساني كهذا، حتّى ولو كنت عدوّه؟

قد يئست من تعجرفه واحتقاره لي عبر السنين، ولأوّل مرّة أطلب منه مساعدتي
جعلني أدفع الثمن. أردت أن أفهمَه لكنّه صرخ في وجهي:

– افهم يا حمار!

في هذه الأثناء سمعنا جلبة خارج مكتبه. فُتح الباب وإذا برجل إيطالي يصرخ
ع رجال الأمن الّذين اصطحبوه إلى مكتب المدير. كان الرجل يصرخ بملء رئتَيه «
Direttore... Direttore»، أي «مدير» بالإيطالية، ويؤشّر بيدَيه، محاولًا تفسير ما
قوله. أكّد أحد العناصر أنّ الرجل صحافي إيطالي يودّون ترحيله بسبب انتهاء
لاحيّة سمة الدخول على جوازه. طلب المدير إيضاح ما يقوله الصحافي، لكنّ أحدًا
لم يقدر.

علا صراخ الرجل.

رفع المدير يدَيه:

– فليترجم لي أحد ما يقوله هذا المعتوه.

قفْت مستاء بين الموظّفين، والدم يغلي في عروقي بسبب عدم استجابة المدير

لطلبي. سأريك من منّا الحمار. توجّهت بالإيطالية للصحافي:
– ما المشكلة؟
ترب منّي، وضع يدَيه على كتفي وفي عينيه يأس.
جوك قل لهم إنّ زوجتي ما زالت في الفندق في بيروت. لا أريد الذهاب من دونها...
ِجوك. هي لا تتقن العربيّة... لا أريد الذهاب من دونها!
ترجمْت ما قاله، فأمر المدير بإحضار الزوجة وبترحيلهما معًا.
ني الإيطالي مرّات عدّة، وشعرْت بنظرات المدير الثاقبة وأنا أترك المكتب.
فيما أنا غارق في أفكاري، جاءني اتّصال من نبال.
– إيهاب، هناك شيء مهمّ أريد أن أكلّمك به.
– أنا أيضًا. نبال، لن تصدّقي...
إيهاب أرجوك. دعني أكمل.
– ...
– سأترك لبنان.
– ماذا؟
– لا أقدر أن أتحمّل الوضع الحالي. أنا خائفة...
– ستتركين... متى؟
– في الغد.
– ماذا؟
– سأذهب إلى فرنسا حتّى تهدأ الأوضاع.
– ...
إيهاب، أريدك أن تأتي معي. أعرف أنّ الأشياء بيننا في أوّلها، إلّا أنّي أودّ لو تأتي معي. ستكون بداية جديدة لنا. وهناك سنرى...
– نبال لا أقدر. ليس الآن.
أنا أعرف أنّ ما أطلبه منك صعب جدًّا، لكنّي أرجوك أن تفكّر في الأمر.
– لن أقدر الآن.
– أنا أتفهّم.
خبارها بما وجدت، وأنّي أصبحت قريبًا من حلّ لغز أبي. الآن أكثر من قبل، أصرّ على رفة ما حلّ به. أردتها أن تبقى، وأن تعلم بمدى حاجتي إليها. لكنّ الكلمات عاندتني.
– أتمنّى لكِ التوفيق، قلت لها باستسلام.
شكرًا لك. إيهاب، أريد أن أسالك شيئًا واحدًا قبل أن أذهب. قلتَ يومًا: إنّ هناك شيئًا صعب من أن لا يحبّك أحد. ما هو؟
تذكّرتُ كلماتي لها.
– نبال، لن أقدر على تفسيره، ولغات العالم كلّه غير قادرة على وصفه. لن تعرفيه إلّا إذا اختبرتِه.
رتُ المكاتب نحو موقف السيّارات.
سمعتُ اسمي. استدرتُ فإذا بمتري يناديني.
إيهاب، أنت على ما يرام؟

– ماذا؟
– مررتَ بجانبي ولم ترَني.
– عفوًا يا متري.
ى أين أنت ذاهب؟
عليّ التحرّي عن أمر ما.
أحضرْت الحقيبة الأخيرة. وهي في المكتب بانتظارك.
– نعم نعم... أريد أن أراها. شكرًا لك. سأتفرّغ لها غدًا، وحتّى آخر يوم من حياتي.
– إيهاب، ما هذا الّذي تقوله؟ لستَ على ما يرام.
أخبرته بأنّ الحقيبة تخصّ والدي، وبحاجتي إلى سجلّات المديريّة العامّة للأمن وكيف رفض المدير مساعدتي. وقلت له سأحاول الحصول على السجلّات بشتّى لسبل...
– إيهاب. انتبه إلى ما أنت مقدم عليه، قد تُهان أو تُطرد من عملك وقد تُحاكَم إذا خللت بالقانون.
– لا يهمّني، سأحصل عليها بأيّ وسيلة كانت.
– إذا أقدمت على ما تخطّط له قد تدفع ثمنًا غاليًا.
– وإذا تراجعتُ يا متري لن أحتمل حياتي...

* * *

أمام مدخل المديريّة العامّة للأمن الداخلي. أحسست بهول ما أنا مُقدم عليه. عليّ د من أنّ الحقيبة كانت تخصّ والدي، والطريقة الوحيدة هي معرفة ما إذا كان اسمه سجلّ الرحلة المدوّنة على الحقيبة. عرقَت يداي وعادت إلى ذهني كلمات متري دير وصورة عزّام، والأحداث الأخيرة الّتي جاءت بي إلى هنا...
ت كلّ الصور من ذهني، وطبعت مكانها وجه أبي ودخلت.
ت أحد الحرّاس عن مكتب الأرشيف، فدلّني عليه. دخلته فطالعني أحد الضبّاط.
ته بأنّ مديري أرسلني للتحقّق من سجلّات قديمة لسفرات وأسماء. طلبت منه ى الأرشيف. رفض وأعلمني أنّي بحاجة إلى تصريح خطّي، أو إلى أمْر من المدّعي لعامّ للحصول على كشف كهذا.
- أرجوك، مديري في انتظاري والأمر مهمّ جدًّا.
- أنا آسف، عليّ التقيّد بالتعليمات.
حاولت حثّه على السماح لي بالدخول، لكنّه رفض رفضًا قاطعًا.
في هذه الأثناء، دخل أحد زملائه، وكان قد استمع إلى مطلبي، فتوجّه إليه:
– مديره ومسؤولنا من أعزّ الأصحاب، أقترح عليك تأمين ما يطلبه.
– عليّ التقيّد بالتعليمات.
نظر إليه زميله مستاء.
– ليست المرّة الأولى...
خلني غرفة في الطبقة السفلية، ثمّ دلّني على خزانة حديدية تحتوي على ملفّات لك الفترة. المكان فسيح جدًّا، تملؤه خزانات حديديّة جرّارة، تمتدّ من السقف حتّى

ض وتتحرّك فوق سكك حديديّة. لم أرَ مثيلها من قبل. تحتوي على آلاف الملفّات
ٔوراق. أخرجت صناديق الخزانة وبدأت بحثي. بعد دقائق وجدت لوائح السفر، حوّلتها
لى تاريخ اليوم المحدّد. قرأت الأسماء المدوّنة فوجدت اسم أبي بينها.
أحسست بضيق في صدري.
هذا دليل قاطع. لقد جاء أبي إلى لبنان بعد يوم من مقتل جدّتي. لا شكّ في ذلك
أقدر أن أستوعب ما عناه ذلك لي، تسارعَت الأفكار إلى رأسي كفيضان لم أتمكّن
من احتوائه.
لخروج قبل أن أثير الشكوك. شكرت الضابط وتوجّهت نحو الخارج. حين اجتازت
اي رصيف الطريق، تسمّرت في مكاني. نسيت أمرًا مهمًّا.
عليّ معرفة ما إذا كان سافر من جديد.
ت إلى الداخل وأعلمت الضابط بحاجتي للتأكّد من معلومة أخيرة، فسمح لي
بذلك.
كانت السجلّات تشمل معلومات ثلاثة أشهر. وجدت اسمه سريعًا في رحلة إقلاع
بعد ثلاثة أيّام من حضوره. مكث ثلاثة أيّام ثمّ غادر!
وبينما أنا خارج، استوقفني فجأة مسؤول الدائرة. عرَّفه الضابط بي.
تفاديت النظر في عينيه.
– مديرك أرسلك؟
– نعم.
– كيف حاله؟
– بخير. قلت له وأنا أنظر إلى الأرض.
– بلّغه سلامي.

* * *

لبيت، جلست أمام مكتبي، لم أشعل الضوء، بقيت في الظلمة وأنا أحاول فهم
ومات الجديدة. كلّ ما أمكنني التفكير فيه هو أنّه أتى ولم يجدني. لم أعرف هل
ح أو أحزن. جاء والدي بعد يوم من احتراق السيّارة وذهابي إلى أوتيل ديو. كلّ
شكوكي بأنّه نسيني قد تبخّرت. لقد جاء.
حسست بفرح المعرفة. شكوكي على مدى السنين كانت خاطئة. لقد جاء.
تذكّرت ما قاله الكاتب العدل: «في كثير من الأحيان، ظاهر الأشياء ليس حقيقتها».
اء والدي، ولسبب ما لم يجدني. والآن أعرف أنّه بعد يوم من تيتّمي، كان على بعد
كيلومترات معدودة منّي. يا لهول الفاجعة! مسافة قصيرة فصلتني عنه، شوارع
لة وبعض الأبنية حجبت خلاصي.
ظر يا شادي. بيروت وقفت بيني وبين أبي، وأسدلت ستارًا غطّاني فلم ترَني عيناه.
بل أن تموت بيروت يا شادي، وتصبح الباصات ثابتة، وتنتهي الشوارع فجأة، وتُعلّق
لأغطية بين الأبنية، وتوضع صور الّذين استشهدوا في زواياها، وقفت بيروت بيني
وبينه.
ا سأتفحّص الحقيبة ودلائلها، ومثلما وجدت أصحاب الحقائب الأخرى، ربّما سأجد

، أو على الأقلّ دليلًا عمّا حصل له.

* * *

ت باكرًا جدًّا ذلك الصباح، على غير عادة. أوقفت سيّارتي في المكان المعهود سرعت نحو المكتب.

جديد، قلت لنفسي، وأمل جديد. لم أرد الاحتفال بما علمت، حتّى أصل إلى عمق شياء. لقد جاء أبي، لا شكّ في ذلك، وهذه حقيبته. وعلى مرّ السنين كانت قريبة كأنّ القدر يستهزئ بي. والحصان الخشبي على مكتبي...

أصحاب الحقائب وقصصهم. هل جاء دوري الآن، هل ستحمل حقيبة أبي الخلاص خلها؟ هل سأستمع إلى من يخبرني قصّته؟ أيّ فرحة تنتظرني، أيّ أمل يدقّ بابي؟

، إلى مكتب متري، قصدت الحقيبة، لكنّي لم أجدها. أسرعت إلى غرفة الحجز لكنّها كانت خالية. أين وضعتَها يا متري؟ لِمَ أزحتها من مكانها؟

جّهت نحو المكتب من جديد فالتقيت بعزّام في أحد الممرّات. بدت الدهشة على جهه حين رآني، نظر إلى ساعته ثمّ قال لي: «المدير يودّ رؤيتك».

– الآن؟

– نعم.

ن أين جئتني يا عزّام؟ لا وقت لي أضيّعه معك ومع المدير.

– ماذا يريد؟

– سترى.

بقني عدّة خطوات وعبر الجهاز المحمول، همس بضع كلمات لم أتمكّن من ماعها. وصلنا إلى مكتب المدير، وإذ بالباب يُفتح ويخرج مدير قسم المعلومات. مرّ بجانبي، لم ينظر إليّ ولم يحيِّني برغم ما بيننا من معرفة، لكنّي لم أعِر ضوع اهتمامًا. دخلنا المكتب مباشرة من دون انتظار هذه المرّة. كان المدير جالسًا ، مكتبه كالعادة، ومعه إثنان من مرافقيه. دخل الموضوع مباشرة.

– بخصوص الحقيبة، أخبِرني بتفاصيلها ربّما أمكنني المساعدة.

يريد أن يساعدني؟ هذا جديد.

خبرته بالإقامة الدائمة وبالورقة داخل الحصان الخشبي، والأحرف الأولى للأسماء. ر من النظر إلى ساعة الحائط. أردت الرجوع إلى مكتب متري للحصول على يبة إلّا أنّه لم يصرفني. عاد وسأل عن الحقائب الأخرى.

مّ باقي الحقائب الآن؟ ولمَ هذا الاهتمام المفاجئ؟ أراد أن يقصف عمري البارحة، فماذا تغيّر اليوم؟

الوقت بين أسئلته وجواباتي القصيرة. في هذه الأثناء، رنّ جهازي الخليوي. نظر إليّ مدير نظرة تأنيب، لأنّي نسيت التقيّد بتعليماته الصارمة حول إطفاء الخليوي داخل اعتذرت وأمسكت بالخليوي محاولًا إطفاءَه، رأيت اسم الأب نعمان على شاشته صغيرة. تعجّبت من اتّصاله في مثل هذه الساعة المبكّرة. لكنّي، واحترامًا لإرادة دير، أطفأت الخليوي من دون تردّد.

بدأت أضيق ذرعًا.

ت استئذانه والمغادرة، وخلال ذلك قُرع الباب. نظر المدير إلى مرافقَيه اللذَين
إليه عدم معرفة الطارق. انفتح الباب فجأة من دون إذن المدير، ولدهشتي كان
حسن. وبلا استئذان أو تحيّة للرائد توجّه إليّ:
لك رسالة من الأب نعمان. روني عبّود وأبناء عمّه يبحثون عنك... اتّصل به حالًا.
– أيّ شيء آخر؟ صرخ المدير في وجهه.
– لا، هذا كلّ شيء. وأغلق الباب.
روني عبّود؟ الولد الّذي لكمته في صغري؟ ماذا يعني الأب نعمان بذلك؟ ماذا
صل؟ لم أعرف، حتّى أنّ المسلّحين كانوا أولاد عمّ روني. لا شكّ أنّها رسالة مبطّنة
نعمان، فحواها أنّ أحدًا يبحث عنّي. شيء يحدث، هذا سبب وجودي في مكتب
المدير، وهو يماطلني عن قصد. ما الّذي ينوي فعله؟ ولماذا ينظر إلى ساعة الحائط
باستمرار؟ لماذا لم يحيّني مدير قسم المعلومات؟ هل اكتشفوا البرنامج الّذي
ه لتلقّي لوائح المسافرين عبر الإنترنت؟ أم أنّ المدير علم بدخولي إلى المديريّة
مّة للأمن الداخلي؟ هل اتّصل به صديقه المسؤول هناك فكشف أمري؟ هل تفاجأ
إلمامي بالإيطالية فصار يحقّق ويسأل؟ عرفت أنّي أخطأت في تصرّفي حينها. لمَ
لا يواجهني؟ ليس من عادته المراوغة، فهو صريح وفجّ. ماذا يحصل؟
- أستميحك عذرًا يا حضرة المدير، عليّ مكالمة الأب نعمان.
ت على وجهه علامات عدم ارتياح.
– اطلبه من هنا.
أشار إلى الهاتف على مكتبه وأصرّ.
– هيّا اطلبه.
. عرفت أنّني إن طلبته من هنا، فلن يسعني السؤال عن قصده، لكنّي مددت يدي
فإذا بالهاتف يرنّ. رفع المدير السمّاعة قبل أن أطالها. استمع ثمّ أعادها إلى
مكانها، وتوجّه إلى أحد مرافقيه.
- هناك رجل يدّعي أنّه جهاد الحوّاس!
– جهاد الحوّاس؟ سأله مرافقه بهلع.
– نعم.
– معقول؟
لحوّاس اسم معروف جدًّا. هو رجل المقاومة الّذي عمل منذ الثمانينيّات على دحر
لال الإسرائيلي، وتتّصل باسمه هالة من السرّية والتساؤلات حول أصله وهويّته
الحقيقية، تلاحقه المخابرات الأجنبية منذ سنين... هو بطل في نظر اللبنانيين
العرب، ولكن إرهابي في نظر إسرائيل والغرب. إذا تمّ توقيفه في المطار، فذلك
حدث كبير.
وقف المدير ثمّ قال:
– انتظروا هنا، سأعود سريعًا.
سحب هو وأحد المرافقين. بقيتُ في الغرفة مع عزّام والمرافق الآخر. ساد صمت
بيننا. كان عزّام يتفادى النظر إليّ، بينما لم يرفع المرافق نظره عنّي. بعد قليل
در جهاز المرافق خشخشات...

– نعم.
– ...
– وصلوا!
– ...
– شكرًا.
توجّه الينا:
– ابقوا هنا لحظة.
خرج من المكتب. أصبحت وحدي مع الرقيب عزّام.
– ماذا يحدث يا رقيب عزّام؟
لم يُجبني.
– قل لي ماذا يحدث؟ من وصل؟
– ستعرف بعد لحظات.
حسست بخطر مفاجئ. حدسي لا يخطئ. شيء سيّئ سيقع. اتّصال الأب نعمان، ته، طريقة حسن في اقتحام المكتب، هو الّذي يخاف من خياله. واختفاء الحقيبة. يء غريب يحصل...
الرحيل. عليّ الهرب. الآن. وقفت ثمّ قلت لعزّام:
عليّ مكالمة الأب نعمان.
– ابقَ مكانك. ألم تسمع أمر المدير؟
تجاهلت ما قاله وتوجّهت نحو الباب.
– عليّ مكالمته، ضروري.
عندها صرخ:
إيهاب، قلت لك ابقَ مكانك.
هبّ ليوصد الباب بجسمه.
الهرب، ولن يقف عزّام في وجهي. ها إنّ قبضتي تتهيّأ، وتعتصر الأيّام الخوالي، د لحظات القضاء على روني عبّود. ألمها الخفيف الّذي لم يفارقني طوال عمري اقم. دقّات قلبي السريعة عاودتني، وأنفاسي المتقطّعة أدخلت الهواء بصعوبة.
اغرب عن وجهي! صرخت فيه.
– إيهاب ابقَ مكا...
قبل أن ينهي كلمته، كانت قبضتي اليسرى تصدّ مصدر كلامه. انخلع رأسه إلى الوراء بقوّة، فاصطدم بالباب وراءه، وهوى إلى الأرض بلا حراك. شعرت بألم كسرت يدي، أو انحلّ معصمي. ضغطت بيدي على صدري وخرجت من المكتب.
م أرَ المدير أو مرافقيه، توجّهت مسرعًا عبر الممرّات، ونزلت الأدراج نحو موقف ارات. كان بيني وبين سيّارتي مسافة طويلة ومساحة مكشوفة بسبب إصراري على فها بعيدًا عن المدخل. لأوّل مرّة شعرت بخطأي. رأيت رجال الأمن يركضون عبر الساحة، بعضهم نحو مدخل مبنى المطار، وبعضهم نحو طريق الخروج. كيف ى سيّارتي الآن؟ عليّ الركض أو الزحف، المهمّ ألّا يروني. على كلّ الأحوال يعرفون سيّارتي، فلن يدَعوني أمرّ عبر حاجز الخروج، ما العمل؟ آخذ سيّارة أجرة؟ لكنّ

ول إليها يتوجّب العودة إلى داخل مبنى المطار...
– إيهاب!
فوجئت بحسَن خلفي.
– اتبعني. أسرع...
ته. نزل عبر الدرج إلى مستوى غير مكشوف من الموقف.
– انتظر.
بعد لحظات أوقف متري سيّارته أمامنا.
– خذها واهرب. هيّا.
– متري. الحقيبة؟
– اختفت.

* * *

إلى منطقة الحدث، إلى شارع عمارتي. في الطريق طلبت بواسطة الخليوي الأب
ن، لكنّي لم ألقَ جوابًا. حاولت مرّات عدّة ولكنّ النتيجة كانت نفسها.
ت السيّارة بعيدًا، واتّجهت إلى مبنى الشقّة بحذر. دخلت دكّان الحيّ لأتبيّن الشقّة
ر شبّاك غرفة النوم. لم أرَ شيئًا خارجًا عن المألوف. ربّما لم يتبعني أحد. جلت
ببصري في الشارع، الحركة عادية. رأيت سيّارة تويوتا بيضاء على الجهة المقابلة
لبناية، داخلها رؤوس جامدة. عدت بنظري إلى الشقّة، عليّ الحصول على الأرشيف
الكمبيوتر وكلّ الأدلّة. حصاد عمر، لا يمكنني التخلّي عنه، ستكون كارثة إذا سبقوني
عليّ أخذ الوثائق. أخبّئها في مكان آمن إلى أن تهدأ الأمور أو أوضّح سبب فعلتي.
ت له إنّي أبحث عن أبي، لمَ لا يصدّقني؟ أتراه غير عابئ بي وببحثي؟ فماذا كان
يحضّر؟ ما قصد الأب نعمان بأنّ روني عبّود وأبناء عمّه يبحثون عنّي؟ ماذا تقصد يا
نعمان؟ «اتّصل بي ضروري» قال...
هل أراد المدير طردي من المطار؟ لم التكتّم إذًا؟ ولمَ تحرّك الجنود لإقفال
ريق؟ أكان ذلك بسبب ضربي لعزّام، أم من أجل شيء آخر؟
زّت ستائر غرفة النوم اهتزازًا بسيطًا... لكنّها اهتزّت. أبقيت عينَيّ على الستائر كأنّي
د الجزم. أعرف أنّها اهتزّت فلمَ الشكّ؟
دث ما كنت أخشاه. أمْن أو جيش داخل شقّتي؟ لكن كيف وصلوا بهذه السرعة؟
ف وصلوا قبلي؟ بدأت أتدارك الأمر. لا بدّ أنّهم هنا منذ وقت، ممّا يعني أنّ المدير
ن يحضّر لعمل أكبر من طردي. كان سيلقي القبض عليّ. يا إلهي! لا أصدّق. ولمَ لمْ
فعل إذًا؟ لمَ استدراجي إلى مكتبه، ومحاولة إلهائي بقصّة الحقيبة، والوعد
اعدتي؟ التوقيف أمر بسيط عادة. يأتي رجال الأمن، يأخذون الشخص إلى سجن
لمطار، ومن ثمّ إلى وزارة الداخلية. لمْ يرد أن يرى الموظّفون مشهد توقيفي؟ لكنّ
هذا يتعارض وشخصيّته. طبعًا، لَكَمْ أراد إذلالي أمام الجميع.
كرًا على غير عادة، رأيت الدهشة على وجه عزّام، ثمّ اصطحبني إلى مكتب المدير.
له إن وصلت باكرًا؟ رجال الأمن دائمًا جاهزون. هل كان المدير في انتظار فريق من
خارج المطار، لكن من؟

أمْن الدولة أو الجيش؟ في الحالتَين ينتهي بي الأمر في وزارة الداخلية، تمامًا كما
ـ قبض عليّ أمن المطار. ماذا إذًا؟ ماذا إذًا؟
لا. لا يمكن. المخابرات؟ غير ممكن، لا يفعلها. لا يغرق إلى هذا الدَّرْك. كلّ ما
هو الحصول على بعض بيانات السفر. شيء غير مهمّ، وحتّى لو كذبت وادّعيت
بأنّه أرسلني، ولو عاندته بعد أن هدّدني بقصف عمري. المخابرات؟ لمَ فعلتَها يا
دير؟ عليّ الفرار.
خذ سيّارة متري؟ أم أستقلّ سيّارة أجرة؟ وما مصير الملفّات والكمبيوتر وكلّ
شياء الأخرى؟ انتهى أمرها. ربّما يتركون أغراضي في مكانها، فهي لم تنفعني،
خمسة عشر عامًا ولم ألقَ منها جوابًا. فبمَ تنفعهم؟
رأيت رجلًا يخرج من المبنى وفي يدَيه صندوق. ثمّ آخَر يحمل جهاز كمبيوتر. لا
هذه أغراضي. يأخذون أغراضي. عليّ الرحيل الآن.
ـت الطريق للوصول إلى سيّارة متري. سمعت صراخًا خلفي.
– مستر إيهاب... مستر إيهاب...
ـت الخطى من دون النظر إلى الوراء. ارتفع الصوت.
– مستر إيهاب... مستر إيهاب...
من يناديني؟ نظرت نحو مصدر الصوت، إنّها إيمي الفيليبّينية. يا لمصيبتي. إنّه يوم
تنظيف الشقّة. تركت البيت باكرًا ونسيتها. نظرْت أمامي محاولًا تجاهلها فازداد
صراخها.
– مستر إيهاب... مستر إيهاب...
لا أصدّق. اسكتي يا مخلوقة. اسكتي. لماذا بقيتِ هنا؟ اسكتي. نظرت نحو سيّارة
وتا البيضاء، فرأيت شخصَين يترجّلان منها ويسرعان نحوي. أخذت أركض، لن أصل
السيّارة الآن، عليّ الهروب بين الشوارع ومن ثمّ إيجاد سيّارة أجرة.
شعرت بهما خلفي، تجاوزا إيمي فانتبهَت إلى ما يحصل، وصارت تصرخ
بالإنكليزية:
ـلب! هيلب! سَمْ وان هيلب مستر إيهاب!
يا ساذجة يا إيمي، من سيساعدني؟
ـتُ على رجْلَيّ. اجتزت مبنيَين، وكنت في صدد الالتحاق بشارع آخر، حين انتصب
ـي رجل في وسط الطريق، وفي يده مسدّس.
سيّارة ثانية كانت على رأس الشارع لم ألحظها أو أرها. وقفْت في مكاني مشدوهًا.
رجال من ورائي، فأحسست بضربة من الخلف على فخذي أوقعتني أرضًا. توقّفَت
يّارة التويوتا قربي، فزجّوني في الخلف. أحاطني شخص من كلّ جهة، كبّلوا يدَيّ
وراء ظهري، ثمّ أغمضوا عينَيّ بعصبة سوداء. ابتعدت السيّارة ومعها صراخ إيمي
لّذي لم يتوقّف.
ـت عشرون دقيقة تقريبًا وأنا ما زلت في وضعي هذا، بين الحين والآخر كنت أشعر
ضغط على رأسي، فأنحني إلى أرض السيّارة. رنّ جهازي الخليوي، فانتزعه منّي
أحدهم. لا بدّ أنّه الأب نعمان... رنّ الخليوي مرّة ثانية ثمّ ثالثة فرابعة ثمّ
انقطع صوته...

بعد حين توقّفنا.
ادوني مشيًا معصوب العينَين. أحسست بعتبة أمامي، ثمّ وضعوني إزاء حائط. شعرت بأشخاص حولي وسمعت كلامًا كثيرًا.
رفع أحدهم العصبة عن وجهي.
رقيب إيهاب. أقدّم لك الرقيب جابر.
رأيت أمامي رجلًا متوسّط البنية، بعينَين صغيرتَين لمّاعتَين وثياب مدنيّة. شاربه أسود ب، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.
ست بألم مفاجئ في وسطي، اخترق أعلى بطني كسكّين حادّة ضَغَطتْ على داخلية حتّى انفجرت، من جرّاء التحام قبضة عبرَت كالبرق من أمامي إلى جلد ي فمعدتي، وحتّى عمودي الفقري.
سقطتُ على الأرض.
 سحب الهواء إلى رئتَيّ لكن من دون جدوى. سالت الدموع من عينَيّ وامتزجت الّذي بلّل أنفي وفمي. انتفخَت الشرايين في رأسي، أحسسْت أنّ عينَيّ تريدان ة وجهي، وانساب إلى فمي طعم معدني حادّ. أردت الصراخ فخرج من فمي أنين، مثل كلاب مسعورة. تقلّبت على الأرض ويداي مكبّلتان إلى الخلف، وأنا أرتجف ًا ركبتَيّ إلى وجهي... إلى أن بدأ الهواء يعود إليّ.
سمعت ضحكًا وهزلًا حولي. رأيت الرقيب جابر واقفًا مكانه، عيناه تلمعان، يداه وراء ظهره والابتسامة تلازمه.
قال أحد الواقفين:
– اخلع! كان هذا سلام الرقيب جابر. انتظر حتّى تختبر قبلته.
ضحك المجتمعون من حولي. أمّا الرقيب جابر فلم يتحرّك أو يغيّر من تعابير وجهه الباسم.
ا الله أين أنا؟ ماذا يحدث؟ من هؤلاء؟ أنا رقيب في الدولة. كيف يحدث لي هذا؟ لم كب جرمًا. هذا من صنعكما يا مدير ويا عزّام. يا أولاد الكلب، في أيّ كابوس زججتم بي؟
شعرت بأيادٍ تعبر جسمي، منتزعة عنّي ثياب الخدمة. لم أقدر على الحراك، كأنّ مي انقطعت كهرباؤه. رموا ببذلتي الرسمية في إحدى الزوايا. وجدت نفسي عاريًا ، ظهري وحولي عدد من الرجال. ثمّ حملني اثنان منهم إلى غرفة أخرى، حيث ي على كرسيّ من خيزران مجوّف. انهالت عليّ دلاءُ ماء بارد ارتعش لها جسمي، على الثبات فوق الكرسيّ، فحملني الرجلان من جديد وأجلساني. كيف خارت قواي بهذه السرعة؟ ثبّتوا كتفَيّ إلى الكرسيّ بشريط لاصق، ثمّ رجلَيّ إلى عارضاتها.
فكّرت في حسن ومتري، لا بدّ أنّهم أخبروا الأب نعمان بما حصل، لكن كيف الجهة الّتي أخذَتني؟ كم من الوقت سيمضي قبل إخراجي؟ وهل سيقدر على إطلاق سراحي أصلًا؟
– لأيّ مخابرات تعمل؟
– ماذا؟ مخابرات!
شبية انهالت على عظام رجلَيَّ الأمامية... اختفَت الصور من أمامي لثوان ثمّ عادت.

ذه قبلة الرقيب جابر إذًا!
سمعت السؤال من جديد. فقلت بدهشة:
– مخابرات!
قبلة ثانية من الرقيب جابر...
ت، على جلدي، بلسعة الشريط اللاصق، الّذي أوقف جسمي المندفع إلى الأمام.
جدنا آلاف المعلومات والوثائق. أرقام رحلات وأسماء مسافرين.
- لست مخابرات! صرخت.
قبلة جديدة أقوى من قبل، من الوجه الباسم نفسه.
ئة وأربعون ألف دولار في حساب سويسرا. لوائح المطار عبر الإنترنت. هيّا اعترف!
أقول الصدق! لست مخابرات!
هبتَ سرًّا إلى مديرية الأمن الداخلي. عمّ كنت تبحث؟
– ...
سلام آخر من الرقيب جابر...
– أتعمل للمخابرات الألمانيّة؟ أو الإسرائيليّة؟
يا إلهي يظنّونني مخابرات إسرائيليّة!
– من وظّفك؟
– ...
– كم لغة تتكلّم؟
– ...
– كيف تتّصل بهم؟
– ...
وقت طويل وأنا بين السؤال والسلام والقبل، وجوابي واحد. لست مخابرات.
أحدهم. شعرت بوخز إبرة على كتفي، ثمّ موجة دفء اجتازت أعضائي حتّى رأسي.
شعرت بارتياح مفاجئ وزال الألم بسرعة البرق.
– إيه. نيَّالك...
ضحكوا.
بدأت أشعر بوخز كأنّ فيلقًا من النمل تغلغل في عروقي، أردت الحكاك لكنّي لم
أن أحرّك يدي، بدأ الإحساس كموجات وعلى دفعات، تدفّقٌ دافئ في البدء ثمّ
سكاكين تسلخ جلدي وقضبان نار تكويني. وبدأت الغرفة بالدوران...
الأسئلة نفسها. الجواب نفسه. القُبل نفسها. بقينا على هذه الرقصة حتّى حلّ الليل.
كم من الوقت مضى. وكم كانت لحظات غيابي. لكنّي رأيت العتمة عبر كوّة
النافذة.
– يبدو أنّ اعترافك سيتطلّب وقتًا طويلًا. أهلًا وسهلًا بك.
ني إلى غرفة جانبية ورموا بي على أرضها. وضعت رأسي على باطونها وأغمضت
عينَيّ. بعد وقت، بدأت الحرارة تزول، ثمّ لفحتني ريح باردة لم أشعر بمثلها من
قبل.

* * *

سألني شادي يومًا، لمَ ليس لنا رفيقات كما نرى في الأفلام والمسلسلات، نقبّلهنّ
مك أيديهنّ ويجلسن إلى جانبنا في سيّارات مكشوفة السطح، على شواطئ تعجّ
ساء وفتيات عاريات السيقان؟ لماذا شَعْرنا ليس أشقر وعيوننا ليست زرقاء وليس
لنا مِعد مقسّمة، ولا تملأ تحرّكاتنا موسيقى تزيد على مواقفنا فرحًا
ورومنسية؟

ولمَ ليس لنا بيوت تُقلى فيها البطاطا، وتُسكب في صحون على مائدة بغطاء
بلاستيكي، وتوضع فيها قناني البيبسي بوفرة في صندوق فوق رخام المجلى؟

لمَ ليس عندنا كهرباء، وماؤنا طعمه زيت، ولا نحصل على ألواح من شوكولا
الأونيكا قدر ما نشاء؟

لمَ لا تصلّي معنا يا إيهاب؟ لسنا من الدين نفسه، وهناك فرق بيننا، مع أنّ كلّ
شيء آخر نتطابق فيه؟

لمَ تريد الموسيقى يا شادي، فهي لن تنفعنا بشيء، لأنّ مشاعرنا خالية من
كلّ ما وصفت، فلن تقدر لا الموسيقى ولا غيرها الزيادة أو النقصان فيها؟ ألا تعرف
نّ المشاعر مثل المواهب، إن لم نستعملها نخسرها؟ أردتَ كلّ ما لم تملك يا
. همّك الألوان والمعد المقسّمة وضوء المصابيح وطعم الماء، ونسيت أنّي قبِلتك
أنت فلم يعوزك شيء، كنتَ عائلتي وأخي وصورتي في المرآة.

معًا كنّا عائلة يا شادي، وإن تفرّقنا فنحن أيتام.

ستبقى دومًا بالنسبة إليّ في السابعة من عمرك، يُجلسك الأب نعمان بجانبي، ولن
أرى فيك يومًا ما رآه آخرون فيّ: يتيمًا.

تَ أيضًا ترى النافذة من المنحدر، وتقفز عبرها حين تهرب من الظلمة الّتي تفيض؟
غمرتْك هذه الظلمة يومًا، وجعلتْ منك امتدادًا لمنطقة انعدام النور؟ أهذا ما حدث؟
ذا نسيت التراتيل والأفوكادو الدسمة والنوم أخيرًا من دون بكاء؟

ن عليّ الإصغاء، فما نفعي إن وجدت أبي وخسرتك يا شادي؟

أصلِّ معك، لأنّي كنت أعدّ الطائرات الّتي تحطّ، تلك الصناديق الّتي تُحضر مَن
، هؤلاء الّذين يأتون من حيث يعيش ذوو المعد المقسّمة.

ليس هناك فرق بيننا يا شادي، إلّا ما أورثَنا إيّاه أهلنا. ربّما والدك أيضًا لم يبحث
، أو بحث ولم يجدك، أو أخذه أحد تلك الأصوات الّتي كانت تأتينا كلّما اجتمعت، في
لة واحدة، مفردات اللغة الّتي أوجدتها لنا الحرب.

ا همّ، ما همّ كلّ ذلك؟ فها أنا وأنت من دون والدَين ومن دون بيوت تُقلى فيها
بطاطا وتُسكب...

* * *

ت أصواتًا خافتة خلف الباب المغلق. لم أقدر على استجماع ما يقولون، لأنّ الصقيع
ضى على حواسّي. تنتابني البرودة مثل موج البحر، ترفعني ثمّ تُلقيني، ومعها تبهت
اسيسي ثمّ تظهر، فيضربني غثيان كالذي كان ينتابني زمن طفولتي، في ليالي

لويلة. صرت أتقلّب محاولًا تخفيف آلامي الّتي عادت أكثر من السابق، لكن من دون نتيجة.

إمّا نعم وإمّا لا، إمّا نهار وإمّا ليل، كان الأب نعمان يقول. فإن وجدتَ نفسك في فترة عصر، فاعلم أنّ الليل مقبل لا محالة، فعليك الرجوع، وإلّا فالظلمة.

ها أنا في الرمادي والظلمة تفيض نحوي، وتستبيحني برودة وخوف ومشاعر ستسلام. كنتَ أقوى منّي أيّها الكاتب الياس بشارة، حين لم يبقَ لك خيار إلّا عدم لاستسلام، إذ كان لك حلم يواسيك، بمشاعر الحبّ والفرح والأمان، وكلّ ما يتمنّاه لك، وذكريات من ماضٍ تمثُل بما يَسُرّ وما يُضني. كان لك من الاثنين، النهار والليل، ر والظلمة. أمّا أنا، في لحظتي هذه، فأحاديّ المبنى. جسمي محطّم وفكري أسير، س في داخلي عنف المقاومة.

انكشاف يحصل فيّ، وضوح يملأني، وأنا مطروح على الأرض الباردة ورائحة بول عتيق تملأ أنفي، ويداي أصبحتا ورائي فلم تعودا تنفعانني، وجسمي عارٍ يلتصق رض، في غرفة ذات نوافذ حديدية وأرض قذرة. لكنّي، في انكساري، أدركُ أنّي في لم أخسر حرّيّتي، بل خسرت وهمي. وهمي بأنّي حرّ من ماضيَّ وديني ومجتمعي، خلّفات سني الحرب.

بلدي سلّمني... ابن ديني دفع بي نحو الذئاب... أخي ألقاني في البئر.

سرت وهمي بأنّي كنت في أرض الحرّيّات قبل وصولي إلى هذه الغرفة. كنت في سجن، ولو أنّه أكبر من هذا. سجن من أسوأ الأنواع، حيث لا إرادة فيه للتحرّر، ولا إدراك لطبيعته.

كان روني يعيّرني بأنّي يتيم، لكنّي أسوأ بكثير من ذلك، أسوأ بكثير...

أنا يتيم وأسير.

سير من قَبل أن أُقيَّد. من قبل أن أُرمى في السيّارة ثمّ أَسقط في هذه الغرفة، وتُنزع عنّي ثيابي وتمرّ على معدتي قبضة تمرّست بأجساد تيتّمَت بفعل اندثار أبناء ار وانتشار الرماديين، أبناء الفصول المتقلّبة والمراوح الدوّارة. لأنّ خوفها أكبر من حبّها، وأنانيتها أعظم من دينها.

طويل جدًّا. رغم إعيائي ونعاسي، عاندني النوم. وبين اليقظة والأوجاع والغثيان، لى ذاكرتي أيّام مضت، ووجوه وأصوات.

حاولت تذكّر وجه نبال لكنّه فرّ منّي، أرى شكلها وثيابها، لكنّي لم أذكر تفاصيل ها، كأنّي لم أرها منذ سنين. لم أقدر على استحضارها، حتّى في مخيّلتي، إلى هذا مكان الوسخ. وجه ملائكيّ مثل وجهها لا يزور جهنّم كهذه. أحسست وكأنّ سنين فصلتنا وعهدًا بعيدًا جمعنا.

لمَ رحلتِ؟ لم تخلّيتِ عنّي؟ أم أنا تخلّيت عنك؟

المكوث والبحث عن أبي... فعلتُ بك مثلما فعلتُ بشادي. همّني الماضي أكثر من الحاضر، الذكرى أكثر من صنعها، ما ينقصني أكثر ممّا عندي. أهذا ما فعلتُه بك؟

«ننال ما نستحقّ»، كان الأب نعمان يقول.

هل هذا ما حصل لي؟ خروجي من السيّارة جعلها ثابتة، بانتظار مرسال البارود الحديد، ففرّطتُ بكما، يا جدّتي ويا ابن الجيران، من أجل علبة فضّية؟ وها قد ضاق

الذرع بها فاحمرّ وجهها وكأن الصدأ قد علاه، كاحتجاج على فراغ محتواها من معانيه. ثمّ فرّطتُ بكَ يا شادي. بعد أن كان عليّ الإصغاء. والآن أفرّط بكِ يا نبال. لقد كنتَ أكثر من أخ يا شادي، وروحًا جديدة كنتِ لي يا نبال. لكنّي لم أرَ كلّ ـك، فقط رأيت ما ينقصني. «أردتَ كلّ ما لم تملك» قلتُ مرّة لشادي. ما أشدّ ـفاقي! وما أسخفني!

إنّي أكثر من يتيم يا روني... وأكثر من أسير يا شادي... أنا أيضًا أنانيّ يا نبال. ـيم. أسير. وأناني. أسوأ شخص على وجه الأرض، وأنال ما أستحقّ.

* * *

ـت رائحة قهوة ففتحت عينيّ. رأيت ضوءًا خافتًا عبر مفصل النافذة. أحسست ـما فظيع، كأنّي لم أشرب منذ دهر. حاولت الجلوس فآلمتني كلّ أعضائي. سمعت أصواتًا من الغرفة الموازية، فزحفت نحو الباب لأسمع ما يُقال. كانوا يتشاورون ـفي احتمال نقلي اليوم أم لا.

– اليوم 14 آذار. مظاهرة كبيرة...

– لا يهمّ.

– ننقله إلى بيروت ثمّ...

– ...

– قبل أن تكثر الجموع...

بعد قليل دخل عليّ أحدهم، ورمى في وجهي ثيابًا قديمة.

– البس.

ـوني إلى السيّارة، أجلسوني في الخلف بين عنصرَين وانطلقنا. نزعوا عنّي العصبة بعد دقائق، فعرفت المنطقة الّتي كنّا فيها.

ـيت الرقيب جابر إلى يميني والابتسامة لا تفارقه، وبين يدَيه جهازي الخليوي، ينقّب في أسمائه المحفوظة ويقرأ رسائله القصيرة.

ـخذ المدخل الشرقي لبيروت، قال للسائق.

ـجبنا الشوارع الّتي كانت شبه خالية بسبب تظاهرة اليوم. بين الحين والآخر، كنت ـى سيّارات محمّلة أعلامًا، وباصات محتشدة بالنّاس. كان الجوّ مكهربًا، وظهر إصرار ـي أعين الناس.

ـت إلى ذهني صوَر الحقائب وأصحابها. حملتني هذه الطرقات نفسها إلى بيوتهم ـحياتهم وآمالهم. وأنعش ذاكرتي الكاتب الياس بشارة بإصراره وعدم استسلامه. ـني يومها إلى مكان أرقى ممّا كنت عليه. جعلني، برؤيته الواضحة لحاجاته، أرى ـني أيضًا. «أريد هذا البلد بلدي وهذه الأرض أرضي»، قال. الآن أدركت ما تحمل هذه ـلمات من معانٍ.

ـصبت يا أستاذ، فمأساتنا هي من صنع أيدينا. وها أنا أختبرها في الشوارع الّتي اعتدت المرور فيها، هنا في عقر داري. ما هذا الوحش الّذي يعيش بيننا؟ لمَ لا يراه إلّا من تألّم؟ ولا يسمع صوته إلّا من خدشته مخالبه؟

يبدو يا شيخ نعيم أنّ للشيطان أيضًا اسمًا غير معلوم، لكنّي كشفته اليوم، إنّه

ش. هذا اسمه السرّي الّذي اكتشفته الآن. له أسماء أخرى كثيرة، ربّما أكثر من سعة وتسعين، ويتكلّم لغات عديدة، ويسكن شرقًا وغربًا وجنوبًا، وجُزرًا عبر البحار لف الصحاري. يأتي كلّ خريف ليقتات عندنا، ومن ثمّ ينجب أولادًا بوجوه آدمية، يجوبون بيننا وفي طرقاتنا، منهم من يظهر على شاشاتنا، ومنهم من يعتنق أدياننا فنقبَلهم.

ربّما أنا يتيم وأنانيّ، لكنّي لن أكون سجينًا بعد اليوم، سأشدّ شعره وأجعله يبصق أسنانه.

أتسمع يا شادي؟ سأجعلكَ تفتخر بي حتّى ولو كنت قد خذلتك ذات يوم. سأرفع سك الآن ولن أسمح للوحش بأن يأسرني، أو يمنع عنّي قدري.

بّما أنا أسوأ شخص وأنال ما أستحقّ، لكنّي قادر على تلقّي الغفران.

ا وحش من أخذ جدّتي، من حرمني من أبي، ومن جعل شادي يتيمًا يبكي في الليل. أدخلت الحرب إلى بيت نبال، ظلمت البوّاب، وأضعت ابن أمّ رامي.

اسمع يا وحش، أنا قادم إليك، لن أدعك تجوب طرقاتنا حُرًّا بعد اليوم، سأفشي سرّك للأب نعمان لكي يطردك من مدرستنا، وأقول للشيخ نعيم عنك ليستعيذ منك. انكشف سرّك وبان وجهك، وسمع صوتك كلّ الرجال والنساء والأطفال.

كلّنا ضدّك وكلّنا عليك.

فها أنا قادم يا وحش...

* * *

ا إلى أحد الشوارع الجنوبيّة، فاعترضنا عنصر من الدرك. أوقف درّاجته في منتصف ريق مانعًا مرور السيّارات. زمّر له السائق لكنّ الدركيّ أشار إليه بأنّ الطريق عة بسبب التظاهرة. اقترب السائق من الدرّاجة النارية والرصيف، غير عابئ بإشارات الدركيّ، فصرخ به الأخير، آمرًا بالتراجع. تجاهله السائق وتقدّم، فهبّ دركيّ أمام السيارة مانعًا عنّا المرور.

ل كلّ من السائق والراكب الأمامي وهجما على الدركي الّذي فوجئ بهما. لكنّه ردّ ضربة محكمة طرحت السائق أرضًا. وعلى عجلة، هبّ العنصر الّذي إلى جانبي في السيّارة لمساعدة زملائه.

يتُ وحيدًا في السيّارة مع الرقيب جابر، الّذي راقب الأحداث باهتمام. تمكّن الثلاثة من السيطرة على الدركيّ الّذي وقع أرضًا من جرّاء ركلات متتالية على لَيه، فصار يتلقّى الضرب وهو ممدّد على الأرض. فجأة ظهر عدد من الشبّان مع لام لبنانية في طريقهم إلى المظاهرة، عندها سارعوا من دون تردّد إلى مساعدة دركيّ. تمكّنوا من سحبه وإيقاع عناصر المخابرات أرضًا. فصرخ الرقيب جابر:

– يا حمير! لا يمكن الاتّكال عليكم بشيء.

ك السيّارة، اقترب من أحد الشبّان، ووجّه إليه لكمته الشهيرة. هوى الشاب كعمود لى الأرض، تناوله الرقيب جابر من عنقه، ووجّه مسدّسًا نحو رأسه. فجفل رفاقه قّفوا عن الضرب.

– تراجعوا وإلّا ستذوقون نخاع رأسه.

تراجع الشبّان كما أمرهم، ثمّ قال للدركيّ:
– أزح درّاجتك يا حيوان!
ـرف الجميع هويّة العناصر المخابراتية، فأيقنوا خطورة الموقف. رأيت بوادر الخوف والانصياع على وجوههم. لا تتوقّفوا! لا تنصاعوا! إذا مررنا من هنا فستكون نهايتي.
ـتُ في السيّارة وحدي، رأيت جهازي الخليوي على المقعد جانبي فتناولته بيدي لة ورائي. يمكنني الاتّصال بأحدهم، لكن لن ينفعني ذاك بشيء. عليّ الهرب. فكّرت أخرج من السيّارة وأركض، ولكنّ النتيجة واحدة. لا حلّ إلّا إذا قضيت عليهم، ولكن كيف؟
ـليّ سحق رأس الأفعى.
ـت بجسمي إلى حافّة المقعد، ثمّ ترجّلت من السيّارة من جهة الرقيب جابر من دون ـي. رأيت عينَي الدركيّ على يدَيّ المكبّلتين. يداي لن تنفعاني بشيء، وحتّى لو كانتا ـرّتَين فإنّ يدي اليسرى مصابة ويدي الثانية لا قوّة فيها. لكنّ رجليَّ حرّتان. فليكن.
ـصر المخابرات ما زالوا مطروحين أرضًا. اقتربت من وراء الرقيب جابر حتّى وصلت وبكلّ ما أعطيت من قوّة وجّهت ركلة جانبيّة إلى ركبته.
طقّ...
تحطّمت ركبته كقصبة يابسة في الشمس. رأيت عظمه الأبيض يظهر من تحت جلده، وأخذت أسفل رجله في اتّجاه لا يتناسق مع باقي جسده. فأطلق صرخة جفل منها الواقفون. سقط أرضًا وأخذ يرتجف ويخور كثَور مذبوح.
تقدّم شابّ، تناول المسدّس من على الأرض، ثمّ حمل رفيقه.
ـهذه لحظتي، هذه حرّيّتي. ركضتُ.
– انتظر! انتظر!
عدا الدركي خلفي حتّى أوقفني. مدّ يدَيه إلى أصفادي، ففكّها بمفتاحه ثمّ ألقى بها ـوق تراب الرصيف.
– اذهب، ولا تنظر خلفك...
أين ابتسامتكَ الآن يا جابر، أين ثقتك واعتدادك بنفسك؟ قبضتك قويّة لا شكّ، إلّا أنّ ـ رجلَيك ما زال هشًّا. أترى الألم؟ أتختبره؟
يبدو أنّ وجهك قادر على غير الابتسام. هذه جرعة من دوائك، لا تتكبّر عليها. لم ـكن مميّزًا من قبل، ولست مميّزًا الآن، أنت مجرّد حقير برتبة عسكرية. هيّا لا تتكبّر، ـ أشمت بك أو أبتسم، ولن يضحك زملائي عليك.
مسكين يا جابر، من جعلك مهرّج الصفّ، تُضحك رفاقك وتضع يدَيك وراء ظهرك ـدًّا بنفسك؟ الآن وقد فقدت مرساتك، سترفعك أمواج البرودة أنت الآخر، ولا أدري ـين ستهوي بك. ماذا ستفعل حين تعود إلى مرفئك؟ بأبناء من ستجرّب قبضتك؟ ـفّهم أمامك مثل أكياس الرمل وتخلعهم، فتُضحك رفاقك وتبتسم...
مسكين يا جابر.

* * *

ضتُ بين الجموع. ركضتُ خلفهم. ركضت معهم. ذهبت يمينًا ثمّ يسارًا. مررت تحت أعلام، فوق مناشير، عبر أناشيد، قرب بكاء، تحت أشعار، مع صراخ... ركضتُ أينما ي الركض. إلى عمق بيروت ركضتُ.
ت مثل فرس انكشف المرج أمامها، عدوت إلى أن بلّلني العرق، واجتمع غبار أقدام س خطوطًا سوداء على ثنيّات رقبتي. هيّا كنّسوا الأرض وارفعوا غبارها. عرّوها من رماديّتها واجعلوها ملساء نظيفة. أحيلوها سوداء أم بيضاء، ولكن غير رماديّة، فإنّي أكره هذا اللون، والأب نعمان يحذّر منه، والشيخ نعيم يتوجّس خيفة من لونه، وشادي يبكي لرؤيته ونبال تخافه.
ت أنظر بين الحين والآخر خلفي، فربّما عناصر المخابرات يبحثون عنّي، أو يتبعونني ظار الفرصة الملائمة للقبض عليّ من جديد. رأيت الكثير من العيون تراقبني أينما ، فبقيت أتنقّل بين الجموع الّتي ملأت كلّ الشوارع.
توجّهت نحو ساحة الشهداء، متأكّدًا من أنّهم لن يتبعوني إلى هناك. ستكون شدة بعناصر الجيش والأمن، ولن يجرؤ أحد على التوغّل والوصول إلى ضريح الشهيد.
أينما مررتُ أرى عيونًا ترافقني مجدّدًا.
لى ساحة الشهداء. مشيت على الرصيف إزاء أحد المباني، رأيت انعكاس صورتي الجدران الزجاجية، فراعني شكلي. شعري أشعث، عيناي حمراوان، دم جامد من ي حتّى حنكي، شفتاي متورّمتان، وثيابي مهترئة قديمة.
ت زجاجة ماء من أمام إحدى المنصّات وعببت منها حتّى ارتويت. ثمّ سكبت الماء سي، نظّفت به وجهي من الدم والغبار. عاندني الدم المجمّد، فرحت أسكب الماء جهي بيدَيّ الاثنتَين، غير عابئ بتورّم وجهي أو آلام يدي اليسرى. فركت حتّى زالت فات جابر وعلامات أسري واستجوابي. ثمّ أخذت أحد الأعلام المتدلّية، أمسكت قماشه ومسحت به وجهي ورقبتي حتّى نظفا. سرّحت شعري بيدي واتّجهت نحو ح. جلست إلى الرصيف على بعد مئة متر تقريبًا، حيث كانت جموع وشخصيّات كثيرة تملأ المكان، منها من يصلّي ومنها من يبكي.
ت يدَيّ ورجلَيّ. أحسست بالتعب يحلّ بي، فركت يدي اليسرى من الألم الّذي ا من لكمة عزّام. شعرت بالبرد من جرّاء جفاف الماء واهتراء الثياب الّتي ألبسوني . وضعت العلم حول كتفَيّ وغلّفت نفسي به، حتّى أستجمع بعض الدفء. بيدَيّ ن عصرت القماش. بقيت لساعات حتّى بدأ البرد والخوف يفارقانني.
أحسست بأمان بين المتظاهرين، وارتاح نظري للأحمر والأبيض، كأنّه أعاد ذاكرتي ألوان حضانة طفولية.
الاتّصال بالأب نعمان أو حسن أو حتّى متري. سينتهي النهار ولن يمكنني البقاء هنا ى ما لا نهاية. لكن كيف أزجّهم في مشكلتي، كيف أعرّضهم لقبضة المخابرات، أنا من أنّهم سيراقَبون وسيراقَب بيتي. أذهب إلى الدير؟
ليس لديّ مكان آخر أذهب إليه، لكنّ المدير يعلم بعلاقتي بالأب نعمان، ولا شكّ أنّه كمن لي هناك. لم يعد لي مكان أذهب إليه. ليس لي أقارب، ولأوّل مرّة أشعر دم إذ ليس لي أصحاب. لم أكن بحاجة إلى أحد من قبل، على الأقلّ من ناحية

ات. كنت مكتفيًا بحياتي وعملي وبحثي. علّني أنام تحت المنصّة الخشبية، لديّ ما
يني من الماء، وأجعل من الأعلام أغطية أستدفئ بها، فليس لي خيار آخر...
ين الأناشيد والأصوات وتحرّك الناس، سمعت رنّة مألوفة.
جهازي الخليوي...
– إيهاب!
فوجئت.
– نبال!
إيهاب، لم أذهب. لم أتمكّن من المغادرة...
– نبال!
أين أنتَ؟ ما هذه الأصوات؟
– نبال!
يد أن أراك الآن. أين أنت؟
– في ساحة الشهداء.
– مع المظاهرة؟
– فيها...
وصلَت كانت الشمس بمحاذاة الخطّ الأفقي. أصابها هول لمّا رأتني.
– إيهاب ماذا حلّ بك؟
أخبرتها بالحقيبة وعلاقتها بوالدي، ومن ثمّ ذهابي إلى المديريّة للكشف على
ت. ثمّ ما جرى في مكتب المدير، فاعتقالي وقضائي الليل في مقرّ المخابرات.
خيرًا هربي بمساعدة الدركي والشبّان.
رّرَت أناملها على تورّمات وجهي.
– وجهك مثل وجه أبي.
عت ذراعها حولي تريد مساعدتي على المشي. غمرت كتفَيها، فأرخَت برأسها على
بتي. مشينا عبر الشوارع إلى شرق العاصمة حيث تركَت سيّارتها.
– لمَ فعلوا هذا؟
– من يصدّهم يا نبال؟ من يصدّهم؟
ثمّ قالت لي:
هاب، أعرف الآن ما هو أسوأ من أن لا يحبّك أحد، وهو أن لا يكون لك من تحبّ. أن
يحبّك أحد هو شعور يملكه الآخر، أمّا أن تحبّ فهو شعور تملكه أنتَ، وحينما
تشعر تحيَ. ويا له من وجود حين لا تشعر بشيء. أنا أحبّك يا إيهاب وأنت تحبّني،
هيّا بنا...
ه يا نابي، يا أميرتي، جمعَتنا الباربي، وسهّل دربنا الإغريقي، وأسكرتنا ألحان شوبان.
تِ لي مكانًا غير الدير أحتمي فيه، وبيتًا أذهب إليه.
انظر يا شادي، هذه أكثر من رفيقة، ومعها تبوخ القُبَل ومَسْك الأيادي، وها شعري
س أشقر وعيوني ليست زرقاء، وفي بيتها شممت رائحة مقالي البطاطا، لكنّها
مثلنا ينقصها الحبّ. وها قد جمعَنا ما لا تفرّقه نارٌ، فوق الأرض كانت أم تحتها،
ولا صندوقٌ حديديٌّ عملاق، ولا رائحة بول، أو رطوبة غرفة مظلمة.

الفصل الثامن

ت نبال جراحي، وربطت يدي اليسرى بمنديل عقدته عند كتفي. أمضينا الليل كلّه
، الكلام وفي سرد قصص الطفولة والمراهقة. أخبرتني عن ماضيها ودراستها
آمالها وعن كلّ ما تحلم به، وأنا أخبرتها عن شادي وقصصنا والمسلسلات الّتي كنّا
نحبّها في صغرنا.

أصبحَت نبال بالنسبة إليّ، فجأة، أكثر من صديقة أو حبيبة، شيئًا جديدًا لم أعرف
ن قبل. لعبَت دورًا على مستوى يفوق كلّ المستويات، وسأطلق عليه اسمًا جديدًا:
دور رافعة الستار.

يا نبال رافعة ستاري، يمكنك التوغّل إلى خلف المسرح، إلى غرف الأزياء والأضواء
وأخشاب الركائز. لا سرّ يعترضك ولا باب يوصد في وجهك. أمسكي بأوراق النصّ،
صفحاته إلى الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وخطّي ما يطيب لك من فصول.

سنا لساعات نتحدّث عن قصّة حقيبة أبي، والعقبات الّتي تعترض طريقي.

اتّصلتُ بحسن.

إيهاب، ماذا حلّ بك؟ أأنت على ما يرام؟

– نعم.

– إيهاب، لن تصدّق ما حصل.

– ماذا؟

ء منذ قليل عناصر من الجيش وألقوا القبض على المدير وعزّام وعدد من
موظّفين.

– لأيّ سبب؟

– تهريب المخدّرات.

– ماذا! كيف؟

يبدو أنّ المدير كان متورّطًا مع المخابرات في عملية تهريب مخدّرات عبر المطار
، عواصم أوروبية، وكان الإنتربول على علم بذلك، فكانوا بانتظار اللحظة المناسبة.

– يا إلهي! هذا سبب كرهه لي. قبضْت على ثلاثة مهرّبين من فريقه، ولهذا أرادني
عيدًا عن المسافرين ومعاملاتهم. والآن أفهم ما قصد بقوله «لن أغطّي أعمالك بعد

اليوم».
ثمّ أكمل حسن:
– ليتك رأيت عزّام. بكى مثل فتاة صغيرة، وارتمى على الأرض بثيابه النظيفة، اضطرّوا إلى حمله عبر الأروقة إلى الشاحنة. أمّا المدير فمشى أمامهم كأنّ شيئًا لم يكن.
هذا عائق يبعده القدر عنّي... لا بدّ أنّ هنالك قوة إلهيّة تعمل لمصلحتي.
– والحقيبة؟
– أخذها بالأمس رجال المخابرات.
هذه مصيبة كبرى.
بدأت نبال باتّصالاتها. تكلّمَت مع مسؤولين وسياسيين، وعد الجميع بالمساعدة، ي كنت مدركًا أنّ الحقيبة ستختفي إلى الأبد إن لم أسترجعها بأسرع وقت.
شتي، رأيت في نشرة إخبارية متلفزة أنّ المخابرات قد أخلت في الليل مركزها رئيسي في بيروت. قلتُ لنبال:
– قد تكون الحقيبة هناك.
– إيهاب، أرجوك لا تفكّر في هذا الأمر.
– عليّ البحث هناك فربّما تركوا الحقيبة خلفهم...
– لقد حالفك الحظّ وهربت مرّة، فلا تتحدَّ القدر.
– لا خيار لديّ.
صلت إلى المبنى عند الظهر، أوقف سائق نبال سيّارته بعيدًا فطلبت منه أن ينتظرني ساعة فقط. في حال لم أعد، عليه الرحيل وإعلام نبال.
ت المبنى حذرًا. كان خاليًا والغبار يملأ غرفه وممرّاته. على الجدران، التصقت صور ات لم أرَ مثيلها منذ أيّام الحرب. خُيّل إليّ أنّ الوقت لم يمرّ على المبنى، فاحتفظ وح السبعينيّات، من تصاميم وأبواب ونوافذ. كانت جميعها في وضع يرثى له. رأيت ة صغيرة عرفت فيها مكان حجز الموقوفين، بسبب رائحة البول وقذارة الأرض.
لم أدع مكانًا إلّا وبحثت فيه، غرفة وراء غرفة، وطبقة بعد طبقة، ولكن بلا فائدة.
أصابني إحساس فظيع بخيبة الأمل. العثور على الحقيبة سيتطلّب معجزة.
فجأة سمعت صوتًا من ورائي.
– مَن حضرتك؟
نظرت خلفي وإذا برجل على المدخل يرمقني بنظرة حذرة.
- أنا رقيب من أمن المطار.
– ماذا تفعل هنا؟
أبحث عن خلاصي.
نظر إليّ بتعجب، ثمّ وكأنّه فهم قصدي سألني:
– فقدت أحدهم؟
– نعم.
– شخصًا عزيزًا؟

– أبي.
– هنا؟
– لا أعرف أين.
– المبنى خال كما ترى. نقلوا الموقوفين منذ أسابيع.
ت أنّ الحقيبة ليست هنا، فخرجت إلى الطريق. سأعود فارغ اليدَين. عبرت الشارع نحو السيّارة، وإذ بالرجل يناديني من مدخل البناية.
قال:
– لا تفقد الأمل.
وقفت في مكاني. ثبّتتني كلماته. استدرت وسألته:
– هل رأيت حقيبة قديمة تعود إلى سنة 1975، بنّية اللون، في داخلها حصان خشبي؟
سيعتقد أنّي مجنون من خلال سؤالي هذا.
هزّ رأسه وقال:
– اتبعني.
تبعته مسرعًا إلى غرفة صغيرة في موقف البناية.
فتح بابها.
رضها رأيت عدّة مطبخ وبعض المكاتب القديمة وحقيبة أبي. لم أصدّق عينَيّ. أخذتها بين يديَّ، طوّقتها بذراعيَّ وركضت نحو السيّارة.
منزل نبال، وأخرجت محتويات الحقيبة. وضعت الحصان الخشبي جانبًا. بسطت على الفراش أمامي. قمصان، بذلة كحلية وحذاء جلدي. أخذت بنطال البذلة، إلى خصري فكان بطول رجلي. ابتسمَت نبال وقالت:
– جرّبها.
– ماذا!
– البذلة.
استغربت طلبها، لكنّي بدافع الحشريّة ارتديتها. ولمفاجأتي، كانت جميع قياساتها مطابقة لقياساتي. أعطتني نبال الحذاء، فانتعلته. وكان أيضًا مناسبًا.
فتُ أمام المرآة. نظرت أمامي وتمعّنت.
ل مرّة أرى أبي، أرى قامته وأكتافه العريضة وسيقانه الطويلة. لأوّل مرة أعي أنّي . شيء أقوى من القذائف يجمعنا، وأكثر إغراء من مسلسلات الأطفال يُشعرني ه، وأجمل من ألحان شوبان يشدّني إليه. شيء لا تقدر عليه الظلمة، ولا الوحش، ولا الغرف الرطبة، ولا تأخذه الصناديق العملاقة.
داخلي يا أبي. أنت داخلي.
لتفتّ إلى نبال وقلت لها:
– أنا أبي يا نبال وأبي هو أنا.
ثتُ الثياب عنّي، ثمّ وضّبْتُها بتأنّ على الفراش.
جدت في الحقيبة أيضًا هديّة صغيرة، نزعت عنها الغلاف، فوجدت مقصًّا في غطاء بلاستيكي، يحمل ماركة «هرجز» الألمانية. تفحّصته فرأيت أرقامًا صغيرة

وشة على إحدى أسنانه، وحرفَين محفورَين على مقبضه. أعتقد أنّ أبي حصل عليه في ا من أحد معامل الشركة. لم يكن لديّ شكّ بأنّ حقيبة أبي ستكون أصعب الحقائب من ناحية فكّ رموزها، فالحصان الخشبي، والمقصّ، والثياب لا تعد بالكثير.

دت مكاتب «هرجز» في بيروت، وسألت عن المقصّ ومكان صنعه أو دلالته، لكنّ ت الّتي حصلت عليها كانت عامّة. عند انتهاء اجتماعنا اقترح عليّ الموظّف مقابلة مدير سابق، له خبرة سنين بمصنوعات الشركة. وأعطاني عنوانه.

توجّهت مع نبال نحو مدينة صيدا الجنوبية. في ساحة النجمة سألت سائق ة أجرة عن مفرق مغدوشة حيث عنوان الشخص المقصود. سلكنا الطريق البحرية لتجنّب زحمة السير، كما أوصانا سائق سيّارة الأجرة. مررنا أمام قلعة صيدا بحرية، ثمّ التحقنا بالأوتوستراد البحري. دقائق ومررنا بالقرب من جبل نفايات فأقفلنا النوافذ تجنّبًا للروائح الكريهة، ابتعدنا عنه إلى أن وصلنا إلى جسر سينيق.

رأيت من بعيد تمثال العذراء مريم، في مزار سيّدة المنطرة على تلّة بلدة ة، فعرفت أنّي أصبحت على مقربة من المكان المقصود. ثمّ وصلنا إلى المنزل.

قالت لنا صبيّة إنّ أباها خرج وسيعود بعد ساعة. فاقترحَت عليّ نبال زيارة مزار العذراء القريب، بانتظار مرور الساعة.

قادتنا الطريق صعودًا نحو بلدة مغدوشة، أحسستُ باقترابنا منها بسبب الطريق من الحشائش البرّية والتراب الأصفر إلى مشاتل من الزهور وشجيرات نوبر. أوقفت سيّارتي في ظلّ شجرة جمَّيز كبيرة عند مدخل المزار. دخلَت نبال المزار، ورأيتها من بعيد تضيء شمعة وتغمض عينَيها.

لم تكن هذه زيارتي الأولى للمزار. لقد زرته من قبل مع شادي ورفاقي الأولاد. ذلك سنة اثنتين وثمانين إثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان، حين فُتحَت الطرقات كلّها لأوّل مرّة منذ بداية الحرب.

ذلك الصيف، قمنا بعدّة رحلات إلى مختلف المناطق اللبنانية. كان الأب نعمان س قرب سائق البوسطة، ونتراخى نحن كبار الأولاد على المقعد الأخير. أمّا الباقون فيتوزّعون على المقاعد الأماميّة. يأخذ شادي الطبلة بين يدَيه، يُطلق منها إيقاعات نغنّي.

انت معالم المزار مختلفة جدًّا يومها، إذ جرفت قوّات الاحتلال الإسرائيليّة الحقل يب، وجعلت منه مدرجًا للمرْوَحيات، واتّخذَت منطقة المزار الداخلية مركزًا لها، عت الزوّار من التوجّه إلى برج التمثال العالي. كانت الطرقات كلّها رمادية يكسوها ب والحصى جرّاء مرور المجنزرات عليها.

دخل الأولاد إلى المغارة للصلاة، بينما بقيت أنا في الخارج أرقب الآليّات العسكرية.

عند عودة شادي، دنا منّا ثلاثة أولاد من سكّان البلدة. سألونا بعد أن رأوا البوسطة الزرقاء:

- من وين جايين؟

– من بيروت، قلت لهم.

– من دير كفرشيما، قاطعني شادي.

– مدرسة داخليّة؟

– لا. دار أيتام.
– أنتم يتامى! صرخ أحدهم.
نظر إليه كبيرهم وقال وهو يعتذر:
– لا تهتمّوا به.
استلطفته فعرّفته بنفسي.
– أنا إيهاب.
– أنا مازن البوسفير.
سكت وكأنّه أخطأ بشيء.
– أعني مازن.
– البوسفير؟ سألته بحشريّة.
– هذا لقبي، قالها بخجل.
– وماذا يعني هذا اللقب؟
– البوسفير هو ليمون يُقطف بعد موسم زهر الليمون في مغدوشة. ينزعه الناس عن شجره حتّى لا يأخذ ماءها لأن لا نفع منه. نجمعه نحن ونستعمله كسلاح في حربنا مع فريق أولاد الساحة. يُطلقون عليّ لقب البوسفير، لأنّي لا أخطئ الهدف عندما أرمي الأولاد به.
ابتسمت له وقلت:
– هذا صديقي شادي.
سلّم عليه ثمّ عرّفنا بالولدَين الآخرَين.
– هذا وليد بونبون.
– بونبون؟
– قِطَع الحلوى الّتي يرميها الإسرائيليون من آليّاتهم لدى عبورهم الطريق. وليد أقوانا بالتقاطها، «بشيلها على الطاير».
ثمّ أكمل:
– هذا حليم.
وسكت.
– ليس له لقب؟
نظر إلى حليم وابتسم.
طأطأ حليم الصغير رأسه وعبس، كأنّه لا يريد من مازن فضح سرّه.
– حليم السيكس.
– ماذا؟ سألته بحيرة.
– حليم السيكس. منذ أن عرف الجنس وهو لا يكفّ عن الأسئلة.
دفعه حليم معترضًا لأنّه أفشى سرّه.
ضحكنا أنا وشادي.
– ولمَ تتحاربون أنتم والأولاد الآخرون؟
– بسبب ميرنا حبيبة مازن! صرخ حليم الصغير.
– اخرس يا سيكس! قال له مازن.

– بل من أجل ميرنا. مازن يحبّها ويريد تقبيلها على فمها.
قال ونظر إلينا بعينَين صادقتَين. وأخذ يدور حول مازن ويُطلق أصوات «تطقيش» قبلات. فردّ مازن، غير عابئ بحليم:
– إنّنا نبني دبّابة خشبيّة، سنستعملها في معركتنا القادمة.
اح يروي لنا كيف خسروا المعركة الأولى مع أبناء حيّ الساحة، وكيف أنّ أباه جاء صدفة بصندوق خشبي متين يُستعمل لنقل حجارة الرخام، فوُلدت لديه فكرة تحويله إلى دبّابة.
كلّ شيء جاهز ما عدا العجلة الأمامية. أتينا نطلب علبة بونبون من الإسرائيليين كثمن ندفعه إلى أحد الأولاد بدل العجلة. لكنّهم رفضوا طلبنا. والآن سنسرق علبة بونبون.
– ستسرقونها؟ سألته بتعجّب.
عم، سنمشي في طريق المقبرة حتّى نصل إلى الآلية المتوقّفة خلف البرج والّتي الحلويات. رأيتها من قبل، فيها مئات الأكياس والعلب، دكّان حلوى على عجلات... هناك سنأخذ ما نريد.
– ألا تخافون من الإسرائيليّين؟
– ماذا سيفعلون؟ سينعتوننا «بالمخرّبين»؟ قالها مستهزئًا ثمّ أضاف: هذا المزار نا. نذهب حيث نشاء.
– هل ستمرّون بجانب البرج؟ سأله شادي.
– نعم.
– هل لنا بمرافقتكم؟ نودّ الصعود إلى أعلاه.
مجنون! قلت لشادي. الأب نعمان يقصف عمرنا.
م يستمع إليّ بل أصرّ على مازن حتّى وافق الأخير، رغم محاولتي اليائسة لمنعه. عني أمام الأمر الواقع. فقبِلت على مضض.
أحبّ شادي المغامرات وعاشها دومًا في خياله، وها إنّ الفرصة تسمح له اليوم بأن يعيش إحداها في الحقيقة.
تبعناهم حتّى المغارة، ثمّ صعدنا بعض الدرجات حتّى بلغنا باب المقبرة. هناك عوا الباب الحديدي فدخلنا بسرعة من دون أن يرانا أحد. عبرنا من أمام القبور مقفلة. رأيت مازن البوسفير يُبطئ الخطى ثمّ يتوقّف. استدرت نحوه فقال وهو ينظر نحو القبور:
– أكملوا الطريق وسألحق بكم بعد ثوان.
دّمنا من دونه حتّى أدركنا الحائط الشمالي الّذي يبعد حوالى المئة متر عن قاعدة البرج.
جار وأعشاب تخنق المكان وتحجبنا عن الأنظار. إلى يميننا، رأيت عبر شقّ في بعض جنود الاحتلال أمام حمّامات وبراميل أوساخ. استولت على المكان رائحة نتنة كريهة.
عد لحظات، جاء مازن البوسفير من ورائنا وهمس بصوت خافت:
من هنا خلف أكياس الرمل، حتّى تصلا إلى درج البرج. ازحفا على الدرجات الأولى

ي لا يراكما أحد، وعندما تصبحان في الداخل ابقَيا بعيدَين عن الشرفات.
– وأنتم؟ سألته.
- نحن سنسلك طريقًا آخر. أشار إلى بعض الآليّات المتوقّفة. سنمرّ من هناك.
قفزنا إلى الفسحة المحيطة بالبرج، ثمّ عبرت مع شادي بجانب أكياس الرمل، فَين على ركبنا. وفي منتصف المسافة، سمعنا كلامًا قريبًا، فطلبت من شادي توقّف.
كفّي على أنفي وفمي، حتّى أمنع اللهاث القويّ، وفعل شادي بالمثل. بعد دقائق، لكلمات العبرية خلف متاريس رملية، فأكملنا الطريق إلى أن وصلنا إلى الدرج.
ثلما أشار علينا مازن، زحفنا إلى داخل البرج. رأيت في أرضه أتربة وحجارة. كان مرتفعًا، شوّهت جدرانه فجوات صغيرة ودمار عامّ.
صعدنا بحذر الدرجات الّتي تَحطّم بعضها من القصف والرصاص، مبتعدَين قدر ن الشرفات. وبين الحين والآخر، كنت أرى جنود الاحتلال في الأسفل يتمشّون سلحتهم. عندما أصبحنا في منتصف البرج رأيت، عبر فتحة، مازن البوسفير والولدَين خرَين يزحفون نحو إحدى الشاحنات...
بلغنا أعلى الدرج، فخرجنا إلى الشرفة الّتي تحيط بالبرج عند قاعدة التمثال. ثمّ لتصقنا بالحائط، راكعَين حتّى نحتجب عن الأنظار. شعرنا بهواء صيفي منعش، وامتدّ مامنا البحر بزرقته مع السماء. رأيت صدر شادي ينتفخ ويتقلّص من لهاث عميق. حظ نظراتي فأشار إلى صدري، وكنت أنا الآخر كمن قطع آلاف الأمتار.
مكثنا صامتَين، فقد أخرسنا الخوف. لا أصدّق أنّنا اجتزنا مركز الإسرائيليين، عبرنا ومتاريسهم وروائح حمّاماتهم. نفضتُ التراب عن ركبتَيّ ونظرت إلى شادي، فأدار وجهه نحوي وانفجرنا ضاحكَين.
ضحكنا على شجاعتنا. ضحكنا على خلاصنا. ضحكنا كما كان يفعل الشابّان في مج الأميركي «ديوكس أوف هازارد» عندما ينجوان من قبضة الشريف، والسنافر من عجوز اللئيم، وسندباد وعلي بابا من ميساء السّاحرة.
ضحكنا على حليم السيكس، ومازن البوسفير، ووليد بونبون. ضحكنا مع المشهد يل والهواء المنعش والصيف الطويل، ضحكنا بسبب طائرات F16، وطائرة تطلاع، أمّ كامل، والبراميل النتنة. ضحكنا على المدارس الّتي أقفلت أبوابها باكرًا، لى الدهاليز الفارغة، والأصابع المرفوعة بأياد مكسورة، وعلى القمصان المربوطة ون، والكنزات المرتداة في الصيف الحارّ، والطرق الّتي عادت تنتهي عندما تنتهي، راحلين الّذين كانوا حاضرين، والحاضرين الّذين سيرحلون، وعلى ليندا ليندا وبنت ن وطبق الألماس والمشي «دادي دادي»... ضحكنا حتّى ملأت زغاريد حناجرنا البرج تمثال والمدى.
قبل أن نغادر قال لي شادي:
– ليت لي جناحَين.
– لمَ؟
– حتّى أطير.
– إلى أين؟

لم يجبني... لكنّه قال لي وعيناه على الأفق:
- أنا وأنت إخوة إلى الأبد يا إيهاب.
– نعم يا شادي، إخوة إلى الأبد.

* * *

لدرجات الصعبة إلى أسفل البرج، فرأيت من إحدى فتحاته مازن والولدَين، وقد عليهم الإسرائيليّون. أجلسوهم على الأرض بين شاحنتَين وتجمّع حولهم عدد من الجنود.
– قبضوا عليهم، قلت لشادي بهلع.
نظر إليّ وعاد صدره إلى الانتفاخ والتقلّص.
نا على درجات البرج الخارجية إلى أكياس الرمل. لم أرَ أيًّا من الجنود. اجتزنا فة حتّى وصلنا إلى جدار المقبرة، حيث قفزنا عائدَين إلى ساحة المزار الأمامية.
كان باقي الأولاد يلعبون. منهم من يحاول تسلّق الجمّيزة، ومنهم من يقذفها حجارة حتّى تتطاير حباتها الحمراء على الأرض.
لم يعلم أحد بغيابنا. وقفت مع شادي قلِقًا، تساءلت عن مصير مازن البوسفير ن، جبت بنظري المكان علّني أرى الأب نعمان لكنّي لم أجده.
ت من افتضاح أمر زيارتنا البرج، فتردّدت عن فعل أيّ شيء، لكنّ خوفي تعاظم، ت أبحث عن الأب نعمان. رأيته بعد قليل مع راعي الأبرشيّة الّذي التقاه عند ترجّلنا ن البوسطة.
ما العمل يا ربّي؟ إذا أخبرته بأمر الأولاد فسيعلم بزيارتنا البرج، وإذا سكتّ ن أعرف مصير مازن والولدَين. اقتربت من الأولاد وناديته لكنّه لم يسمعني. ناديته من جديد، فرفع رأسه نحوي، في هذه الأثناء مال شادي برأسه نحو الدرج.
أيت مازن البوسفير. التفت إليّ وبيده علبة بونبون، هزّ رأسه وابتسم، ثمّ اتّجه مع ولدَين صعودًا نحو البلدة. حوّلت نظري إلى الأب نعمان فرأيته يكمل حديثه. أمّا شادي فوقف مبتسمًا من بعيد.
– إيهاب! نادتني نبال.
دت من ذكرياتي وابتسامة شادي تسبح في مخيّلتي.
– أنت جاهز؟
– نعم.

* * *

حّب الرجل بنا وعرض علينا شرابًا وقهوة.
قال لي إنّه التحق بالشركة في أوّل الثمانينيّات، وقد زار عدّة معامل للشركة، خبرته تشمل كلّ ماكينات الخياطة وأدواتها. أخذ المقصّ وتفحّصه. سألته عن أرقام. فأكّد لي أنّ هذا الرقم التسلسلي للمقصّ.
أمّا عن الأحرف ومعناها فقال:
– هذه الأحرف هي شيء فريد من نوعه.

– كيف؟
– ليس لها علاقة بالمقصّ.
– ماذا تعني؟
– الرقم المتسلسل يوضع ضمن تصنيع المعدن. أمّا هذان الحرفان فهما مختلفان.
حُفرا بعد الانتهاء من صناعة المقصّ.
– باعتقادك ما هي دلالتهما؟
– أظنّهما الحرفَين الأوّلَين من اسم شخص أو شركة.
– اسم؟ سألته متعجّبًا.
– نعم، ربّما كان المقصّ هديّة لأحد.
تفاجأت وقلت له:
– كان ملفوفًا بورق هدايا!
– رأيت هذا من قبل. خلال صناعة السلع، يُحفر اسم شخص أو شركة عليها،
فتُستعمل كهديّة أو دعاية.
– هذا عظيم، شكرًا لك. ربّما يكون المقصّ هديّة لأحد الخيّاطين إذًا!
– لمَ تعتقد خيّاطين؟ سألني.
– أليس هذا مقصّ قماش؟
– لا. هذا مقصّ شعر.
– مقصّ شعر؟ لم أكن أدري أنّ شركة «هرجز» تصنع مقصّات شعر!
ت أعرف الشركة ومصنوعاتها بسبب تحقيقاتي السابقة عن أبي.
– اليوم لا. لكن فيما مضى كانت تصنعها وتبيعها.
شكرته وعُدت أدراجي مع نبال.
صّ شعر وحرفان، هذا كلّ شيء. بدأت تجوالي في بيروت من حلّاق إلى آخر، أسأل
وألقى الجواب نفسه. لا أحد يستعمل مقصّات هرجز، والحرفان لا يعنيان شيئًا لأحد.
صحني أحدهم الاتّصال بمعهد تدريب المزيّنين في منطقة الدورة. أعطاني اسم أحد
ين، وقال إنّ هذا الشخص من القدامى في المصلحة، كان معروفًا جدًّا في
عينيّات. عمل في مهرجانات بعلبك ومسرحيّات المشاهير، كانت الفنّانة داليدا تطلبه
شخصيًّا.
م أرَ ما أخسره في سؤاله، فذهبت إلى المعهد. سألت عنه. دلّني أحدهم على غرفة
طابق الثاني، فصعدت الأدراج وطرقت الباب. كانت الغرفة واسعة وفيها عدد من
طلّاب.
قف المدرّب في مقدّمة الصفّ يصفّف شعر إحدى الآنسات، يرفع خصلاتها ويثبّتها
بملاقط ثمّ يقصّ أطرافها المبلّلة.
قلت له:
– أستطيع العودة في وقت آخر.
– لا. تفضّل، كيف يمكنني مساعدتك؟
خبرته بالمقصّ وبمحاولة العثور على أيّ دليل يرشدني إلى صاحبه.
– لا أدري كيف يمكنني مساعدتك.

يّ شيء عن المقصّ أو الأحرف المحفورة عليه؟
تمعّن في الأحرف.
– لا تعني لي شيئًا.
فقلت له:
مقصّ قديم من أوائل السبعينيّات، وقيل لي إنّك كنت من المزيّنين المشهورين يومها.
– نعم صحيح. كنّا شبابًا نعيش بين المسرحيّات والحفلات، وسهرات الأجانب. أمّا اليوم فنعمل لتأمين لقمة العيش فقط. كانت أيّامًا حلوة، فمثلًا، نزيّن في النهار ممثّلة في القاهرة، ثمّ في المساء نهيّئ الراقصات في بعلبك، وفي الصباح ننطلق عمّان لتناول المنسف مع الجميد ولحم الغنم. «رزق الله»...
اقترب منّي وأخذ المقصّ. ثمّ قرأ اسم شركة صنعه «هرجز».
وا عجبي، لم أرَ مثل هذا المقصّ منذ سنين، لم يستعمله غير القليل من الحلّاقين.
ثمّ أكمل:
– أنا شخصيًّا كنت أفضّل نوعًا آخر من المقصّات. لكنّي أذكر حلّاقًا بارعًا كان يستعمل هذا النوع، كان له محلّ في ساحة البرج، اسمه على لساني... منير... منير...
لا منعم. هذا كان اسمه.
– منعم؟
ظننت أنّ الحرف الأوّل من الاسم هو M كما كان محفورًا على المقصّ.
– أتذْكر اسم عائلته؟
– للأسف لا... انتظر، كان اسم محلّه «الشريف للشعر». نعم اسمه منعم شريف. هذا هو.
ب أملي، إذ إنّ اسم العائلة لا يتطابق مع الحرف الثاني A.
قال لي وقد شعر بخيبة أملي:
– لم لا تتحقّق منه؟ قد يساعدك.
– أتعرف ما حلّ به؟
- لا. لكنّي أعرف الصبيّ الّذي كان يعمل عنده.
– عظيم. ما اسمه؟
النائب معلول الغني.
– نائب؟
– نعم. ولم يعد صبيًّا. قالها وضحك...
ت عنوان النائب من الصحافي ملحم الشمّاس، وتوجّهت من دون موعد إلى شقّته، إحدى المناطق بجوار بيروت. عند المدخل فتّشني رجُل أمن، وأعلمني بأنّ موعد زيارات سينتهي بعد دقائق. وثبْت الدرجات القليلة ودخلت صالة الانتظار.
نائب أمامي بعد دقائق، أخبرته كيف قادني البحث عن أبي إليه، وسألته عن مكان مصفّف الشعر منعم الشريف.
رمقني بازدراء.
– لا أعرف عمّن تتكلّم!

– مصفّف الشعر الّذي كنت تعمل عنده.
– أنت مخطئ.
نت أنّ الموضوع حسّاس، خاصّة بسبب حضور عدد من الناس والمرافقين.
عفوك يا سعادة النائب، ولكنّ هذه قضيّة حياة أو موت، أرجوك أن تساعدني.
– كما قلت لك، إنّك مخطئ.
اعتذر من الحضور وترك الغرفة.
درجات نحو المدخل، حين أصبحت على الطريق ناداني رجل الأمن.
– انتظر. رسالة لك من فوق.
– ...
الشريف كان لقب المصفّف بسبب لباسه الدائم لقبّعة مثل قبّعات الفرسان، اسمه نعم أنطون.
منعم أنطون! هذا يتطابق مع الحرفين M وA إذًا!
ثمّ أكمل:
– وهو من بلدة زحلة.
حلة! تذكّرت رسالة أبي من ألمانيا. غمرني شعور أمل جديد لأنّي، ولأوّل مرّة، قد د من يعرف أبي.
تريدني أن أذهب معك؟ سألتني نبال.
– لا، فلا أعرف ما ينتظرني.
أقابل المصفّف وحدي. رغم أنّ أملي كبير، لكن في داخلي، كنت أخشى ما ينتظرني. ماذا لو لم تسفر هذه المعلومات عن شيء، فتكون هنا نهاية الطريق بالنسبة إليّ؟

الفصل التاسع

ي الصباح الباكر قدْتُ سيّارة نبال الخاصّة، وعبرْتُ ضهر البيدر إلى سهل البقاع ثمّ
زحلة.
ِّل محطّة وقود، سألت عن مصفّف الشعر. أخذت بتعليمات صاحب المحطّة حتّى
بلغت شارعًا عند أطراف البلدة. أوقفت السيّارة بجانب تلّة تكسوها الكروم
طها أشجار سامقة. رأيت بيتَين على التلّ، أحدهما في منتصف الكرم والثاني في
أخبرني صاحب المحطّة أنّ بيت المصفّف هو الأبعد عن الطريق.

أخذت الحقيبة وتبعت الطريق الحجرية متنقّلًا بين صخورها، متحاشيًا بقع الماء
المكسوّة بغطاء من العشب الأخضر. مررت قرب المنزل الأوّل، وكانت جدرانه من
لحجارة الجبليّة البيضاء، وأمامه مصطبة عليها مقعد خشبي وتحيطه أوعية زهور
حشائش.

عد مئتَي متر تقريبًا وصلت إلى عتبة المنزل الثاني.

قبل أن أقرع بابه، خرجت امرأة مسنّة، ركض أمامها صبيّ صغير لا يتجاوز
سنتَين.

– هيّا يا حبيبي عد إلى بيتكم. لا بدّ أنّ أمّك تبحث عنك.

فطِنَت لوجودي. فبادرتُها:

– مرحبًا.

– أهلًا وسهلًا يا ابني، خير إن شاء الله.

– بيت السيّد منعم أنطون؟

– نعم، من يريده؟

الرقيب علّام، أودّ أن أقابله إذا سمحت.

– أهلًا يا ابني. تفضّل.

– أهو موجود؟

– نعم.

– أيمكنني التكلّم معه؟

ضحكت وقالت:

– سيكون حديثًا من جهة واحدة.
– ماذا تقصدين؟
– تفضّل لترى بنفسك.
خلتُ الصالون، فرأيت رجلًا مسنًّا مستلقيًا على فراش في زاوية الصالون، ينظر أمامه بسكون. تراخت فوقه أغطية صوفيّة رماديّة، وسترت رأسه قبّعة شتويّة.
– هذا منعم. حاضر وغائب. لم يعد يعي شيئًا.
وقفْت مشدوهًا، فأكملَت:
– منذ سنة وهو على هذه الحال.
ست على كرسيّ قرب العجوز.
– ماذا تريد من منعم؟
- أردت أن أسأله عن أحد معارفه.
حكيت لها عن تاريخ المقصّ، واعتقادي بأنّه كان هديّة من والدي لزوجها، وسألتها إن نت تعرف أصدقاء زوجها القدامى من بيروت.
– للأسف لا. تعرّفت بزوجي بعدما عاد من بيروت. عند دمار الأسواق وساحة البرج، قرّر العودة إلى قريته، تعارفنا هنا وتزوّجنا. وكما تعلم، أيّام الحرب، كان من مستحيل التنقّل بين المناطق، فنادرًا ما أتى أحد لزيارته من بيروت.
هذه الكارثة الّتي كنت أخشاها.
لت، مغلوبًا على أمري:
– هل تلقّى رسالة سنة 1979من ألمانيا؟
لوت رأسها.
– رسالة؟ لا أذكر.
شكرتها وهممت بالخروج.
– أسهل لك أن تعود عبر هذه القادومية.
نني إلى ممرّ ترابي، طريق بين البيتَين غير الّتي سلكتها في المجيء.
– هذا أقصر، قالت.
يْتُ بين العرائش العارية المثبّتة على أعمدة من الباطون. كانت الساعة قرابة ثة بعد الظهر، والشمس عبرت منتصف السماء نحو الغرب. أحسست بالهواء على جهي وسمعت صوته وهو يعبر أوراق الشجر.
شنّف أذنَيّ صوت ترانيم من كنيسة قريبة، نظرت حولي فلم أرَ غير العرائش والأشجار.
كانت الأصوات تأتي بقوّة ثمّ تضمحلّ مع تغيُّر النسمات. أصغيت إلى الكلمات فت منها ترنيمة «أيّها النور البهيّ» الّتي كان ينشدها الأب نعمان ونحن صاعدون إلى الدير.
، مرّة أسمعها منذ ذلك الزمن. فتذكّرت المنحدر وشادي، وعاد إلى ذهني كلّ ما ، أحداث وسنين وآمال، ولأوّل مرّة أحسست، رغم الفشل، بسلام داخلي.
، غضبي وخمدَت النار في داخلي...
ها قد بذلتُ كلّ جهد ولم أجده.

ا أحبّك يا أبي وأعلم أنّك تحبّني. أينما كنت في العالم، حيًّا أو ميتًا، فأنت في داخلي.
شعرت لأوّل مرّة بالسلام الّذي كان يعظ عنه الأب نعمان، وأحسست بقوّة العليِّ الّتي حدّثني عنها الشيخ نعيم، فخالجتني رغبة في الصلاة. تَوْقٌ لم أشعر به من قبل.

مني أبي، أغمضت عينَيّ وأخذت نفسًا عميقًا، ثمّ وضعت يدَيّ أمام وجهي وتلوت الفاتحة.

بسم الله الرحمن الرحيم...

أعدتها مرّة، اثنتَين، ثلاثًا... أعدتها مرّات عدّة.

نت في مكاني كأنّي إحدى تلك العرائش المثبّتة. لا مكان يدعوني ولا حقيبة أكشف سرّها، ولا معلومة جديدة تُربكني، أو بريد أقرأه أو مطار أتّصل به.

انتهى كلّ شيء.

بذلت أقصى جهدي، فلم يُسفر بحثي عن نتيجة، علّك كنت يا أبي حلمًا من صنع الي، أو ضعت مثل شادي أو أخذَتك ملائكة بأجنحة خفيفة.

أينما كنت فأنا أحبّكَ.

ليوم وصاعدًا، ورغم جهلي بما حلّ بك، سأعبّ الحياة الّتي أعطيتني إيّاها. لن أقف جانب الطريق بعد اليوم، ولن تتخلّل جسدي، بين الحين والآخر، ارتجاجات أشعر بها خدَّين مبلّلَين، بل سأدقّ جدران الخزّان دقًّا عنيفًا، حتّى تصبح الارتجاجات زلزالًا يثير نائم داخلي.

نتهى كلّ شيء. انتهى. بقيت أنا والترنيمة والنسيم.

وبينما أنا غارق في أفكاري، سمعت بكاءً قريبًا. تلفَّتُّ حولي فلم أرَ أحدًا. صوت ي وهو قريب. مشيت بعض خطوات، فرأيت الصبيّ الصغير الّذي خرج عند دخولي مزيّن، مقتعدًا الأرض يبكي... عندما رآني أخذ يومئ إليّ وينادي أُمَّه، اقتربْتُ منه مبتسمًا فمدّ يدَيه نحوي، التقطتُه وضممتُه. فوضع يدَيه حول رقبتي وأرخى برأسه على كتفي. أحسست بحرارته، وشممت رائحة صابون ثيابه.

ت ممرًّا صغيرًا باتّجاه البيت القريب فسلكته. عندما اقتربت من المدخل علا صوت بكائه، فإذا بامرأة من الداخل تنادي:

– إيهاب!

تعجّبت من سماع اسمي.

– حبيبي وينك؟

ثمّ أعادت:

– إيهاب حبيبي. تعال عند ماما.

يا للصدفة، الطفل أيضًا اسمه إيهاب!

يت الباب ينفتح وخرجَت صبيّة إلى المصطبة.

فوجئَتْ برؤيتي.

فقلت لها بسرعة:

– كنت في زيارة بيت المصفّف.

– نعم، أهلًا وسهلًا بك.

حين رآها الولد بسط يدَيه نحوها، فأخذَته منّي ووضعَته على خصرها. كانت في
عشرين من عمرها.
– وجدتُه في الكرم يبكي، قلت لها.
– شكرًا لكَ. دائمًا يهرب. تفضّل... أشارت إليّ بالجلوس.
- متشكّر، عليّ الذهاب.
– إنّي أصرّ. تفضّل كبّاية عصير.
شممت حولي رائحة عطر قويّة، فرأيت مشاتل من الحبق في أوعية تُزنّر المصطبة
رها المتوسّط العلوّ، عاد إلى ذهني الحلم الّذي رأيت فيه نبال.
عليّ. كانت ظريفة ومهذّبة فحملتُ الحقيبة ودخلت وراءها. وضعَت الطفل على
حصير ودخلَت المطبخ.
البيت جبليّ بتكوينه وأثاثه. في إحدى زواياه طاولة صغيرة بغطاء أسود، وشمعة
بيضاء ترتعش نارها، وعلى الحائط فوقها صورة العذراء مريم.
بعد لحظات عادت بكوب من العصير.
– أهلًا وسهلًا بك.
سألتها وأنا أنظر إلى الشمعة المضاءة:
– حضرتكم حادّين.
– نعم. على أخي...
– العوض بسلامتكم.
– شكرًا. تُوفّي منذ سنين عديدة...
جاء صوت من غرفة داخلية.
– مريم!
– نعم يا بابا. هل أفقت من نومك؟ سألته.
– مع من تتكلّمين؟
– عندنا ضيف يا بابا.
خرج والدها بثياب النوم من قيلولة بعد الظهر. كان قصير القامة ورأسه يلمع
من قلّة الشعر.
– أهلًا يا ابني.
كان في زيارة عند الجيران. وجد إيهاب في الحقل.
– نعم، أهلًا وسهلًا بك.
ثمّ توجّه إليها:
- هل عادت أمّك؟
– انتهت صلاة الغروب منذ قليل، فلا بدّ أنّها في طريق عودتها.
ض الطفل إيهاب وقفز إلى حضني.
إيهاب حبيبي عيب! قالت له أمّه.
ت منّي وأخذَته وحاولت وضعه على الكنبة إلى جانب أبيها.
لكنّه قفز نحو الباب وهو يصرخ:
– تيتا. تيتا.

خلت علينا سيّدة في الخمسين من عمرها بثياب سوداء. عرفت أنّها أمّ الصبيّة.
عليّ، جلسَت وهي تستمع إلى ابنتها تقصّ عليها كيف وجدْتُ إيهاب الصغير في
فل، وعن زيارتي للمزيّن.
كانت معالم السيّدة جميلة ونقيّة رغم سنيها، ابتسمت لي وهزّت رأسها مرحّبة بي.
وضعتُ كوب العصير جانبًا.
– شكرًا لضيافتكم.
– قهوة؟ سألت الصبيّة.
– لا شكرًا. عليّ الرجوع إلى بيروت فالطريق طويلة.
بت السيّدة تحدّق في ملامحي، واختفَت الابتسامة عن وجهها.
– قهوة على السريع، قال الأب.
– متشكّر جدًّا، سيحلّ الظلام بعد قليل...
دأ إيهاب الصغير يحاول التملّص من حضن أمه، الّتي حملته بعد دخول السيّدة،
فشرع يدفع بجسده إلى الأمام، محاولًا الإفلات، مُصدرًا أصواتًا حادّة.
تذكّرت الحصان الخشبي داخل الحقيبة، فتحتها وأخرجته.
جمد إيهاب مكانه وراح يرقب اللعبة.
رت المفتاح السداسي وأرخيت قبضتي، فتقدّم الحصان نحوه.
رأيت وجه السيدة الّذي لم تفارقه تعابيره الصارمة ترقب يدَيّ ووجهي.
ثمّ سألتني فجأة:
– ما سبب زيارتك للمزيّن؟
قالتها بنبرة حادّة، جعلَت ابنتها وزوجها ينظران إليها متعجّبَين من سؤالها المفاجئ.
– جئت أسأله عن صديق قديم له.
– بخصوص ماذا؟ قالت باللهجة نفسها.
– أمّي ماذا دهاك؟ سألتها الصبيّة بعينَين واسعتَين.
كنّ السيّدة أبقت عينَيها عليّ وكأنّها تنتظر جوابي.
فقلت:
– بخصوص هذه الحقيبة ومقصّ «هرجز» كان داخلها.
فعَت رأسها قليلًا وعيناها مسمّرتان عليّ.
– «هرجز»؟ سألتني.
– نعم.
– ما علاقة ذلك بجارنا المزيّن؟
شعرت بعدم ارتياح فالتزمت الصمت.
فأعادت سؤالها بتشدّد:
– ما علاقة ذلك بجارنا المزيّن؟
فقال لها زوجها بحزم:
– نوال!
وضعَت يدها على ركبته، وكأنّها تطلب منه الانتظار.
عجني إصرارها، لكنّي، وبداعي احترام الضيافة، أجبت:

– هذه الحقيبة ضائعة في حجز المطار منذ سنة 1975 في داخلها وجدت مقصّ
حضره أبي من ألمانيا هديّة للمزيّن، فجئت أسأل المزيّن عن أبي.
م أقدر إلّا أن أخفض صوتي وأنا أنهي جملتي، ومن ثمّ قلت لها:
– فقدت أبي وأنا صغير، وأحاول العثور عليه.
لدهشتي رأيت دمعًا ينزل من عينَيها.
– ما اسم أبيك؟
رفعت رأسي نحوها. فأعادت السؤال.
– ما اسم أبيك؟
– أمّي أرجوك، توقّفي! لا يجوز! قالت الصبيّة غاضبة.
– قل لي ما اسم أبيك!
أحسست بضيق في صدري، أمسكت بالكنبة وشعرت بيدَيّ ترشحان عرقًا، لم أدرِ كيف أفهم أسئلتها، وقد فاجأتني جدًّا دموعها الغزيرة.
– أحمد علّام!
ند نطقي باسم أبي، التفت إليّ كلّ من الأب والصبيّة باندهاش فظيع.
وصرخت المرأة.
– أحمد عمر علّام!
دت في مكاني. من أين تعرف اسم جدّي!
– تعرفين أبي؟ سألتها وقلبي يكاد ينفجر من سرعة ضرباته.
فردّت عليّ:
- من أنتَ؟ وما اسمكَ؟
– أنا إيهاب ابنه!
شهقت وارتمت إلى الوراء، ورأيت ابنتها الصبيّة تهزّ رأسها غير مصدّقة.
– أتعرفين أبي! صرخت فيها. أتعرفينه؟
- لستَ إيهاب، قالت.
تعجّبْتُ من جوابها هذا، فقلت بإصرار:
– أنا إيهاب. يا سيّدة أتعرفين أبي؟
لست إيهاب. لست إيهاب.
قالتها مجدّدًا ويداها على خدَّيها وهي تهزّ رأسها.
- أرجوكِ يا سيّدة قولي لي إن كنت تعرفين أين والدي.
ر ممكن. إيهاب مات. إيهاب مات.
- أنا إيهاب. صرخت بأعلى صوتي وقد ضقت ذرعًا.
هزّت رأسها مجدّدًا رافضة جوابي.
– إيهاب استشهد في السيّارة مع جدّته.
في رأسي آلاف الأفكار كالبرق المتتالي، وضاق صدري بالهواء الّذي صارعَت رئتاي لإدخاله.
يف تعرف اسم جدي؟ وأين علمت بالسيّارة وموت جدّتي؟ إنّها تعرف أبي بلا شكّ.
فصرختُ:

لم أمت. كان ذلك ابن الجيران في السيّارة مع جدّتي. أمّا أنا فقد نجوت.
، ذلك وفقدت السيطرة على دموعي.

انهارت السيّدة بين يدَي زوجها. وقامت ابنتها الصبيّة تصرخ وتدور.

فقلت لها يائسًا:

رجوك يا امرأة إن كنت تعرفين أبي، أتضرّع إليك بأن تقولي أين هو. قضيت عمري
يمًا أبحث عنه، فلا تحجبي عنّي خلاصي.

هبّت نحوي وهي تصرخ:

– يا ابني يا حبيبي! يا ابني يا حبيبي! وغمرتني إلى صدرها.

أصابني الهلع فصرختُ والحيرة تملأني:

– لماذا تدعينني بابنك؟

ضمّت وجهي وأجابت:

– لأنّي أمّك.

– أمّي؟

- نعم، أمّك... وأعرف أين والدك.

الفصل العاشر

– شادي... شادي. هززته.

– ...

– شادي... هيّا استيقظ.

فتح شادي عينَيه الصغيرتَين وفركهما بيدَيه.

هل حان الوقت؟ سألني.

– نعم لقد حان.

فابتسم ووضع ذراعَيه حول رقبتي. أحسست بنعومة بيجامته، فغمرته وقبّلت رأسه.

– أوجدته؟ سألني بحماسة.

– نعم يا شادي وجدته. وأكثر من ذلك.

فقال مسرورًا:

– أخبرني يا إيهاب. أخبرني.

وجدت أبي يا شادي، ووجدت أنّ لي أمًّا أيضًا... هل تصدّق أنّ لي أمًّا يا شادي؟

قال مشدوهًا:

– حقيقة يا إيهاب؟

– نعم حقيقة.

– أنا فرح لك. فرح جدًّا.

– شكرًا يا شادي.

– وهل ستأخذني معكم؟

– نعم سآخذك معنا.

– لم نعد أيتامًا إذًا؟

فهززت رأسي.

– لا، لم نعد أيتامًا.

– لا أصدّق يا إيهاب.

– وأنا أيضًا أكاد لا أصدّق.

ابتسم شادي وزاد حماسه.

– وستحضّر لنا أمّك مقالي البطاطا؟

– نعم ستفعل.

– وسنجلس حول مائدة حقيقية؟

– نعم سنجلس.

– والظلمة الّتي تفيض يا إيهاب؟

– سيمنعها أبي عنّا نحن الاثنَين.

– والنافذة الّتي كنّا نقفز عبرها؟

– لم تعد تهمّنا.

وروني عبّود وعزّام والرقيب جابر؟

– هؤلاء مساكين يا شادي...

فرفع عينَيه:

والطرق الّتي كانت تنتهي قبل أن تنتهي؟

– فتحَت كلّها. وسنعبرها بلا خوف.

– والباصات الثابتة؟

رُفعت عنها المتاريس وستتحرّك من جديد.

– والأغطية المعلّقة؟

– سننتزعها من بين الأبنية، فلا حاجة لها بعد اليوم.

– والصور في الزوايا يا إيهاب؟

– سيُطوَّب شهداؤها قدّيسين.

ثمّ بدا الخوف على وجهه:

والوحش؟ الوحش يا إيهاب. إنّي أخافه جدًّا.

– لن يُخيفك بعد اليوم يا شادي، لأنّي ضربته وكسرت عوده الهشّ، وطردته من شوارعنا.

- وهل ستصلّي معي يا إيهاب؟

– نعم سأصلّي معك يا شادي.

– إذًا لم يعد هنالك فرق بيننا يا إيهاب؟

– لا يا شادي، لم يعد هنالك فرق بيننا.

عاد الارتياح إلى وجهه وقال:

– وهل سأراك مجدّدًا؟

– نعم يا شادي. ذات يوم، ستراني من جديد.

– إذًا سأحجز لك مكانًا جانبي أمام التلفاز، لنشاهد الصور المتحرّكة «توم أند ...ي» و«باباي» و«ميكي ماوس».

– نعم احجز لي مكانًا بجانبك.

– وسنأكل ألواح الأونيكا قدر ما نشاء.

– قدر ما تشاء.

– أنا فرح جدًّا. فرح جدًّا... شكرًا لك يا إيهاب، لأنّك ستأخذني معكم.

– وأنا أيضًا أشكرك يا شادي، لأنّك كنت جزءًا من حياتي.
أنا وأنت أخوان إلى الأبد.
– نعم أخوان إلى الأبد.
– الوداع يا إيهاب.
– الوداع يا شادي.

* * *

حتُ عينيّ وإذا بأمّي تحتضن وجهي. وزوجها جالس بقربي يفرك يدَيّ. أمّا الصبيّة، من أمّي، فأحضرت ماء الزهر تمسح وجهي به. وجلس إيهاب الصغير غير عابئ ا حصل، يدفع الحصان الخشبيّ أمامه على الحصير.

هذه قصّتي كما روتها لي أمّي: تركت أمّي زحلة، بعد انتهائها من المرحلة الثانوية، دار المعلّمين في بيروت. كانت صبيّة في السابعة عشرة من عمرها، جميلة، بريئة، تشعّ أملًا. شاءت الصدف أن تلتقي بوالدي في بيت المزيّن جارهم، الّذي كان يعيش حينها في بيروت، فأغرمت به. ونشأت بينهما علاقة حبّ انتهت بزواجهما، وجئت أنا ثمرة هذا الزواج.

كان المجتمع متشدّدًا يومها، لا يقبل زواج شخصَين من طائفتَين مختلفتَين، فكان ضى شديد من قبل العائلتين بهذا الاقتران. عاشا في بيت جدّتي الّتي استعملت كلّ ائل والحيل حتّى تُفشل الزواج، وبعد فترة من المشاجرات والكلام القاسي ضغوطات، انصاع والدي فطلّق أمّي. لكنّه رفض التخلّي عنّي كما فعل والده به.

ذعنت أمّي للأمر على مضض، بعد أن أجبرها والدها على ذلك، كونها يافعة، وحياتها فل في ظلّ مجتمعنا ستكون جحيمًا. منعتها جدّتي من زيارتي أو رؤيتي، فكانت تأتي ا إلى الحضانة كلّ يوم، تشْكُل رأسي بطرابين الحبق والورود، وتحملني وتقبّلني عرفَت جدّتي بالزيارات فامتنعت عن إرسالي إلى الحضانة. فعادت أمّي إلى زحلة لب مكسور وطفل مسلوب.

بسقوط القذيفة، ذهبت إلى المستشفى حيث كانت الجثّتان ملقاتَين على أرض ى الغرف. وكانت النار قد أكلتهما فلم يبقَ منهما إلّا هيكلان أسودان.

يخطر ببال أحد أنّ الطفل هو ابن الجيران. وتضامنت الأحداث أكثر لتحجب الحقيقة...

ن ابن الجيران من الطائفة المسيحية. ترك أهله منطقة الشيّاح إلى بيروت شرقية، هربًا من المعركة وخوفًا على أنفسهم. كان القتل على الهوية شائعًا يومها، فخافوا أن يُقْبض عليهم وهم في طريقهم إلى شرق العاصمة، فأبقوه عندنا تحسّبًا للأخطار. ولم يعلم أحد من أقربائهم بقرارهم هذا. وحدث ما كانوا يخشونه.

لم يصلوا ليلتها إلى شرق العاصمة. اختفوا، من دون أن يدري أحد أنّ ابنهم قد الليل بجانبي. في الصباح، هبطَت القذيفة وأودت بحياة جدّتي وابن الجيران، ولم في خَلَد أحد أنّ الطفل في السيّارة هو ابن الجيران. أمّا أنا فنقلتني سيّارة الإسعاف مستشفى أوتيل ديو، وبعد أيّام إلى ميتم دير كفرشيما. بقيَت الجثّتان في السيّارة

هدأت المعركة. فوجدهما الناس، معتقدين أنّهما لي ولجدّتي.
أمّا فيما يخصّ أبي، فبعد اندلاع المعارك، قرّر أخذي وجدّتي للعيش معه في لمانيا. إلّا أنّ المطار كان مقفلًا بسبب القتال، فحطّت طائرته في قبرص بانتظار إعادة فتح المطار.
وصل بعد يوم من الحادثة وكان ما كان... ويبدو أنّه فقد حقيبته يومها.
جنازة كان والدكَ يبكي مثل طفل، قالت لي أمّي. وعند انتهاء المراسم ارتمى على التابوت الصغير رافضًا تسليمه إلى المشيّعين. لام نفسه كما أظنّ. لام نفسه لأنّه تأخّر، لأنّه فشل في حمايتك، ولأنّه عجز عن حمايتي. لام نفسه لأنّه سلبك منّي ن ثمّ أضاعك. في نهاية الجنازة ارتمى أمامي وقال:
– أنا مجرم. أنا مجرم والله يعاقبني.
قرّر بعدها ترك لبنان إلى الأبد. فعاد إلى ألمانيا بعد ثلاثة أيّام، حيث طلب وء السياسي، فمنحته إيّاه السلطات الألمانية على ضوء ما حدث.
– ولم أسمع عنه شيئًا بعدها حتّى سنة 1979حين بعث لي برسالة من ألمانيا. اجر إلى فنزويلا. اثنان وعشرون عامًا مضت ولم أسمع عنه جديدًا، حتّى التقى به المعارف، في ضواحي مدينة كاراكاس، حيث يملك أحد أكبر معامل الخياطة.
سألتها كيف تعرّفَتْ بي في منزلها، وكيف حدست بأنّي ابنها.
ا دخلتَ ورأيتك في المنزل أحسست بأنّ والدك جالس أمامي. الأكتاف العريضة، مة الطويلة، الشعر الكثيف وأصابع اليدين... انتابتني قشعريرة، وعادت بي الأيّام سنين إلى الوراء، إلى عهد مضى وصور في العقل الدفين. شيء في داخلي تحرّك. ولد هو جزء من كينونة أمّه، وحين رأيتكَ استفاق ذلك الجزء.
ثمّ سلّمتني الرسالة الّتي أرسلها إليها والدي:
«إلى الستّ نوال.
ري لماذا أكتب إليك، أنا الّذي سحقت قلبك، وحرمتك ابنك، وجعلت لك في الدنيا حزنًا مع كلّ شمس تشرق، وألمًا مع كلّ ضحكة طفل.
طلب منك السماح، لأنّي أصبحت وراء الخلاص. وعلّ رسالتي تحمل اعترافًا وانكسارًا يجعلان للجزء فيك الّذي قد يحمل لي البغض أو الانتقام وربّما الشفقة، سلامًا ورضى، لإدراكه أنّ: هذا الرجل الّذي جعل لي في الدنيا حزنًا، يدفع كلّ يوم ثمن خطيئته.
في ذلك أرضي حبّ انتقامي من نفسي عمّا فعلت وعمّا لم أفعل...
أرى نفسي صغيرًا اليوم، وقد زالت عنّي غطرسة الشباب وسخفه. أرى نفسي صغيرًا جدًّا، لبنان وشعبه وزعماؤه أيضًا صغار، إلى حدّ التفاهة، كأن لا كبار فينا. هؤلاء الّذين زرعوا في جيلنا فكرة التفوّق والتميّز والتعالي؟ أين هم؟
أردت أشياء، ولم يكن لديّ أهمّ من تلك الأشياء. لمَ لا يرى الإنسان إلّا من بعيد؟ ل عقولنا غير قادرة على استيعاب الأحداث في وقتها، أم إنّنا نفرّط بحاضرنا، ظنًّا منّا بأنّ المستقبل سيكرمنا بأشياء أفضل؟
ضوضاء ضجّت في أذنَيّ وبريق أعماني، كبريق الضوء الّذي لا يدوم فوق تكسّر اء. كيف أصبح الدين يفرّقنا، ومن أعطى المجتمع سلطانًا لينهي ويحلّل؟

الت أمّي عنكِ: ليست منّا.. تستحقّ أفضل منها...
كم كنتِ غبيّة يا أمّي! كم كنت غبيّة!
وكم كنت أنا غبيًّا!
تراجعَت بي الأيّام شيئًا فشيئًا، منذ ذلك اليوم حين فقدت أغلى ما عندي. غرامات من الحديد والبارود صنعها أحدهم في عاصمة من عواصم العالم، أمرت بأنّ ما بعد ذلك اليوم سيؤلم لأنّ ما قبله أُضيع سدى.
كلّ ما يدور في خلدي هو سؤال عن صيغة واحدة، أعود به إلى ما قبلي وقبلك، سؤال سهل يحمل في طيّاته فعلًا للزمن والوقت والحدث: ماذا لو؟
ماذا لو لم يكن في الدنيا أديان؟ ماذا لو كان الحبّ هو القانون الوحيد؟ ماذا لو لم تنشأ دولة إسرائيل؟ ماذا لو نشأت وكان سلام مع الفلسطينيّين؟ ماذا لو لم نرضَ باتّفاق القاهرة؟ ماذا لو احترم الفلسطينيون ما قدّمنا لهم؟ ماذا لو كانت سوريا فعلًا شقيقة لنا؟ ماذا لو لم تبعثرنا الحرب؟ ماذا لو كنّا شعبًا واحدًا؟ ماذا لو كنّا عائلة وكان لنا بيت عاش فيه إيهاب وشعر بحبّك؟
ي وسعي إلّا أن أسأل وفي صميمي حزن على ما حصل:
ماذا لو لم نكن نحن، نحن؟

أحمد علّام

ميونخ 1979»

الفصل الحادي عشر

في منتصف الممرّ أنتظر. أمسكَت أمّي بذراع ونبال بالأخرى، وخلْفنا أختي وإيهاب
مغير، وقريبًا منّا جلس متري وحسن...
كانت جموع كثيرة بانتظار مسافريها خلف الحاجز الأخير. بدأ المسافرون
وج عبر الباب الأوتوماتيكي، الواحد تلوَ الآخر. عربات وحقائب وابتسامات، وأولاد
يلعبون ويضحكون، وهدايا وورود تنتظر.
ه المرّة الأخيرة الّتي أفكّر بك يا «أبي في الذاكرة»، فقد عاد الأصيل، ربّ البيت.
مفترق، أمام هذا الباب سأحلّ قيدك، وعلى هذه البلاطات سأقفل بابك، وبين من
اطني سأمحو خطوطك. أبوّة جديدة تنتظرني. لقد عاد «أبي الأصيل»، لقد حضر،
خطواته ترتسم خلف الباب وتتقدّم نحوي، إنّي أشعر بها، وفرحته كالنور ستفيض
وسيملأ ما عجزَت عن ملئه صورك البعيدة والمشاعر المستمدّة منك.
الوداع يا «أبي في الذاكرة»... الوداع...
هناك، عبر الرؤوس والحقائب، رأيت شعرًا أبيض كثيفًا انبثق عبر الجمع، فاختلج
قلبي.
مّي على زندي وفطنَت نبال لتبدُّل قسمات وجهي، وراحت تنظر إلى القادم من
بعيد.
يت وجهه الأسمر القديم وقد زالت عنه تقريبًا كلّ التفاصيل الباقية في ذاكرتي.
لال الملامح والتعابير، رأيت روح من كان قريبًا منّي، من حملني وضمّني وقرأ لي
نا، وأجلسني في حضنه وعلّمني الصلاة. رأيت مَنْ أمِلتُ لعمرٍ مضى لقاءَه وضمّه
وشمّه، من أوجدني ابنًا له، صورة عنه، ومستقبلًا لماضيه. أحسست بسلام مع
خطى الأكيدة القادمة نحوي.
ى يا شادي كيف أصبح الزمن الحاضر أفضل، فجعل الماضي مقبولًا وذا معنى؟ ها
نحن سنجلس إلى مائدة جديدة فلا يعود يهمّنا المنحدر ولا النافذة ولا الظلمة الّتي
يض... لن تغمض عيناي بعد اليوم ولن أعدو في ساحات مدارس تنشئ أيتامًا، خلف
ولاد في ألعاب طفوليّة عبثيّة، سأرى النور وأسمع الأصوات بوضوح، لأنّي سأقف
، رجْلَين صلبتَين لا ترضيان الهروب ولا اللحاق، وسيكون لنا أهمّ من رفيقات نقبّلهنّ

ونمسك بأيديهنّ.
أترى يا شادي؟ أترى كلّ ذلك؟
ترك والدي عربة الحقائب، مدّ يدَيه كالّذي ترأّس لوحة الإغريقي في منتصفها
سماوي. اقترب منّي وغمرني بشدّة كأنّه يريد دمجي بجسمه الطويل. وعَبْرَ صوتي
الأبحّ قلت له:
– ها أنا ذا يا أبي، لم أعد ضائعًا.
فنظر إلى وجهي بحنان وقال لي:
– لا يا بُنيّ، أنا الّذي كنتُ ضائعًا فوجدتَني...
جوهنسبرغ 2009

شكر خاص

زوجتي ماريز ولشقيقتَيّ رولا قطّان ضو وريما قطّان وللأصدقاء نعيمة غارزو، إيلي زو، ورامي السميرات وللشاعر جورج داغر.